مالانعلمه لأولادنا

د. ليلى الأحدب

a b love and sex

الف باء الحب والجنس

2003 الأكثر مبيعاً

مركز الراية للتنمية الفكرية

مكتبات تهامة
TIHAMA BOOKSTORES



بسم الله الرحمن الرحيم

مالانعلمه لأولادنا

الف باء الحب والجنس

الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م



مركز
الراية
للتنمية الفكرية

المملكة العربية السعودية - جدة - حي الجامعة
ص ب ٤١٥٤٧ الرمز البريدي ٢١٥٣١
جوال ٥٢٦٨٣٢٤٧ ٠٠٩٦٦

الجمهورية العربية السورية - دمشق
ص.ب ٩١٨٤ هاتف: ٦١١٩٣٦١
E-mail raya-center@yahoo.com

عنوان الكتاب: مالا نعلمه لأولادنا
ألف باء الحب و الجنس

تأليف: د. ليلى أحمد الأحدب

قياس الصفحة: ١٧ X ٢٤ سم

عدد النسخ: ٣٠٠٠

مالا نعلمه لأولادنا

ألف باء الحب والجنس

د. ليلى أحمد الأحدب



مركز الراية للتنمية الفكرية

إهـــداء

إلى أستاذي الأول . . .

الذي علمني ألف باء القراءة . . .

والذي أشبع وجداني بمعاني الحب والحرية . . .

والذي بث في نفسي مفاهيم المساواة الإنسانية

بين الذكر والأنثى . .

والذي طالما وجدت لديه أجوبة لتساؤلاتي . .

وإكباراً لطموحاتي . .

والذي لقَّنني فن التسامح والتسامي . . .

والذي سكب من فنه وحساسيته في

روحي . .

والذي فتح آفاقاً من الوعي أمام عقلي . .

والذي زرع الإيمان والثقة في نفسي . .

أخي صالح رحمه الله . .

إلى روحه أهدي هذا الكتاب

سائلة المولى سبحانه أن يجزيه خير جزاء . . .

وأن يرفع درجاته في عليين . .

ليلى

تقديم

بقلم: علاء الدين آل رشي(*)

> إن نجاحنا كمجتمع لا يعتمد على ما يحدث داخل البيت الأبيض بل ما يحدث داخل بيوتكم.
>
> ستيفن كوفي

توقف الشيخ ولم يستطع أن يتابع تفسيره الآيات القرآنية بعد ما احتار في أمره كيف يجيب على سؤال برئ لأحد الطلبة الصغار كان هذا في السنة الأولى من الدراسة الشرعية في بلدتي دمشق والسؤال المحيّر الصعب الذي أضنى عقل الشيخ وكدَّه هو ماذا يعني قول الله سبحانه ﴿وَكَواعِبَ أَتْراباً﴾؟

فالتربية حسب مفهوم شيخنا الكريم آنذاك تقتضي زجر الطالب عن استفسار كهذا وقد يدخل إلى نيته ليحاسبها على هذه الجرأة و(الشيطنة)...

ثم انتقلنا إلى السنة الدراسية الثانية لنقرأ في أحد متون الفقه أن المرأة يتوجب عليها وهي تطهر نفسها ألا تكتفي بإصبع واحد منعاً ودفعاً لحصول اللذة ؟؟

وعندما كبرنا وجدنا أن الثقافة الجنسية لو أردنا تحصيلها لكان علينا أن نضع أنفسنا بين يدي أولاد الشوارع ممن حفظ الفكاهات الجنسية والألفاظ التي لا تخفى على أحد...

وسمعت من صديق لي أن رجل أمن في أحد البلاد العربية استجوب ناشراً وأخذ يلومه على توزيعه كتابا يتحدث عن الجنس والإسلام.

كان هذا الضابط يتحرق على عظمة الإسلام!!!! وقال للناشر كيف يكتب هذا الرجل عن الجنس والإسلام؟؟!!

(*) إجازة في الشريعة الاسلامية، عضو في اللجنة العربية لحقوق الانسان، عضو في رابطة أدباء الشام، عضو مؤسس لمركز الراية للتنمية الفكرية، لـه العديد من المشاركات الفكرية والإعلامية، كما ظهرت لـه الدراسات الآتية هكذا علمني محمد الغزالي وكتاب في ظلال السيرة النبوية والعقيدة الطحاوية في ثوبها الجديد وتحت الإعداد (في سؤال النهوض والتغيير)، مؤسس سلسلة ما لا نعلمه لأولادنا وسلسلة شخصيات وأفكار.

الإسلام ليس فيه جنس، الإسلام عبادة وصيام وزكاة وحج وحسب كيف يفسد الناس والدين بهذا الكلام...هكذا قال المحقق للناشر الذي بهت.

لقد وعى الرجل المخابراتي أن فقد الناس لقضاياهم الكبرى وكفهم عن مطالبتهم بحقوق المواطنة الكاملة يكمن في شغلهم بالجنس وأمور أخرى وعندما وجد رجال الأمن كاتبا يعالج مشكلة الجنس من منظور أخلاقي إصلاحي خافوا على الناس والدين أن يفسدا!!!!

أما أن تغرق وسائل الإعلام بأغاني (نانسي عجرم) وغيرها فهذا هو الحرص بعينه على أمن وسلامة البلد!!!

وفي بلد آخر قام الرقيب الإعلامي بمنع حوارية فكرية بين نوال السعداوي وهبة رؤوف عزت لخشيته على عقول البشر من أن تُلوث بآراء السعداوي الإباحية.

هذه الوصاية المزيفة على عقول الناس أسهمت كثيراً في تنشيط أحداث جنسية ومشاكل اجتماعية وأشياء بتنا نسمعها ونحن نكاد لا نصدقها لشدة فظاعتها.

وعندما كنت بزيارة شيخي الأستاذ معاذ الخطيب شكى لي تبرم شيوخ بلدتنا من حلقات بثها العلامة القرضاوي عن الجنس والمحظور والمسموح فيه وقال لي لقد اتهموا العالم الكبير بخدشه للحياء العام.

واستذكرت قول الدكتور الكبير المرحوم أبوشقة في موسوعته الرائعة (تحرير المرأة) : الحياء المسرف ماهو إلاوضع نفسي نشأ وتمكّن منا حتى ليستعصي علاجه إذا حاولنا العلاج وذلك نتيجة أوهام وتقاليد بالية ما أنزل الله بها من سلطان لكننا توارثناها جيلاً بعد جيل وكأنها دين نستمسك به ونلقى الله عليه وما درينا أننا أسرفنا على أنفسنا واتبعنا أهواءنا وخالفنا شرع الله الحكيم وهدي نبينا الكريم وسيرة أصحابه الأطهار) ج٦/٤٠.

وكنت أقرأ كتابا للمهندس محمد شحرور فوجدته يهاجم رواة الحديث الذين وصفوا لنا غرف النوم والأحاديث المتعلقة بالرسول ومعاملته لنسائه.

ويبدو أن السيد شحرور نسي أن الرسول الكريم ﷺ هو مشرّع وقدوة وأنه تناول بحياته حياة الإنسان الكاملة منذ الولادة وحتى الوفاة لتستوعب كل الجزئيات بتفاصيلها لتكون من بعد مؤشراً وبوصلة هادية لكل من آمن به.

ونصح كاتب معروف وشيخ مقتدر الفتيات بالابتعاد عن الشبان لأنه ما نظر شاب إلى فتاة إلا وتخيلها عريانة!!

وهكذا اختزل الرجل الطيب المرأة بمفردة واحدة هي الجسد.

وتعرضت فتاة لحملة تشهير وقذف عندما اشتركت مع كاتب هذه السطور بإعداد بحث عن سيرة الرسول المصطفى ﷺ لقد قال لي واحد من أصحاب الثرثرة والكشف على النوايا ما شعورك تجاهها وكيف سولت لك نفسك الاشتراك معها بمثل ذلك الأمر؟!

ومجتمعاتنا على الأغلب لم تتعود بعد على الشراكات الإنسانية الخيرة المحضة وإنما ما تعرف رجل على امرأة إلا ولابد من دعوتها إلى .....

وعندما تفاعلت مع المشاكل الواردة لموقع (إسلام أون لاين) والتي أجابت عن بعضها السيدة الأخت الدكتورة ليلى وقمت بتقديم تلك المشاكل وجدت نفسي وسط ساحة من السهام والانتقادات والتعليقات الاستفزازية.

ولو كان ما يرد إلي موضوعياً لأخذت به وإنما هو جملة من الاعتراضات تخلو من العلمية وتميل إلى ما أسميه بـ (الورع الزائف) وهي لا تعدو عن كونها عقداً شخصية فبعض المعترضين سأل لماذا كل هذه الفضائحية والجنس اللاهب ؟ لماذا ننشر تلك الاستفسارات الخائبة ؟ما الهدف من تعميمها؟؟

وأحيلك صديقي القارئ للكتاب (أسئلة محرجة وأجوبة صريحة) بأجزائه إن أحببت للتعرف عليه ففيه ما ينفع ويكرس فهماً دقيقاً لمشاكل حقيقية كما بينت قناعتي بضرورة نشر مثل هذا النوع من الثقافة.

وعندما توجهت لمدرسة عالمية مشهورة ومعروفة لأسجل بنتي أخذت المديرة

تتحدث لي عن نشاطات المدرسة وأنهم أقاموا عرساً تمثيلياً بين ذكور وإناث الحضانة؟؟؟!!! وألبسوا الاطفال لباس العرسان!!!!!

هذه المدرسة لم تسمع يبدو بثقافة الناشئة ومرحلية ما يقدم من معارف ومعلومات للأطفال.

أسوق تلك الصور والرؤى والمعاملات المتناقضة والمتهافتة في مجتمعاتنا العربية التي تعكس عقليتنا وسلوكياتنا في التعامل مع قضايا المرأة الجنس وتدلل على نماذج موجودة ومعلولة في حياتنا.

إنها دوائر من العقد المركبة والنقص وعدم وضوح الرؤية وهي وبصراحة تبرهن على فشلنا في قراءة المرأة والجنس والحب.

بل بات التعرض الذكي لمثل هذه المواضيع بابا جهنميا يدخل المرء منه ولا يعرف هل سيقضى عليه أم لا؟

إننا نحسن التهرب من مشاكلنا ونميل إلى عقلية التسويغ والتبرير وهاهي بلادنا تسقط أمام أي ريح خارجية وماكان هذا ليتم لو أن إنساننا العربي الحبيب وجد محاضن تربوية واعية تعلمه التوازن والواقعية وتنشد به بر الأمان وتعلمه ماذا تعني إنسانيته.

ولئن راهن أصحاب المشاريع اليسارية واليمينية على التغيير من فوق فإننا نؤمن أن النهوض والتغيير عمل تراكمي تكاملي ولكن نقطة البداية فيه هي الإنسان تلك النفحة الربانية العجيبة.

فلنعترف وبصراحة أن خلفيتنا المعرفية والتي تحدد تفكيرنا وطرائق تعاملاتنا مع الآخر بدائية فنحن بحاجة إلى صياغة واقعية وأخلاقية للتعامل مع الغير سواء كان هذا الغير ممن يختلف عنا أيدلوجيا أو بيولوجيا كما أننا لم نكن واضحين إلى درجة مقنعة وغير مشوشة في مواضيع حساسة كالجنس والحب والجمال و....

وليس لدينا وسطية في هذه القضايا فنحن إما بناة أهرام من الحلم والنهود كالشاعر المرحوم نزار قباني أو ممن يتشبه بالعصور المظلمة فنحمل المرأة الإثم الأول

والشر المطلق وتلوى أعناق النصوص لكي توافق تلك التأويلات ومن غريب مامر بي أنني قرأت مرة لأحد أئمة التفسير المشهورين تفسيراً لقوله تعالى ﴿الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ القوامة بحكم الفحولة الذكرية والقوة الجسدية....

إن أمراضنا الفكرية ينبغي أن نتعافى منها إذا كان لابد من البقاء في وجه الأيام الصعبة والمتغيرات المتلاحقة ونثبت الوسطية والشهود وكخطوة أولى لتجديد عقليتنا نقدم هذا الكتاب الخطير في موضوعه وأقترح أيضا ممارسة بعض الرياضات الذهنية كمدخل تهميدي لمراجعة موروثنا التعليمي الجنسي.

- ماهي المعارف التي تؤثر في تفكيرنا ؟
- ماهي الخطوات اللازم التعرف عليها لتمكننا من توسيع قاعدة الفهم ؟
- علينا أن نرجع ثقافتنا إلى الأصول بعيداً عن المراجع المستعارة من خارج الزمان والمكان كما نأخذ بما يتفق ومقاصد الشريعة.
- أن نراجع معارفنا ومواقفنا الفكرية حول أي موضوع وان (نبحبش) في مصداقية ما نؤمن به.
- أن ندرك أن هناك ثقافات ورؤى أخرى مما يعني نسبية ما ندعي صحته
- أن نسمح لأفكار الآخرين أن تأخذ من وقتنا شيئاً.

* * *

وموضوع كتابنا هذامن أخطر المواضيع الحساسة وأدقها فهو يتناول الأسرة والولد والتربية اللازمة وسبلها في نقطة حساسة وساخنة في حياتنا.

وإذا كان تعريف الأسرة كما جاء في علم الاجتماع جماعة اجتماعية بيولوجية نظامية تتكون من رجل وامرأة يقوم بينهما رابطة زوجية مقررة بالإضافة إلى أبناء يقيمون في مسكن واحد.

فإن حديث المؤلفة القديرة قد استوعب مكونات الأسرة بدءاً بالوالدين وانتهاءً بالأطفال.

إننا نهدف من وراء الكتاب إلى ما يسمى بالنضج الجنسي (maturity sexual) والصحوة التربوية.

نريد لأبنائنا أن يدخلوا هذه الحياة على نحو طبيعي وأن يشبوا أسوياء بعيدين عن العقد والعادات الدخيلة والراكدة وأن يفرقوا بين الحب الحقيقي والحب الزائف.

وإذا كنا نسعى نحو مستقبل لأمتنا وسمعة طيبة لأسرنا وحياة ناجحة فلنهتم بأبنائنا ولنتذكر أن طفل اليوم شاب الغد.

والشاب هو القادر على تحويل القسوة إلى سلاح ضد الذين يبددون كرامة الإنسان كما يقول الدكتور (سبوك) والشاب هو الذي يستطيع أن يبرمج الأيام بما يحقق سعادته ورفعة مجتمعه.

ولنتذكر أن الأساس الذي يبنى عليه الابن والابنة حياتهما هو السلوك اليومي بين الأب والأم.

وإننا بمقدار وضوح تربيتنا وجديتها وإنسانيتها نقرر مستقبل أبنائنا بل ومصيرنا كأمة.

وختاماً أشكر المؤلفة على جهدها الكبير كما أتوجه بجزيل الشكر للأستاذ الفاضل بسام ضياني وكذلك لأخي المثقف أشرف بكر وجميع أسرة مكتبات تهامة لتأييدهم لهذه السلسلة من الكتب التربوية الجادة.

لماذا هذا الكتاب؟

عندما أخبرني الأخ الكريم الأستاذ علاء الدين آل رشي باسم السلسلة التي ينتمي إليها هذا الكتاب ألا وهي (ما لا نعلّمه لأولادنا) كان أول ما خطر ببالي الأمرين الأكثر عمقاً في التكوين البشري ألا وهما الحب والجنس؛ فأن تكون محباً ومحبوباً فطرة بشرية ماضية وأن تُشبع غريزتك الأشد إلحاحا، خاصة في مرحلة عمرية معينة، سُنّة تكوينية باقية؛ فلولا الحب والعاطفة لما كان للكون بهجته وجماله ولا للحياة ألقها وروعتها ، ولولا الرغبة والجنس لما عرف البشر ذلك المعنى الفريد للتواصل ناهيك عن غايته الأخرى في التناسل.

ولكن لنتوقف هنا قليلاً ... إن الحب والجنس رغم تميُّزهما عن بقية المشاعر والرغبات فإنهما الأكثر تجاهلاً في حياتنا، وفي ما نعلمه لأولادنا، وفي ما نحرم تداول معرفته بيننا؛ رغم أنه يمكن اعتبارهما الأكثر خطراً على حياة الإنسان إذا لم يتم ترشيدهما وتهذيبهما وربطهما بالعقل، ذلك المَلِك المتوَّج والذي رفع الإنسان إلى درجة التكريم الأسمى بين الكائنات، فبالعقل وحده كان فضل الإنسان على الملائكة في المعرفة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ۞ قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلاّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٣١-٣٣]

وهذا الكتاب يخوض غمار بحار شتّى من المعرفة كلها تصب في محيطين اثنين لا ثالث لهما ألا وهما محيط العاطفة ومحيط الرغبة الملتقيان المنفصلان؛ ولذلك كانت فصول الكتاب تنتمي إلى العاطفة تارة وإلى الرغبة تارة أخرى، وتختلف السباحة بين تلك الفصول باختلاف شدة التيار والفرق في العمق وتباين الأمواج؛ ومن هنا

يـأتي تنـوع الكتـاب وغنـاه، واتسـاع أغـواره ومـداه، وتشـعب مسـالكه ورؤاه، فالسباحة أساساً ضد التيار والبحر لجـيّ يغشـاه مـوج مـن فوقـه مـوج في ظلمـات العادات والتقاليد والممنوع والعيب والحرام!

لذلك فقد وجدتُ نفسي مدفوعة بصوت الواجب لوضـع كتـاب كهـذا ينبـش جزءاً من المسكوت عنه ويفعّـل بعضـاً مـن المتسـاءل حولـه رغـم الصعوبـات التـي اعترضتني، أما دوافعي فقد كانت:

أولاً: اعتبار الحب شيئاً معيباً في ثقافتنا والنظـر إلى الجنـس بأنـه دَنَـس أو حـرام أدّى إلى أخطاء لها أول وليس لها آخر في ممارستنا لهذين الأمرين عبر قرون، فكان لا بد من التأكيد على معاني الحب السـامية وتفهُّـم معانـاة المراهقـين الذيـن يمـرّون بهذه التجربة؛ كما كان من الواجب تبيان أن الجنس إذا تم في إطار الزواج المقدس بنيّة الإحصان وإعمار الكون والشعور بالمسؤولية فإنـه ارتفـاع بـالغريزة إلى هدفهـا الأسمى، بعكس ما إذا تمت ممارسته خارج هـذا الإطـار فإنـه هبـوط بالإنسـان إلى الدرك الأسفل.

ثانياً: توضيح الفرق بين الحب والجنس لأن الخلط بينهمـا أدى إلى انفـلات بـين الشباب والشابات، كما نتج عنه تشدد من قبل الأهل بحيث كان يُمنع الُمحب مـن التقدم لمحبوبته بمجرد أن يُكتشف ما بينهما من الحب حتى لو كان قلبياً؛ وقد أدى هذا التشدّد إلى جملة حوادث بل أسميها كوارث من وجهة نظر إنسانية، لأنه مما لا يرضي الله تعالى ولا الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الإجحاف بمعنـى كبـير مـن معاني الإنسانية كالحب.

ثالثاً: إن ثقافتنا الحالية تقوم على أسلوب المنع، فَمَن مِنّـا علـى اسـتعداد لبحـث أمور جنسية مع أطفاله؟ وكم مِنّـا يعـرف كيـف يتـم إيصـال معلومـات هامـة عـن الجنس للأطفال حسب مراحل أعمارهم المختلفة؟ وكم مِنّا يُزوِّد أولاده بالمعلومات

الصحيحة والتصور الأنسب عن علاقة المرء بجسده ثم عن علاقته بزوجته حين يحين الوقت لذلك؟ وما هي ضرورة هذه العلاقة من الأساس؟ كيف نتجاوب مع أسئلة أطفالنا الجنسية وكيف نجيب عليها؟

رابعاً: يجب أن تحل ثقافة المناعة محل ثقافة المنع، إذ ينبغي أن نتعامل مع أولادنا بطريقة تُعلي الصداقة والتفاهم معهم لنمنحهم ثقتهم بأنفسهم وبقدرتهم على التصرف بتوازن وتعقُّل، لأننا - والله أعلم- قادمون على مواجهة شديدة، فما أظنه هو أن ثقافتنا ستكون وجهاً لوجه أمام الثقافة الغربية كما لم تكن في السابق، فإذا لم نمنح أولادنا لقاحات المناعة الإيمانية منذ طفولتهم بأن نشرح لهم معنى وجودنا في هذا الكون وأنّه لإعمار الأرض بالبشر الجادين النشيطين البعيدين عن العبث والتخريب، فإن ما يحصل في الغرب قادم إلينا لا محالة، وقد غزتنا الثقافة الغربية في عقر دارنا، فأرتنا وجهها الحزين وأشاحت عنا وجهها الباسم؛ وبينما يعمل أهلها لتلافي أبعاد مآسيها جهدهم ويحاولون إيجاد حلول لمشاكلهم التي سببها الأساسي هو إنكار البعد الروحي في الإنسان والاهتمام بالمتعة الآنية واللّذّة المخطوفة، نعمل نحن على قطف ثمار هذه المتعة المحرَّمة عن طريق الفضائيات والإنترنت وغيرهما، وهاهم أولادنا في خطر عظيم من إدمان المخدرات والعنف والجنس رغم أن الحضارة الغربية لم تقدم إلينا بقضها وقضيضها بعدُ، فكيف إذا حصل ما هو متوقع وأكبر مما هو متوقع؟!

هذا ماحفزني لوضع هذا الكتاب، أما الصعوبات فقد تبدَّت في كتابة بعض الفصول أكثر من الفصول الأخرى، ورغم أن التبحر في كتب علم النفس كان هوايتي الأولى منذ الصغر وأن الأفكار متواجدة مجتمعة في الذهن، لكن البحث عن مصادر موثوقة تتناول هذين الأمرين "الحب والجنس" بموضوعية وحيادية ودون تأثر بمحيط أو ظرف أو ثقافة لم يكن أمراً سهلاً، وكمثال فإن اختلاط موضوع الحب بموضوع الجنس وتعذّر فصلهما الكلي شكّل إحدى الصعوبات، ولا يخفى على

أحد مدى التأثُّر الغربي بنظريات (فرويد) الذي أعلى غريزة الجنس حتى ساواها بغريزة حب البقاء أو رفعها فوقها، عدا عن إنكاره لموضوع أساسي وحيوي كالحب، مما جعل الكتب النفسية التي تحلل الحب بمصداقية تكاد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة.

ولحسن الحظ كنت قد اطّلعت على كتاب (الحب بين الشهوة والأنا) (لتيودور رايك) منذ عدة سنوات، وفيه نظرية معقولة ومقبولة عن الحب ونشوئه وطبيعته وعلاقته بالجنس؛ لكن الغريب في الأمر أن هذه النظرية لم تأخذ حقها من الدراسة والنقد، لذلك وجدت أن أفضل ما يمكنني القيام به لإعادة الأمور إلى نصابها أن ألخّص بعض أفكار ذلك الكتاب القيّم، وأعتبرها مساهمة من مؤلف الكتاب ومن مترجمه ومني شخصياً في التأكيد على بُعدٍ هام من أبعاد إنسانية الإنسان؛ إذ ليس من المعقول أن يكون تصرف المرء في حياته من المهد إلى اللحد خاضعاً لغريزة الجنس، كما أنه ليس من الممكن أن نرضى بجعل الذكر كالأنثى.

وقد كان لذلك الكتاب فضل عليَّ في إدراكي لبعض أخطاء الغربيين ودعاة النسوية الذين خلطوا الأوراق واعتقدوا أن الرجل كالمرأة من الناحية النفسية والعاطفية والجنسية، فأتى (تيودور رايك) لِيُظهر الفرق واضحاً بين الجنسين في هذه النواحي، ولذلك فأنا أنصح بالاطلاع على ذلك الكتاب كاملاً وعدم الاكتفاء بما أوردته هنا، حيث أخذتُ فقط ما له علاقة بالحب الانفعالي الذي يأتي في مرحلة المراهقة والشباب الأولى.

ومع ذلك فقد أدرجت في نهاية الكتاب ملحقاً مترجماً عن صيرورة الحب عند الأكبر سناً محاولةً مني لإكمال الفائدة؛ وأما الملحق الآخير فهو ترجمة لمنهج علمي للمرحلة الإعدادية رأيت أنه يمكن الاستفادة منه في وضع منهاج علمي عن التناسل وربط هذه الغريزة بالأبعاد الدينية والأخلاقية والاجتماعية.

وقبل الملاحق التكميلية جاءت الأبحاث الأساسية في خمسة عشر فصلاً، وقد وضعتها بشكل متدرج من أهمية التربية الأخلاقية.

في الفصل الأول والتي ناقشت ضمنها دور الأسرة والمدرسة وأهمية هذا النوع من التربية وكيفيتها ثم علاقة التربية كمفهوم كلي بالفرد وجنسه والحياة المعاصرة التي يعيشها؛ إلى تأثير العلاقات الأسرية على الناشئ.

في الفصل الثاني الذي تضمَّن ارتباط الأبوين ببعضهما وكيفية المحافظة على الحب والمودة بينهما وصلة الناشئ بهما وبإخوته ثم عدت أيضاً إلى الحياة المعاصرة والتي تفرض على الطفل ارتباطاً من نوع آخر لم يكن معروفاً بهذا الشكل من قبل وهو ارتباطه بالمربِّية التي تقوم مقام الأم في دار الحضانة، وكذلك تأثير الإفراط في المحبة أو التفريط بها على الناشئ، ولم يفتني ذكر سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ومعاملته للأطفال الذين تضمهم أسرته أو لأطفال المسلمين عامتهم وخاصتهم.

وفي الفصل الثالث عرجت على تقييم الذات وبناء الشخصية عند الناشئ لما ذلك من أهميةٍ في تطوير انفعالاته واحترامه لنفسه وبالتالي احترامه للآخرين وعلاقة كل هذا بتكوين شخصية سوية تميل إلى التوازن وتبتعد عن الغلو في العواطف أو التطرف في إشباع الغرائز؛ وبيَّنتُ أيضاً هنا دور الأسرة والمدرسة والمجتمع.

أما الفصل الرابع فيمكن اعتباره تتمة للفصل الثالث لأن تعديل الرغبات ورعاية العواطف هو جزء أساسي من تكوين الشخصية، وفيه عدت إلى دور الأبوين ومسؤوليتهما عن التوجيه الديني لما للدين من تأثير في تخفيف حِدَّة الغريزة وتعديل الميول الخاطئة وإعلاء الميول الرفيعة، ومن ثم أتيت إلى دور العقل في التوازن الفردي والمجتمعي.

في الفصل الخامس والسادس درست النمو الانفعالي والعاطفي للطفل والمراهق وتعرضت لمشاكل كل من هاتين المرحلتين خاصة ما له علاقة بفقدان عاطفة الحب في الطفولة أو ما له صلة بالتغيرات السيكولوجية في المراهقة خاتمة إياهما بالنصائح المهمة للأبوين في هذا المجال.

أما في الفصل السابع فقد كان لا بد من تتمة دراسة الشق الأول النفسي بالجانب الثاني الجسمي فتم استعراض أهم ملامح النمو الفيزيولوجي الجسدي والجنسي لدى المراهق.

وبما أن الجانب الجسدي لا ينفصل عن الجانب الروحي فقد تناولت في الفصل الثامن الحب الإنساني والصداقة لتكون مدخلاً إلى الفصل التاسع ألا وهو تعريف الحب بأنه عشق الجمال ونزوع نحو الكمال؛ ومنه دلفت إلى الفصل العاشر بقراءة ملخصة لأهم معالم كتاب (الحب بين الشهوة والأنا) من حيث القسم الأول فيه والذي يهمنا في موضوع كتاب ألف باء الحب والجنس، وهكذا تم تحليل الحب الانفعالي لأنتقل منه إلى الحب المتعقل وقوانينه والذي بينت أنه هو الذي يصلح أساساً لزواج ناجح، فكلمة أولادنا تضم مرحلة الطفولة والمراهقة والشباب وليتها تنتهي بزواج الشاب أو الفتاة، خاصة أننا في مجتمعاتنا الشرقية اعتدنا أن نحمل هم الولد والبنت قبل الزواج وبعد الزواج وهذا خطأ من أخطائنا التربوية لعله يكون موضوعاً لدراسة أخرى غير هذا الكتاب.

بعد الدراسة النفسية للحب كان لا بد من الاطلاع على علاقة الحب بالدين وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ومقولات الفقهاء وآرائهم المختلفة في الحب ؛ وهذا كان موضوع الفصل الحادي عشر لتكون التربية الجنسية والدين موضوع الفصل الثاني عشر الذي تضمن الإعلام الجنسي للناشئ ونظرة القرآن للجنس وأهداف الزواج وكيفية تناول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه لموضوع حيوي كالجنس واختلاط مفهوم الحياء المحمود بالخجل المذموم.

أما الفصل الثالث عشر فبحثت فيه دور الأسرة في التربية الجنسية مستفيدة من كلام وكتابات الأخصائيين النفسيين والتربويين وغيرهم فيما نقوله لأولادنا عن الجنس وكيف نجيب عن تساؤلاتهم حسب أعمارهم المختلفة.

وتابعت مفهوم هذه التربية في الفصل الرابع عشر حيث أوضحت ما يمكن أن يتعرض له الناشئ من ثقافة جنسية عبر وسائل الإعلام المتنوعة بما فيه السينما والفيديو والتلفزيون وأفلام الكرتون والقصص وضرر كل ذلك أو نفعه، وكذلك دور المدرسة في التثقيف الجنسي، والتجارب المختلفة في تدريس الثقافة الجنسية في بلاد الغرب والشرق، وبيَّنتُ آراء الفقهاء وغيرهم وناقشتُ تلك الآراء من خبرتي الخاصة ومن قراءاتي المختلفة.

وفي الفصل الخامس عشر والأخير تم التعرض لمشكلة حياتية قد يتعرض لها الناشئ ألا وهي الاعتداء الجنسي وقد أوسعته بحثاً من حيث تصرفات المعتدي مع الناشئ وآثار الاعتداء الجسدية والنفسية القريبة والبعيدة المدى والمؤشرات الجسدية أو النفسية أو التصرفات التي قد تدل على أن الطفل تعرض لتحرش أو اعتداء جنسي، وأدرجت مدى شيوع هذه الظاهرة في المجتمعات الغربية والعربية، وكيفية الوقاية منها والتعامل معها إذا حدثت.

بعد هذا العرض السريع لأهم فصول الكتاب لابد أن أنهي هذه المقدمة بالتذكير بدورنا كمسلمين وعرب في بناء الحضارة الإنسانية وهي سلّم يرقى إليه بنو الإنسان صعوداً، وقد آن لنا أن نستفيد من الحضارات الأخرى بشكل صحيح دون أن نترفَّع عليها ودون أن نستجدي فتاتها، وقد غفلنا عن كثير من علوم الغرب الإنسانية والاجتماعية بحجة أنها تنطلق من منطلقات مخالفة لما هو عليه ديننا، ولكننا لو تقصينا الكتب الغربية التي كتبت في هذه العلوم لوجدنا أن من يرد على افتراءات الحضارة الغربية وتشويهها للفطرة الإنسانية هم من أهلها، ومنهم من وصل إلى هذا قبل أن يرى نتائج ابتعاد الإنسان عن التوجيهات الربانية، ومنهم من

دقق في الأسباب والنتائج، وبعضهم ما زال يبحث عن حل، وقد أوردت الكثير من أقوال هؤلاء في ثنايا الكتاب؛ فكم عبَّر الغربيون أنفسهم أنهم ما زالوا يبحثون عن وجه حضاري أحنى على البشرية من حضارة الغرب، ولعل هذا الوجه يكون حضارتنا الإسلامية التي قرُب فجرها بقدر ما حلك ليلها، ولله الأمر من قبل ومن بعد، والحمد لله رب العالمين.

ليلى أحمد الأحدب

الفصل الأول

التربية الأخلاقية.. لماذا وكيف؟

إن تكوين الضمير الأخلاقي في الإنسان أمر ضروري من أجل إعلاء إنسانية الإنسان، وعدم معرفة هذا الأمر أو تجاهله يؤدي إلى بروز اضطرابات وخيمة في الفرد وفوضى كبيرة في المجتمع، ولذلك يجب أن يكون هناك تنسيق بين مهام المربين سواء كانوا آباء أو أساتذة، بحيث يتم تهذيب الغرائز دون إنكارها، فالله لم يضعها فينا إلا لحكمة، وثمة حالتان متضادتان يمكن أن تحولا دون تحقيق هذا الأمر، فقمع الغريزة بسبب ترويض النفس أو الزهد والتقوى المفرطة يشل الغرائز ويعلي من أمر الروح على حساب الجسد، وهذا مما يدفع الإنسان أحياناً إلى الانحراف، كما أن التضحية بالخلق في سبيل الغرائز وإشباع هذه الغرائز دون رادع من ضمير أو وازع من عقل يؤدي إلى الفقر الأخلاقي، ويفصل بين الروح والجسد أيضاً، وهذا له عواقبه السيئة فالله سبحانه أنزل علينا قرآناً وخلق فينا عقولاً ووضع فينا غرائز، فإشباع الغرائز لوحدها انحدار بالإنسان إلى درك الحيوانية، وإنكارها ارتفاع إلى مصاف الملائكة، والله سبحانه لم يشأ أن يخلقنا ملائكة، كما لم يخلقنا حيوانات، لذلك فإن الغرائز يجب أن يتم إشباعها تحت إشراف العقل والخلق والدين.

دور الأسرة:

جاء في كتاب العقل الكامل: (ليس هناك أية تركيبة اجتماعية تؤثر في بناء الطفل مثل المنزل، ففيه توضع قواعد الأخلاق. والمنزل الذي يسوده التفاهم والمحبة والألفة بين أفراده تتهيأ فيه سبل الكمال بنحو أسرع، ويؤخذ بيد الطفل نحو الاعتماد على النفس وتحقيق الجدارة والكفاءة، وتنمية روح التفاهم وحب

المسؤولية في نفسه. أما المنزل الذي ينعدم فيه التفاهم والمحبة والألفة فلا سبيل فيه للكمال، وفيه يشعر الطفل أنه منبوذ من قبل الجميع، وربما كان هذا سبباً في عدم تحركه في الحياة بثقة واطمئنان، أو أنه يصاب بصدمة خوف من كثرة ما يتعرض له من تهديد، فيتملكه الخوف من أدنى شيء، أو أنه يتلقى معاملة من أبويه يعجز عنها عن التكهُّن بردّة فعلهما إزاء الواقع، وهكذا يعيش الطفل دائماً حالة عصبية، أو أنه يصبح مجرد وسيلة يتنافس عليها أبواه، أو أنه يجد نفسه مرغماً على الدخول في منافسة عمياء للحصول على ما يبتغيه، أو أنه يتوصل من خلال معاشرة من هم أكبر منه سناً إلى نتيجة خاطئة تقول بأن الحياة لا معنى لها إذا ما صرف الإنسان النظر عن تحقيق أمانيه وسد احتياجاته).

فالتربية تبدأ من الأسرة وهي جزء من الوجود الإنساني كالفن والعلم واللّغة تماماً، ويتحتم أن تكون هناك قواعد للتربية وبالطريقة نفسها التي فيها جمالية، ومبحث علوم، وفلسفة للّغة.

لكن كيف تكون التربية أخلاقية؟ وكيف يمكن أن نربي الولد أخلاقياً دون أن نفقده تميزه الفردي، ودون أن نجعله نسخة منا نحن الوالدين؟

يجب إدخال المفاهيم الأخلاقية إلى عقول أطفالنا وأفئدتهم، وأهم أسلوب في التربية هو التربية بالقدوة، فعالم الطفل مغمور بحبه لتقليد الكبار، لكننا لا نريد أن نخلق بشراً مقلدين فقط، بل نريد أن نبني إنساناً مميزاً ومتفرداً أيضاً، لذلك لا بد أن نُحبِّب الفضائل إليهم ونُكَرِّهَهُم في الرذائل، بإفهامهم عاقبة كل من الخير والشر في المجتمع، لكن دون أن ننسى أن في داخلهم ضميراً ينمو مع نموهم الجسمي، ودون أن نجعل من أنفسنا أوصياء على الأولاد فنقيّد حرّيتهم بحجّة خوفنا عليهم، ونفرط في حمايتهم فينشؤوا وهم لا يعرفون كيف يحمون أنفسهم في المستقبل، وفي نفس الوقت لا يجوز أن نترك لهم الحبل على الغارب بحجة أننا لا نريد أن نَكبِتَهم، فأسوأ كبت هو عدم السيطرة على الذات ورغباتها المدمرة.

(لا شك في أننا نستطيع تنشئة الولد بتمارين ملائمة من أجل الفضائل الأساسية التي تجعل منه كائناً مسؤولاً، ولكننا لا نستطيع أن نجعل منه إنساناً فاضلاً بالرغم منه. ولا شك في أننا نستطيع مساعدته لكي يصبح راشداً وكائناً قادراً على أن يختار بنفسه، ولكننا لا نستطيع أن نختار نيابة عنه فنقرر مسبقا أن اختيارنا سيكون الاختيار الصالح. لا شك في أننا نستطيع أن نجعله على بصيرة فيما يتعلق بمسؤولياته والشر الذي قد يقوم به بالنسبة إلى نفسه كما بالنسبة للآخرين فيتملّص من تلك المسؤوليات، ولكننا لا نستطيع أن نهدم تلك اليقظة بغمامات تجعل الشر مستحيلا مسبقا. إن رغبتنا في جعل الأولاد فاضلين بالرغم منهم تعني رفضنا الحرية فيهم وهي أساس كل علم أخلاق)[1] .

وإذا كانت الحرية أساس كل علم أخلاق، فمن الواجب أن نَفهمها ونُفهمها لأولادنا على أنها الحرية التي تبقى خاضعة لنظام وقانون يمنعان الفوضى في المجتمع، فكما يتطلب منا النظام أن نراعي قوانين السير وإشارات المرور، كذلك يجب أن نراعي قوانين الفطرة وتعاليم الدين، الذي لا بقاء لصرح الأخلاق وصلاح المجتمع بدونه، وهذا فولتير يقول: (لا بد للبلد ليكون صالحا أن يكون له دين، أريد من زوجتي وخياطي ومحامي أن يؤمنوا بالله وبذلك يقل غشّهم وسرقاتهم لي).

إن تنمية الضمير الأخلاقي لدى الناشئ هو أهم لبنة في صرح التربية، ويعتبر الاعتراف بالميول الفطرية لدى الناشئ ومحاولة إرضاء كل منها بشكل متوازن وحكيم من أهم القواعد الأساسية في التربية، فثمة سببان اثنان لانحراف النشء:

أولهما: قمع الميول والرغبات الفطرية لدى الناشئ وكبتها وعدم الاهتمام بها.

وثانيهما: الإفراط في إرضاء هذه الميول وفي إشباع تلك الرغبات.

---

(١) إن الترقيم الوارد هنا هو للمراجع الموجودة في الكتاب والتي استعانت المؤلفة بها وجرى ترتيبها في آخر الكتاب حسب ورودها وليس حسب ترتيبها الألفبائي.

صحيح أن الضمير الأخلاقي ينمو بالتربية التي سماها بعضهم (تنشئة الإنسان في الحيوان) لكن يجب أن نعترف أن الضمير موجود لدى الإنسان البدائي، فالإحساس بالذنب الذي كان يراود بعض القبائل البدائية ويدفعها إلى الاستغفار لَدَليل على أن الضمير موجود في أعماق الإنسان منذ بدء الخليقة.

يقول (جان جاك روسو) في كتابه (إميل): (انظروا إلى كافة شعوب العالم، وارجعوا إلى تواريخها، ستجدون أن ثمة ما يجمعْ بين كل تلك الشعوب مهما اختلفت قومياتها وألوانها وأطوارها وعاداتها وتقاليدها، ألا وهي مبادئ العدالة والمساواة والقوانين الأخلاقية ومفاهيم الخير والشر. ومن هنا يمكننا القول: أن مبدأً فطرياً في أعماق كل إنسان، هو مبدأ العدالة والتقوى، يحكم من خلاله على أعماله وأعمال الآخرين، ويحدد خيرها وشرها، رغم كل القوانين والعادات والتقاليد وهذا المبدأ اسميه أنا بـ "الضمير".

وللمدرسة دور أيضاً:

تُطرح مشكلة التربية اليوم في حدّة لا مثيل لها، فقد أصبحت مهمة صعبة، والسبب هو ازدياد حجم المؤثّرات واختلافها وتنوّعها كما لم تكن من قبل؛ فالأهل يشكون من تقصير المدرسة وأنها لا تساعد في التربية بل إن بعض الأهل يذكرون أن أطفالهم يتعلمون مفردات بذيئة لم يعهدوها منهم قبل أن يدخلوا المدرسة، والمدرسة بدورها تشكو من تقصير الأهل في مساعدتها على انضباط الناشئة، والأكثر شكوى هو الجيل نفسه الذي يصف الأهل بعدم محبته وعدم الاهتمام به، ويصف المدرسة بأنها مُتوحّشة وغير مُنصفة، وشكوى الجيل الرئيسية هي أنه لا أحد يصغي له لا في البيت ولا في المدرسة، والسؤال الحيادي حقاً: ألسنا نحن الوالدين والمعلمين من مَنَعنا أبناءنا وتلاميذنا من الكلام بحجة أن لا وقت لدينا للاستماع لهم؟ ألم نمنعهم من الأسئلة الأكثر حيوية أو نتهرب من الإجابة عليها في ما يتعلق بالسلطة وقيمة القواعد الاجتماعية والدين والسياسة والجنس بدلاً من أن

نجيب عليها فنسير رأساً إلى ما هو جوهري وهام؟ لقد اعتقدنا دائماً أننّا سنمنحهم الإجابة عندما يكبرون، في حين أنّ الناشئة سيعتبرون أنهم بمجرد دخولهم سن الشباب أنه قد فات أوانها، لأنهم حصلوا على إجابات لأسئلتهم من غيرنا أو من تجاربهم الخاطئة المؤلمة.

(إن هذه المواضيع التي تجيب على أسئلة أولادنا والتي تحرجنا لأنها تمس المشاكل الأخلاقية الأشد حِدة ولأنه من المستحيل أن نحاول الغوص فيها دون أن نقع في الإحراج. وإذا سئلنا: ما التربية الأخلاقية؟ يُجيب الحس المشترك: هي أن نجعل الناس يتصرفون أخلاقياً. ولكننا ندرك أن هذا الجواب خطير لأنه إذا كانت التربية تقوم فقط في ترويض الأولاد لئلا يسرقوا أو يكذبوا أو يزنوا، وليمتثلوا للقوانين المعمول بها، فإنها لا تكون كَوَّنت سوى بشر آلين عاجزين عن فهم ما يفعلون ولماذا يفعلون، وبالتالي عاجزين عن التكيُّف مع أوضاع جديدة).[1]

لقد قال (أفلاطون): (تكوين إنسان يتطلب خمسين سنة)، علينا أن نفهم كلمة تربية بمعناها الشمولي فإذا ما ألغينا جزءا منها ألغينا الإنسان.

إن أساليب التربية والتعليم مهما كانت مُكتملة لا يُمكنها أن تنحصر في تنمية القوى العقلية لدى الإنسان، بل يجب أن تُمهّد الأرضية لحركة الأخلاق أيضاً من خلال إحياء بعض الملكات في أعماق الإنسان كالاعتماد على النفس وحبّ الحياة وقيمة العمل وضرورة المسؤولية والشعور بالمتعة عند تذليل العقبات والمثابرة والجد وغيرها.

وبإيجاز نقول: يجب تنمية رغبة الناشئ في إثبات شخصيته ومسألة تفعيل الإرادة لديه ليتحقق ما يلي:

١- نجاح الناشئ فعلا في إثبات كفاءته ليكون في مَأمن من التصوّرات والأوهام خاصة تلك التي ترافق مرحلة المراهقة.

٢- يحظى نشاطه الفردي بالتفاتة جماعية تشدّه نحو الجماعة لتنقذه من خطر الأنانية الفردية.

(التربية هي العمل الذي يُحوّل كائناً إنسانياً أن ينمّي استعداداته الجسدية والفكرية كما ينمي مشاعره الاجتماعية والأخلاقية والجمالية في سبيل إنجاز مهمّته كإنسان ما استطاع إلى ذلك سبيلا وهي أيضاً نتيجة ذلك العمل. وتتعلق التربية بالقلب والذهن معاً، وتتفق مع المعارف التي نكسبها والاتجاهات الأخلاقية التي تمنحها المشاعر).[1]

التربية والاختلاف في طباع الأطفال:

تخضع شخصيات الأطفال في كثير من جوانبها للوارثة، وقد اكتَشفَت أبحاث الذاكرة الوراثية الحديثة أن كثيراً من صفات الأبوين تنتقل إلى الطفل سواء الخَلْقية أو الخُلُقية، وحتى إن الأطفال المنحدرين من نفس الأبوين تختلف صفاتهما اختلافاً بيّناً. فهناك بعض الأطفال ينشؤون منذ البداية شجعاناً ومتهوّرين، وبعضهم ينشأ جباناً وضعيفاً. قسم منهم ينشأ مُحباً للاستقلال والقيادة، والقسم الآخر يميل إلى أن يكون عالةً على غيره ومنقاداً. طائفةٌ منهم تميل إلى الإيذاء والإفساد، وأخرى تمتاز بسلامة النفس وصفاء الضمير. ثلّةٌ منهم تتّسم بالسخاء والكرم، وثلةٌ أخرى تتميّز بالبخل والتقشّف.

وكما تختلف القدرات العقلية والمحاكمات المنطقية بين أخَوَين اثنين تختلف الإحساسات المعنوية والمشاعر الأدبية بينهما، وينتج هذا الاختلاف من اختلاف التركيب الداخلي النفسي الموروث ومن العوامل البيئية الخارجية المحيطة.

ولمعرفة طباع الطفل ينبغي على الوالدين أن يراقباه منذ صغره، فإذا كان الطفل يملك طباعا شاذة فلا بد أن يظهر هذا منذ نعومة أظفاره، والوالدان الفطنان هما اللذان يستطيعان تفسير مغزى حركات أو سكنات الطفل وفيما إذا كانت تُخفي

وراءها أي انحراف أو اعوجاج لتصحيحه منذ البداية. ولكن لا يخفى أنّ حُب الوالدين لطفلهما كثيراً ما يكون حجاباً يمنع دون رؤيتهما لصفاته السيّئة، وقد ينصحهما أجداد الطفل أو الناس الكبار في السن بأنه ما زال صغيراً وعندما يكبر فإنّه سيتخلى عن هذه الطباع من نفسه، وقد يكون هذا الكلام صحيحاً أحياناً، ولكنه في أغلب الأحيان لا يؤدّي إلاّ إلى ترسيخ هذه الصفات بحيث يصعب استئصالها بعد تجاوز الطفل لسنّ الطاعة. ومن الملاحظ أن أكثر الناس يُدركون الصفات السيئة لأولاد الآخرين أما أولادهم فيرون فيهم الكمال، ويصدق عليهم القول: (أولادنا وأفكارنا لا نرى أجمل منها)؛ لذلك فإن على الأبوين اللذين يسعيان لتنشئة أطفال ذوي شخصيات متوازنة أن ينظروا إلى أولادهم بنفس المنظار الذي ينظرون به لغيرهم من الأطفال.

وإن أفضل الآباء والأمهات هم الذين يُبعدون حب أطفالهم عن حساب التربية، يُحبّونهم حبّاً خالصاً ولكنهم في نفس الوقت ينظرون بعين البصيرة والدقّة إلى عيوبهم ويحاولون بصورة جدية اقتلاعها وإزالتها وإحلال الفضائل والمُثُل محلها. فإذا كان الأطفال يملكون صفات وراثية وفطرية فاضلة وتوجد في أعماقهم مشاعر وأحاسيس طيّبة فإن تربيتهم سهلة وبالإمكان أن يستوعبوا الفضائل والكمالات والمُثُل بسرعة فينشؤوا أفراداً بارزين. أما إذا كانوا مُتطبعّين على صفات وراثية بذيئة وكان بناؤهم العاطفي مشوباً بالرذائل والأحاسيس الممقوتة فإنّهم بحاجة إلى رعاية أدق وعناية أكثر. ويجب على الوالدين حينئذ أن يتخذا الأساليب التربوية المفضلة في حقهم فيعملان على دحر المشاعر الشاذة والصفات البذيئة في الطفل من جهة، ويُعوّدانه على الفضائل والمَلَكات الحميدة من جهة أخرى حتى تنشأ فيه من التكرار والاستمرارية طبيعة ثانوية تستقر في روحه وضميره، وتختفي عواطفه الفطرية غير المحبذة بالتدريج.

إن معنى التربية هو إيجاد إنسان ليس كما هو حين يولد، بل هي تنمية الفطرة الخَيِّرة وتهذيب الطباع الفاسدة، وحتى هذه لا يعني تهذيبها ضرورة كبتها، بل

يجب عدم إنكارها لأن التربية الحقيقية ليست شُرطَة أو ترويضا، إنما هي عبارة عن تطبيع وتمهير يكون فيها المربّي شاهداً ومحرضاً ومحرراً للخير الكامن في أعماق الفطرة. (فأفلاطون) يقول:(إن الإنسان لا يتعلم إلا ما سبق وعرفه)، ومن هنا يجب أن ندرك الفروقات والاختلافات بين كائن بشري وآخر، وبين ناشئ وآخر. ومهمة المربّي أن يتقبّل الصّفات الذّاتية الطّبعية الموجودة في الناشئ، وعليه أن يُهذّبها دون أن يحاول إلغاءها كي لا ينتج لدينا بشر مشوهين أو مستنسخين. ومن هنا فإن التربية ما هي إلا السير على خطين متوازيين وهما خط الكائن الحر المتفرد وخط الكائن غير المتفرد.

التربية والحياة المعاصرة:

إن تشكيل الإنسان يتم نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة وأنماط التفكير التي يفرضها عليه المجتمع المعاصر، فهذه العادات والأنماط تُؤثّر في جسمه وشعوره، والمشكلة إن الإنسان إذا ما كيّف نفسه للبيئة التي ابتكرتها التكنولوجيا، فسيتحول من إنسان إلى شبه إنسان، والحقيقة إن العلوم والتكنولوجيا ليستا مسؤولتين عن الحالة الإنسانية الراهنة التي تتصف بالفوضى والضياع، وإنما من يربون هذا الإنسان، لأنهم لم يستطيعوا أن يُميّزوا بين ما يناسب إنسانيته ويُعليها وبين ما يُشوّهها ويلغيها، فارتكبت بحق إنسانية الإنسان أخطاء عظمى سنأتي على ذكرها خلال مباحث هذا الكتاب.

يقول (الكسيس كارل) في كتابه الإنسان ذلك المجهول: (يجب أن لا يُنشر العلم لذاته فقط ولا لرشاقة وسائله ولا لتألّق جماله، وإنما يجب أن يكون هدفه فائدة الإنسان المادية والروحية. كما يجب أن نعطي الاحساسات أهمية تعادل أهمية علم الحركة، ولا مفر من أن يضم تفكيرنا جميع جوانب الحقيقة).

ويجب الالتفات إلى أمرين مُهمين أثناء عملية التربية في الإنسان وهما:

الأول: إحياء الاستعدادات الفطرية الَخيِّرة.

الثاني: التخلّص من الاستعدادات الغريزية الشِّرِّيرة.

والمربّي الناجح هو الذي يستطيع أن يُنمي الاتجاهات الخَيِّرة في نفس الناشئ، ويقضي على السلوكيات الشِّريرة قدر ما أمكن دون أن يُعيِّر الناشئ بوجودها فيه، ومن أخطاء التربية التي تحصل مثلاً أن يُطبع الناشئ بصفة سلوكية بحيث تُصبح كأنها مرادف لاسمه، فإذا كذب مرة وصفناه بالكذاب، وإذا سرق مرة عيّرناه بالسارق، مع أنه قد لا يكون وصل بعد إلى محاكمات عقلية تساعده على معرفة الصواب من الخطأ.

يقول (الكسيس كارل): (إن المعلمين والآباء والأمهات يحسنون الظن في الغالب ولكنهم – لجهلهم- يخطئون في الغالب. يجب أن يتعرف آباء المستقبل وأمهاته من جهة، ومعلمو الغد من جهة أخرى، من الآن على الأسلوب التربوي الصحيح للطفل، إن تربية الأغنام والدواجن أسهل من تربية الأطفال بكثير، ومع ذلك فإن الذي يريد أن يتخصص في تربية الدواجن لا بد أن يقضي فترة من الزمن في القرية أو المعهد الزراعي، ولا يوجد فرد عاقل يُعد نفسه لهذا العمل بواسطة مطالعة المجلات أو قراءة كتاب في الحساب أو الفلسفة.. ومع هذا فإننا نرى أن هذا العمل الجنوني ترتكبه الفتيات الشابات – أمهات المستقبل- وفي الحين الذي يجهلن كل شيء خارج المنهج الدراسي يقدمن على الحياة الزوجية).

إن الحياة المعاصرة تركز على الجوانب المادية في الإنسان كالمتعة وحب الترفيه أكثر من تركيزها على الجوانب المعنوية كحب الخير والحق والجمال، وبات أغلب الناس يربون أبناءهم على هذا الأسلوب، بعد أن أصبحت حضارة الأشياء أعلى أثراً من حضارة الأفكار على حدّ تعبير المفكر مالك بن نبي، فقد أضحى التركيز على تغيير السيارة والهاتف النقّال وامتلاك آخر صيحات الموضة في كل الاتجاهات أهم بكثير من الاهتمام بتربية الإيمان الفطري والسجايا الخُلُقية والواجبات الروحية.

إن أغلب الجيل الحاضر يجهل وجود الكثير من القيم وهكذا فإن كلمات كالشرف والفضيلة والمروءة والشهامة أضحت عبارات فارغة لا معنى لها، والشباب تائه بين ثقافة العنف وثقافة الترفيه أو ما سماه أحد الكتاب شباب الانتحار وشباب السوبر ستار، ونحن الآباء والأمهات والأساتذة والمربون كلنا نتحمل مسؤولية هذا الجيل.

إن هدف الإسلام من تعاليمه الدينية العالية هو إحياء الفطرة الإنسانية الخَيِّرة ففي الوقت الذي يهدي إلى الكمالات الروحية فإنه لا ينكر الغرائز الجسدية. والإنسانية ليست عبارة عن مجرد لذائذ ورفاهيات، إنما هي مزيج رائع من الروح والجسد، فالذي يرى اللذّة الآنية فوق كل شيء ويُضحّي من أجلها بجميع أنواع الحب والعدالة، لن يبلغ السعادة أبدا، وإذا أصر على تكرار الخطأ الذي عادة ما يُصاحَب بأنانية شديدة وظلم للنفس والآخرين، فإن عواقب أفعاله ونتائجها السيئة ستظهر ولو بعد حين، هذا إذا لم يَئِن من عذاب الضمير وما يعقبه من آلام تؤدّي إلى ظهور ردود فعل عدوانية في نفس المذنب، ومن هنا نستطيع أن ندرك لماذا تكثر حالات الانتحار بين المراهقين والشباب في العالم الغربي.

لذلك يجب أن لا نغفل القيم الروحية في الناشئ فحصر النفس في جدران الشهوات الحيوانية، لا شك أنه انحدار بالبشرية كما بيّن الله تعالى بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ ۞ إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

التربية والفروق بين الجنسين:

من ضمن شروط التربية أن نفهم أن الأنثى ليست كالذَكَر دون أن يعني هذا الكلام إعلاء شأن الذَكَر على الأنثى، إذ إن هذا الإعلاء أدّى إلى نشوء بعض المفاهيم الخاطئة التي علقت في أذهان البعض نتيجة أفكار غربية وافدة، اعتقد بها بعض دعاة التغريب

وأنصار النسوية كرد فعل على المفاهيم التي سادت المجتمعات العربية في فترة من الفترات بحكم عادات وتقاليد بائدة، فلا يغيب عن الذهن أن تضخيم الذَكَر على حساب الأُنثى في مجتمعاتنا الشرقية أدّى إلى انتشار أفكار مضادة مثل "الأنثى هي الأصل"، ومثل التأكيد على أن الفروق بين الجنسين هي تربوية وليست فطرية، وبالتالي المناداة بتربية البنت والولد بنفس الطريقة دون مراعاة لأي فروق بيولوجية أو نفسية بينهما، وذلك للوصول إلى المطالبة بحقوق المرأة التامة كحقوق الرجل، وكلها أفكار لا يصح إدخالها ضمن قائمة الحقائق بأي حال من الأحوال، إنما هي آراء ربما يُعذر من أتى بها على خطئه حتى لو حملت آراؤه إساءة للدين، لأن الظلم الذي كان واقعا على المرأة فيما مضى جعل الكثيرين يعتبرون التقاليد جزءً من الدين، مع أن ما بينها وبين الدين كما بين الأرض والسماء.

وفكرة "الأنثى هي الأصل" هي فكرة خاطئة من الناحية العلمية، فعلم الجنين لا يُظهر أن الجنين يبدأ أنثى، بل إن أي جنين يحمل إمكانية تحوله إلى الذكر أو الأنثى، ويمكن شرح هذا الأمر بطريقة علمية مستمدة من كتب الاختصاص:

الخطوة الأولى في التميُّز الجنيني الجنسي هي تأسيس الجنس صبغيا، ثم تأتي الخطوة الثانية وهي تمايز الأقناد (الغدد التناسلية) الذي يتم تحت تأثير الصبغي الجنسي، والخطوة الثالثة هي تمايز الأجهزة التناسلية الداخلية وتظاهر الأعضاء الجنسية الخارجية تحت تأثير الهرمونات المفرزة من الغدد التناسلية.

تحمل الغدد التناسلية الأولية القدرة على التحول إلى خصية أو مبيض وتسمى لذلك (bipotential)، فاللُّب في هذه الغدد يتحول إلى خصية، بينما يتحول القشر فيها إلى مبيض. تحول الغدد التناسلية إلى خصى يتم تحت التأثير الفعال للصبغي الجنسي الذكري(Y) الذي ينتج مستضد يؤدي إلى تطور اللب وتراجع القشر. وهذا المستضد يدعى (The (Y) induced histocompatibility antigen) أي مستضد التوافق النسجي المحرَّض بالصبغي (Y). وفي غياب الصبغي (Y) تتحول

الغدد التناسلية الأولية إلى مبيض. وبذلك يتم تَكوّن المبيض بعد أسبوعين من الوقت الذي يتم فيه تَكوّن الخصية.

هذه الفكرة العلمية تدحض تماما الرأي القائل بأن الأنثى هي الأصل، فمن الواضح أن الصبغي الجنسي الذكري (Y) هو الأصل الذي يقرر تحول الجنين إلى ذكر أو أنثى، وبما أننا مؤمنون والحمد لله، فنقول: يتم هذا التحول بقدرة الله سبحانه الذي قال: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ﴾. ويمكننا إذا أردنا أن نتكلم بطريقة رد الفعل نفسها أن نقول "الذَكَر هو الأصل" ولكننا لن نقول إلا ما قاله الله سبحانه:} يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها﴾.

إذن تبدأ الفروق بين الجنسين منذ الحياة الجنينية بتمايز الغدد التناسلية التي تبدأ بإفراز الهرمونات فيفرز هرمون الذكورة (التستوسترون) من الخصية، بينما في غياب مستضد التوافق النسجي المحرَّض بالصبغي (Y) يبدأ المبيض بإفراز هرمون الأنوثة (الاستروجين)، وهذان الهرمونان هما سبب الفروق الجسدية والنفسية بين الجنسين، والتي قد لا تكون ظاهرة في الطفولة كثيرا لكنها تتوضَّح مع القرب من سن البلوغ عندما تنشط الغدد التناسلية لتعطي كل من الذَكَر والأنثى صفاته الجسدية وطبيعته النفسية.

وفي الحقيقة هناك فروق جوهرية بين الجنسين، فعلماء التربية والنفس يصنفون الاستقلال الفكري كخاصة ذكورية، بينما يضعون الحساسية كصفة أنثوية، وأن هاتين الصفتين إن وجدتا في شخص واحد ذَكَراً كان أو أنثى فهما مؤهبتان لوجود الإبداع مستقبلا، ولكن الحساسية لدى الأنثى تشرح لماذا هي بطبيعتها عاطفية أكثر، ووجود الاستقلال الفكري لدى الرجل يوضح لماذا هو بطبيعته عقلاني أكثر. وإن كان من الضروري الاعتراف بوجود استثناءات لهذه القاعدة وبأن كلاً منا بداخله بعض الصفات الأنثوية ولو كان ذَكَرا، وكذلك بعض الصفات الذَكَرية

ولو كان أنثى، وهذا بحكم أننا جميعا من نفسٍ واحدة، وبحكم وجود الهرمونات الذَكَرية والأنثوية في جميع الأشخاص.

تظهر بعض الفروق بين الجنسين بوضوح في الطفولة المتأخرة من الناحية الحركية في لعب كل من البنين والبنات في هذه المرحلة،(فألعاب البنين تتّصف بالخشونة وتتّسم بالتعبير العضلي مثل كرة قدم، وعسكر وحرامية، واستغماية، أما ألعاب البنات فتتّسم بالدِّقّة والتناسق في الحركات والتوافق الحركي مثل الرقص الإيقاعي ونط الحبل والحجلة)(٢).

أما إن المجتمع يزيد من تأسيس هذه الفروق فلا يمكن لأحد أن ينكر هذا الكلام، لأن التربية لها دور كبير في تشويه الفطرة وكذلك لها دور في تهذيبها.

(يتم تقرير جنس الطفل بصورة بيولوجية، ولكن لا يتم تقرير الدور الجنسي للطفل، ويتم تعليم الدور الجنسي، ويتعلم الولد أو الفتاة بصورة رئيسية كيف يتصرف كَذَكر أو أنثى بناءً على التأثيرات الأبوية، وتأثيرات الأقران، وتأثيرات وسائل الإعلام)(٣).

تحت التأثيرات الأبوية نرى أن الولد يميل لتقليد الأب والبنت تميل لتقليد الأم، ونلاحظ اختلافاً بين الولد والبنت على نوعية الحرّية الاجتماعية المعطاة لكل منهما، وقد يضع الوالدان أحدهما أو كلاهما طموحهما وآمالهما في جنس دون آخر وغالباً ما يكون هو الجنس الذَكَري.

أما تأثير الأقران فنرى كيف يتمتع الأولاد بخاصية مُصاحبة الأولاد، وتتمتع الفتيات بمصاحبة الفتيات، وتساهم الحياة في هذه المجموعات من نفس الجنس في تطوير الدور الجنسي بينما يتعلم الأولاد كيف يتصرفون وفقا لجنسهم بحيث تغاير تصرفاتهم الجنس الآخر.

ونرى الأولاد يتّصفون بالصّرامة والجُرأة والمواجهة والعنف والتحدّي والتنافس،

بينما تكون البنات أكثر حساسيةً واهتماماً وتأييداً واستجابةً وتعاوناً. وإذا ظهر من أحد الأولاد أيّ ميّزة أنثوية فيمكن أن يبدو عديم الرجولة في أعين الذكور الآخرين، وكذلك بالنسبة للفتيات، فالولد الذي يبكي يُعَيَّر بأنه بنت، بينما البنت إذا عاندت توصَف بأنها ولد.

وعلى الوالدين أن يكونا واعيين لبعض الصفات التقليدية للدور الجنسي، وعلى هذا يتجه الأولاد في تعيين كفاءتهم ببنائها على تحقيق الإنجاز الجيد، أما الفتيات فيتم تعيين جدارتهن بقدرتهن على التواصل وأن يكنّ محبوبات. ووعي الأهل لهذه النقطة يجعلهم يُعَدِّلون من هذه النظرة الفارقة بين الجنسين، بحيث تعتمد الفتاة في تقييمها لنفسها على إنجازها أيضا وليس على صداقاتها فقط، فإذا فشلت في علاقةٍ عاطفيةٍ مستقبلاً يمكنها أن تعوّض هذا الفشل في إنجاز على أحد الأصعدة غير صعيد الحب والصداقة، وكذلك بالنسبة للفتى فيجب أن يُنَشّأ على تقييم نفسه من خلال كونه محبوباً أيضاً وليس فقط بحسب إنجازاته، فإذا فشل مثلاً في سنةٍ دراسيةٍ أو خسر مباراةً رياضيةً يمكنه أن يعوض عن فشله بارتباطه بالصداقات وحبّ الناس له.

أمّا دور وسائل الإعلام فهدفها جذب شباب وفتيات لتحويل هذه الكائنات البشرية إلى زبائن مدمنين عليها في أبكر عمر ممكن، إذ تتضمن الإعلانات التجارية أو الأفلام صوراً لشخصٍ قويٍّ بطل الموقف، وهي الصورة التي يمكن أن تشجع الأولاد حتى في المدرسة الابتدائية ليبدأ بشق طريقه بقوة وليتصرف بصورة أكثر عدوانية، بينما يكون المثال الأنثوي الشائع هو الأنثى شديدة النحافة، مما يجعل الفتيات حتى في أعمار مبكرة يتّخذن أنظمةً غذائيةً لإنقاص أوزانهن كي يصبحن جذابات.

وهنا يأتي دور الأهل بمنع تفاقم هذه المشكلة فلا تمتد من وسائل الإعلام لتصبح ظاهرة في البيوت والشوارع، وذلك بأن يعبّر الوالدان لأولادهما وبناتهما أن هذه الأشكال ليست مُثلاً عُليا يحتذى أنموذجها، وأن القيمة الحقيقة للرجل هي بأخلاقه

وتعامله الإنساني مع غيره من البشر، كما أن قيمة الأنثى الحقيقية هي بإنسانيتها وأدبها وكمال حيائها.

أخيراً لا بدّ أن نذكر أن بعض الفتيات يتمتّعن بعقلٍ أوفر من عقول بعض الفتيان، وبعض الذكور يتّصفون بعاطفة أغزر من بعض الإناث؛ ولا يصح أن ننادي بإعلاء شأن جنس على جنس، بل كل جنسٍ يحتاج للجنس الآخر، ولا تكتمل دورة الحياة إلا بوجودهما معاً، لكننا نريد أن يتوقف مدُّ تشويه الفطرة في مجتمعاتنا فلا نريد أبناءً ضعفاء تغلبهم العاطفة، ولا نُشجّع بناتنا كي يكنّ مسترجلات عنيفات، وفي نفس الوقت ندعو إلى تربية الجنسين تربية متوازنة بحيث يكون الجيل كله واعياً فكرياً وغنياً روحياً وعاطفياً.

يقول (الكسيس كارل): (إن البناء الجسمي والرّوحي للمرأة والرجل ليس متماثلاً، وإن اتّخاذ أسلوب تربوي واحد للأولاد والفتيات نظرية قديمة تافهة، وهي من مُخلّفات الفترة غير العلمية التي سبقت تاريخ البشرية).

من هنا نؤكد على دور التربية في إعطاء كلّ شخص هويته الجنسية، وهذا ما سنناقشه أكثر في الفصول الخاصة بالتربية الجنسية، لكن هل التربية الجنسية مفصولة عن التربية العاطفية؟ وهل يمكن فصل أي بُعد في النفس البشرية عن البُعد الآخر؟

الفصل الثاني

تأثير العلاقات الأُسرية على الناشئ

إن العلاقة بين الوالدين هي من الأمور الهامة في حياة الولد ونشأته، وهي بأهمية العلاقة بين الولد ووالديه، فالولد ينشأ عادةً ويترعرع بشكل طيب في الجوّ الذي يعيش فيه الأبوان في ظل حياة زوجية سعيدة، يرفرف عليها الاحترام والود المشترك بينهما، حيث يُقدّر كل طرف مشاعر ومصالح الطرف الآخر بحيث يناقشان أمور العائلة معاً ويشتركان في المسؤولية، ويساعد كلٌّ منهما الآخر. وبهذا الشكل يُقدِّم كلٌّ منهما مثلاً للقدوة الحسنة، وكيف يجب أن تكون العلاقة منسجمة والمعاملة حسنة.

والولد الذي ينمو في هذه البيئة ستكون عنده مشاعر عميقة بالأمن والأمان، فأمامه القدوة الحسنة وكيفية التعامل مع الآخرين، وهو يعرف أن المنزل مكان آمن ما دامت الحياة الأسرية مستقرة.

وعلى العكس فالجو المشحون بالكثير من الخصومة والخلاف بين الأبوين اللذين يتكرر ارتفاع صوتيهما بالغضب والانزعاج، ويهين أحدهما الآخر أو يحمِّله أوزار وأخطاء العائلة كلها أو يدفعه إلى الشعور بالألم وعدم الثقة، فهذا الجو يجعل الطفل تتوزّعه المخاوف والاضطرابات، ويتشتّت ذهنه فهو من جهة يُحبّ أبويه معا، إلا أنه يحتار مع أي طرف يقف، وقد تنتابه مخاوف إمكانية افتراقهما وتحطّم الأسرة.

(ويصعب على الطفل أن يستمتع بأيِّ نشاطٍ أو مناسبةٍ أُسَرية، وبالتالي تصبح أوقات الطعام والرحلات والأنشطة الاجتماعية أوقاتاً للخصام والنزاع أو الغضب والامتناع عن الكلام. وهذا لا يعني أن يشعر الأهل بالذنب أن ابنهم قد يرى أحيانا شيئا من النقاش أو الجدال بين والديه، ولكن يعني أنّه يجب التفكير بانتباه إذا

كانت العلاقة الزوجية من النوع الذي يَكْثُر فيه الخلاف الأسري. ولنذكر أن الانفجارات الغاضبة النادرة قد تخيف الولد كثيرا عندما تحدث فجأةً وبقوّةٍ شديدة)[٤].

إذا كان الزواج من هذا النوع الذي تكثر فيه الصعوبات فعلى الزوجين أن يناقشا هذا الأمر بهدوءٍ كبير وبموضوعيةٍ تامة مِن قِبَل الطرفين وبذلك يمكن تجنُّب الكثير من الخلافات الصغيرة التي تُسبب النزاعات الكبيرة. ويمكن أن يتّفق الوالدان على التزام الهدوء وعدم الجدال أمام الأولاد، وتأجيل الحديث في الأمر لوقت آخر لا يتواجد فيه الأولاد، وبحيث يكون كل من الطرفين أكثر موضوعيةً وفي حالة من الهدوء والتركيز.

تأثير محبة الوالدين لبعضهما في توازن نفسية الطفل:

إن نفسية الطفل كالنّبات الغضّ تخضع للمؤثرات بشكل كبير، فمناخ الحب بين الوالدين له تأثير في نشأة الطفل المتوازنة، لذلك ليس من العيب ولا الحرام أن يُعبِّر الأبوان أمام طفلهما عن حُبِّ أحدهما للآخر واحترامه وتقديره، بل إنّه شيءٌ مطلوبٌ ومرغوب، وهذا التعبير يكون بالكلمةِ الطيبة والبسمة الرقيقة واللمسة الرفيقة بحيث ينشأ الطفل في جوٍّ أسريٍّ تفوح منه رائحة المودة والرحمة كما وصف الله سبحانه العلاقة الزوجية في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إنّ مناخ الحب الذي يسيطر على الجوّ الأُسري له أهمية حيوية للغاية من أجل توازن الطفل وتكوينه الإنساني وتنشئته الصالحة، ذلك لأن هذا المناخ يُعد شرطاً ضرورياً وكافياً للتربية الفعّالة. يقول الباحث التربوي الروسي (آ.ي.كوتشيتوف):(إن حَب الوالدين لبعضهما يمكن أن يغدو عاملًا تربوياً رئيسياً

مؤثراً على الطفل، وأقصد تحديداً محبتهما لبعضهما وليس محبتهما للأولاد فقط. وعندما يحبّ الأب والأم أحدهما الآخر، فالطفل هو أكثر من يتلقى فائدةً ونفعاً من حّبهما. وبدون هذا الحب يغدو عالم الطفل باهتاً. ولا يمكن لأي إجراءات أو طرائق تربوية أن تُعوّض أثره على الطفل).(٥)

إن التربية المُفعمة بالحُب تسير سيراً طبيعياً عفوياً دون جهود خاصة، وإن أفضل السمات تتكون في هذا المناخ المضمّخ بالحب، وقد لوحظ أن الطفل الذي يفقد الحب في جَوِّهِ الأُسري ينشأ على تقييمٍ سلبيٍ لذاته مما يجعله إما فاقداً للقدرة على محبة الآخرين مستقبلاً أو أنه يجعله يُنشئ علاقات غير سوية أو غير متوازنة مع أشخاص آخرين، وهكذا فإن المحافظة على اتّزان العلاقة عاطفياً بين الوالدين ضروري لنشأة متوازنة للطفل.

التوازن الانفعالي يبدأ من الأسرة:

تتعدد العوامل التي تؤثر على الصحة العاطفية عند الأولاد، فهناك الوراثة والعوامل الاجتماعية. ولكن تبقى التأثيرات الأُسرية مِن أهمّ هذه العوامل ومن التأثيرات الأُسرية الهامة:

العلاقات الزوجية: فيما إذا كانت علاقة حميمة ودودة، أم يغلب عليها الجدال والنقد؟ فالجو المشحون بالتوتّر والجدال لا يُعطي الطفل الفرصة المطلوبة لِنموّ العاطفي الصحي. وكذلك نوع تعامل الأبوين من المشكلات والصعوبات، فهل هما ممن يتحدث عن هذه المشكلات، أم من النوع الذي يتركها دون نقاش أو حل؟ فالأسرة السليمة هي التي تحاول أن تتناقش في الأمر لتخرج بحل مناسب لهذه الأسرة.

عواطف الوالدين: هل هي عاطفة مُتّزنة ناضجة سليمة أم يغلب عليها القلق والاكتئاب؟ فإذا كان الأب مثلاً من النوع القلق والكثير التخوف من الناس فقد

ينشأ الطفل ليكون قليل الثقة بالناس، وقلقاً مثل والده. وكذلك إذا كانت عاطفة الأم تميل إلى الاكتئاب والنظرة المتشائمة للأمور فقد يكون ولدها متردداً وضعيف الثقة بنفسه.

مواقف الأبوين: هل يميلان للمتعة والانشراح والتفاؤل أم يميلان إلى عكس هذا؟ وهل يوفران فرصاً للنمو داخل المنزل؟ وهل يثابران على أسلوب تربيتهما ويُقدّمان للولد القدوة السلوكية الحسنة؟ فموقف الأبوين من نفسيهما، ومن الناس من حولهما، ومن الحياة بشكل عام سيكون له الأثر الكبير على عاطفة الأولاد.

وجود الإخوة والأخوات: هل يُوزّع الأهل انتباههم ورعايتهم على كل الأولاد؟ وهل يُعطى كل طفل فرصة لينمو وفق إمكانياته وسرعته؟ ففي كثيرٍ من الأحيان قد نجد الأبوين يُميّزان الطفل المتفوق في الدراسة على إخوته الآخرين الذين يبدو أنّهم أقلّ تفوّقاً وتحصيلاً. ومهما حاول الأهل إخفاء هذا التمييز فإن الأولاد يُدركون الأمر مما يُوجِد حساسية بين الأشقاء. ومن المهم أيضاً أن يكون الجو العام للأسرة مشجّعاً للأولاد على التعاون والعمل المشترك، بدل أن يدعوهم دوماً للتنافس والعمل الفردي. إن روح عمل الفريق لَتَتَكوَّن في السنوات الأولى من حياة الإنسان وفق ما يتلقاه في أسرته وفي مدرسته)(٤).

كي لا يفنى الحب:

إنّ المحافظة على المشاعر والعواطف الزوجية والأُسرية تعدُّ ضرورة من أجل توفير المناخ التربوي الطبيعي في الأسرة من ناحية تربية الثقافة الانفعالية والعاطفية الوجدانية لدى أطفال الأسرة. وكي يستمر الحب بين الزوجين يجب أن يكون الاختيار مستنداً إلى جدار متين من العقل، فالحب رغم أنه عاطفة قوية موترة للحياة لكن هذا التوتر له سلبياته كما له إيجابياته، فإذا كان التوتر في الحب يمنح الحياة تَجدّدها الدائم وحيويتها وتدفّقها وتناغمها عندما يوحِّد بين رجل وامرأة في كلّ

واحد ويؤدّي إلى نشوء أسرةٍ متكاملةٍ فهو ولا شك إحدى الخيرات.والمسّرات التي أهداها الله سبحانه للناس. لكنّ اندلاع الحب وحده غير كاف فمهما كانت نيرانه ساطعة ومشاعره جياشة لا بد من حمايته ووقايته- مثله مثل أيّ شيء آخر - من هبوب الريح. يقول مؤلف كتاب سيكولوجية الحب والعلاقات الأسرية: (الحب يولد من تِلقاء ذاته لكنه معرض للموت، غالباً ما يحل موته بسبب عدم حمايتنا له وعدم قدرتنا أو رغبتنا في حمايته. وليس لأسبابٍ طبيعيةٍ محتومة. أجل، لعدم رغبتنا لأنّ أعظم هبة أعطيت لنا- وهي حب الآخر لنا وحبنا للآخر- نميل إلى النظر إليها على أنّها شيء طبيعي عادي لا يستحق الاهتمام. هذا في حين أنه من أجل المحافظة على الحب لا بُدّ أولاً، أن لا ننساه على خلفية الحياة الزوجية وأن نحافظ على عاطفتنا وعاطفة الطرف الآخر ونصونها ونُنَمّيها مثل نبتة رائعة غالية لا تتكرر. وثانياً، علينا أن نفهم ماهية الحب ونفهم تلك القوانين الرئيسية التي يخضع لها. وثالثاً، علينا أن نعرف تلك الأحجار المغمورة تحت الماء التي تستهلك"قارب الحب" ومن ثم تحطمه لاحقاً)(٥).

وإن حماية الحب من الأخطار المحدقة لا تمكن إلا عبر مد جذور عميقة من التفاهم والتّقبُّل بين الزوجين، والاستمرار في إبداء أهمية أحد الزوجين في حياة الآخر.

فن الحب:

إنّ فن الحب - بالمعنى الحقيقي للكلمة- يكمن في القدرة على منح الفرحة والسرور، وكذلك في القدرة على تَقبّل هذا المنح من الطرف الآخر وذلك بردّ التحية بمثلها إن لم يكن بأفضل منها؛ ولعل التشبيه بجهاز الإرسال والاستقبال يعطي المعنى المطلوب، فلا يكفي أن يُرسل أحد الزوجين إشارات الحب لزوجه، وإنما يجب على الشريك أن يُدرك المغزى من وراء هذه الإشارات ويُحسن استقبالها فَيُظهر فرحه وسروره بها أيضاً، وكلمة "الشريك" تُستعمل هنا بدون تحديد الزوج

أو الزوجة للسهولة وليس المقصود هنا الشريك الجنسي فقط كما هو المفهوم الغربي. وينتج عن هذا التفاعل بين المُرسِل والمُستقبِل انسجام يزيد الحياة الزوجية رسوخاً وثباتاً لأن البيوت الخالية من الحب بيوت باردة وقد تؤدّي بأحد الزوجين إلى البحث عن الدفء العاطفي في مكانٍ آخر.

وليس من المعقول الإبقاء على الحب بين الزوجين بدون أفعال وسلوكيات يتجلى فيها بحيث يكون واضحا للطرف الآخر في جميع مجالات الحياة الأسرية دون استثناء. كما أن جميع هذه الأفعال والسلوكيات يجب أن تُلاحَظ في الوقت المناسب من قبل الشخص الموجَّهَة له وبالتالي يجب أن تُقَدَّر إيجابياً.

(إنّ الحرص على العاطفة أمرٌ ممكن فقط في تلك الأسر التي يسيطر عليها مناخ السّعي الفِعلي لمنح الفرحة والَمسَرّة والدعم الفعلي والعون الحقيقي. فالزوج الذي يحب زوجته والذي يخاطبها بعبارات الغَزَل عندما تقوم بغسل الملابس أو جلي الصحون، لا يقوم بعمل معبّر عن الحب، بل يسخر من الحب، وكان الأولى به أن يعبر عن عاطفة حبه بمد يد العون لمحبوبته. كما أن أي فعل له علاقة بالحب من قريبٍ أو بعيدٍ يجب أن يُقابَل بالسرور والفرح من الطرف الآخر، مهما بدا لك أن هذا الفعل غير مناسب أو غير لَبِق، فإذا أراد الابن – أو الابنة– التعبير عن مشاعره وحبه نحوك – نحو أحد والديه أو كليهما– فحاوَلَ كيّ بنطاله بنفسه، لكنه بسبب عدم مقدرته ومهارته أحرقه، فلا يحق للوالدين بأيّ شكلٍ من الأشكال تأنيبه أو لومه، لأن براعم الحب الفعلي التي بدأت تتفتّح في قلبه قد تموت إلى الأبد. وعليك– على الوالدين– في مثل هذا الموقف أن تتمالك نفسك وأن تشكره على رغبته بجلب المسّرة لك وأن تساعده في تعلم هذا الفعل الذي أراد به التعبير عن نواياه الطيبة لكنه أدّى إلى نتائج سيئة. وبهذا الصدد يمكنك أن تعالج بصورة كاملة مجموعة من المهام التربوية المرتبطة، ليس فقط بتكوين المشاعر بل وبإتقان طفلك للمهارات العملية الضرورية له، وبتنمية روح المبادرة والاستقلالية لديه)[٥].

إذا أردنا أن نجعل الحياة أجمل فلتكن أيامنا مملوءة بالحب والعطاء، وعندما نعوّد أولادنا فن الحب والعطاء ونتقبل منهم عطاءهم ونعلّمهم كيف يشكروننا والآخرين على العطاء، فإننا نكون قد هَذّبنا فطرةً سيئةً موجودة في النفس البشرية ألا وهي صفة الجحود والنكران كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، وما سمي الإنسان إنساناً إلا من اتصافه بالنسيان، وأول ما ينساه هو إحسان المحسنين إليه، ويأتي بالدرجة الأولى في مقام الإحسان – بعدَ الله سبحانه – الوالدان، فلا بد من تعليم الطفل باكراً ما أمكن على شكر والديه على كل كبيرةٍ وصغيرة، وهذا يُمَكِّن من توثيق العلاقة بين الوالدين والأبناء، وهو أمر يُسَهِّل مهمة التربية التي هي أصعب المهام في الوجود.

هل يمكن أن تقوم المربية مقام الأم؟

تفرض علينا طبيعة الحياة المعاصرة أنماطاً من السلوك لم تكن معروفة قبلاً، فالضرورات الاقتصادية أصبحت تتطلب خروج الرجل والمرأة إلى العمل، وبالتالي يوكل بمهمة التربية في جزء كبير منها إلى دور الحضانة والمربّيات، ولكن دار الحضانة عاجزة عن أن تحل محل الأسرة، وإن مرشدة الأطفال لا تستطيع أن تقوم مقام الطفل في إرضاء مشاعر الطفل وعواطفه.

إن الحنان المُوَدع في قلب الأم لا تضاهيه عاطفة أخرى، وإن غريزة حب الذات لا تكاد تتجاوز عاطفة الأمومة.فقلب الأم يطفح بحبّ الطفل، وحين تضم الأم طفلها إلى صدرها، وحين تناغيه، وحين تغني له، وحين تداعبه، وحين تقبّله، يشعر بأن لهُ مكانةً خاصة في قلبها، وتسري في نفسه محبة ذاته، وهي الخاصية الضرورية لمحبة البشر فيما بعد. وقد يبكي الطفل أحياناً دون أن يكون جائعاً أو دون وجود سبب مادي لبكائه، إنما هو في حاجةٍ للاهتمام، وفي حاجة لأن يُناغى ويشعر بأن هناك من يعطف عليه، وبمجرد أن تلمسه الأم أو تقترب منه مُناغية تجده يهدأ، فالحاجة للحب حاجة أصلية فطرية في كل البشر.

في أعماق الطفل توجد هذه الحاجات التي لا يمكن أن تُشبعها مربّية تهتم بالعديد من الأطفال في نفس الوقت، عدا أن هذا الاهتمام غالباً ما يكون سببه حاجة المربّية للمال، فالطفل الذي لا يشعر أن هناك من يهتم به لأنّه شخص مُتفرد له كينونته المستقلة سيؤثر هذا على نموّه العاطفي والنفسي فيما بعد.

(إن الطفل الذي يعيش بين عدد من الأطفال حياةً مشتركةً غير مستقلة، لن يحصل على تميزه واستقلاله الفردي، وهما من أبرز الخصائص الإنسانية. في الأسرة نجد الأبوين يهتمّان لكلّ حركةٍ صغيرةٍ أو كبيرة تصدُر من الطفل بينما تضيع أفعاله وسط أفعال الأطفال الآخرين في دور الحضانة كما تضيع موجات البحر عندما تصطدم ببعضها بعضاً فتزول كلها)(٦).

يقول (الكسيس كارل): (لقد ارتكب المجتمع العصري غلطةً جسيمةً حينا استبدل المدرسة بتدريب الأسرة استبدالاً تاماً، ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى يستطعن الانصراف لأعمالهنّ أو مطامعهنّ الاجتماعية أو مباذلهنّ أو هوايتهنّ الأدبية أو الفنية أو لِلَعب (البريدج)، أو ارتياد دور السينما، وهكذا يضيّعن أوقاتهنّ بالكسل، إنهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرةً، إذ إنه لا يتعلم إلاّ قليلاً من الأطفال الذين هم في مثل سنه).

كي لا يكون الكلام نظرياً في هذا البحث يجب أن نذكر أمراً مهماً هنا، وهو أن هذه المسؤولية وهي مسؤولية نشوء الطفل في سني الطفولة الأولى بين أبويه وبالأخص قُربه من أمه في السنة الأولى والثانية على الأقل، هي مسؤولية الدولة أيضا لأنها يجب أن تُنظّم عمل الأمهات الوالدات والمرضعات بشكل يُمكن معه للمرأة أن تُتابع دراستها أو عملها دون أن يكون سبباً لغيابها عن طفلها وقتاً طويلاً، ومن البديهي أنه إذا كان الطفل يحتاج من أمه ٢٤ ساعة في أشهره الأولى، أو سَنَته الأولى، فإن عدد الساعات هذا يمكن أن يخفف تدريجيا، وتبقى مصلحة الأطفال هي التي لها المكان الأول إذا كانت الدول تسعى بحق لإنشاء جيلٍ مُتوازنٍ مُعافى.

حاجة الطفلة الأنثى للحب والحنان:

إن كُلاًّ من الطفل والطفلة بحاجة إلى الحب والحنان، ولكن بما أن الطفلة الأنثى هي التي تتميّز بحساسيتها أكثر - وهذه قاعدة لها استثناءات - كما بيّنا في فقرة التربية والفروق بين الجنسين، لذلك فإنه يجب أن نذكر أهمية سبغ الحنان والحب على الطفلة الأنثى، ومعلوم أن الفتاة التي تلقّت قدراً كافياً من الحنان في طفولتها وتغذّت روحها من عطف الوالدين، لا تحتاج في دور المراهقة إلى الحنان ولا تلين بسماع بضع كلمات معسولة من هذا ولا ذاك، إذ لا يختل توازنها الانفعالي كما هو الحال عند من حُرمن من العطف والحنان في طفولتهنّ. والتقييم الذاتي الذي يُكوّنه الناشئ عن نفسه يعود في جزء كبير منه إلى معاملة الوالدين له، وقَلّ أن يفصل الطفل بين ثقته بنفسه وبين ردود فعل الوالدين على تصرفاته، وقد رأينا في الحياة فتيات لم يتلقين قدراً كافياً من الحنان في طفولتهنّ ولم تشبع غرائزهن بشعورهنّ بحب الوالدين لهن، يملكن شخصية ضعيفة جداً، ويكنّ غير واثقات من أنفسهنّ بحيث يمكن لبعض الشباب المراوغ أن ينال وَطَره منهنّ ببعض التصرفات اللّبقة أو أن يحرفهنّ عن جادة الطريق بمعسول من القول. لذلك فمن الضروري أن تشعر البنت بحب والديها لها وأنهما يثقان بها ويقدرانها أسوة بإخوتها الذكور.

الإفراط في المحبة:

إن الطفل الذي ينشأ في كنف والدين جاهِلَين بأبسط أصول التربية فيُغدقان عليه الحب والحنان بدون حساب لا بد أن يُصبح مدلّلاً مغروراً، وكذلك الطفل الذي لم يُوبّخ طوال طفولته على خطإٍ ارتكبه، أو إنه دائماً تُمتدح أفعاله الحسنة ويُتغاضى عن أفعاله السيئة مهما كانت نتائجها، هذا الطفل سيواجه مشاكل عدة عندما يصبح لوحده في مواجهة مع محيط اجتماعي أكبر من الأسرة كالمدرسة مثلاً. وهؤلاء الأطفال الذين رُبوا على الدلال والغرور يفشلون في بناء علاقاتٍ مع أقرانهم ومع أساتذتهم لأنهم يتوقعون أن يَمتدح الجميع أفعالهم ويُعلوا من شأنهم

رغم أنهم لا يملكون مقدرات تضاهي مقدرات من يستحق المدح، وبذلك تتعرض حياتهم الاجتماعية لهزّات عميقة تؤثر في سلوكياتهم فيما بعد. فعندما يرى هؤلاء الذين اعتادوا على أن تكون طلباتهم أوامر تُلبّى ورغباتهم حاجات تُنفّذ، عندما يرون أن الناس يتجاهلونهم ويستهزئون بهم ويسخرون من توقعاتهم غير المبررة فإنهم ينكفئون وينقطعون عن المجتمع خوفاً من سخرية الناس وإهاناتهم.

وقد يرى هؤلاء أنهم جديرون بكل سعادة ويفترضون أن الدنيا بأسرها أداةً طيِّعَةً في أيديهم، وكلما واجهوا الإحباط والفشل يتّهمون الزمان والمكان بأنه لم يحقق لهم مساعيهم، ويشكون من الحظ والقَدَر أنهما حجر عَثْرة في طريق نجاحهم، حتى وإن لم يبذلوا ولو اليسير من السعي والجِدّ والمثابرة، ويعتبرون أنفسهم تُعساء محرومين فتنهار معنوياتهم بسهولة. ومثل هؤلاء الأفراد غالباً ما يتصورون أن الآخرين هم سبب فشلهم، لذا فهم يتخاصمون مع الجميع، وهذا ما يجعلهم يخسرون أصدقاءهم الواحد تلو الآخر.

(إن الإنسان الذي تمتع بدلالٍ مُفرط في كَنَف أبويه يترعرع ضعيف الإرادة والشخصية، ويبقى عاجزاً عن التآلف مع الناس، ويخشى تحمل أي مسؤولية اجتماعية فهو لن يتجرّأ على اختيار شريكة حياته، حتى وإن اضطر لذلك، غالباً ما يختار امرأةً تكبره في السن تكون له بمثابة الأم، وإذا اختار امرأةً في سِنّه تَوَقَّع منها أيضاً أن تكون أُماً قبل أن تكون زوجة)[٦].

التفريط في المحبة:

أمّا الطفل الذي لا ينال من أبويه الاهتمام المطلوب، أو الطفل الذي تُقمع فيه غريزة حب الذات ولا يُسمح له بإظهار شخصيته وإبراز مواهبه ويتعرض لإهانات بصورة دائمة، أو الطفل الذي يشعر بعدم التقدير في أسرته وبأنّه لا أحد يرغب في وجوده لن يكون طفلاً سوياً أو كهلاً ناضجاً.

جاء في كتاب العقل الكامل: (إذا كان للطفل أبوان على مستوى من الوعي والتعقُّل، فإنهما سيعملان على إفهامه بأن تعامله بهذه الطريقة ليس صحيحاً، أما إذا كانا على مستوى مُتدن من الوعي، ويحاولان في كل مرة عبر أساليب خاطئة زحزحة ثقته بهما فإن هذا السلوك الطفولي سيرسخ في ذهنه شيئا فشيئا، مما يحد من رقي فكر الطفل ويتسبب في توقف نمـوّه العقلي. وإذا تربّى الطفل على هذا السلوك فإنه قد يلجأ في سن الشباب أو حتى في سن الأربعين إلى الغضب والعصبية وضرب الزوجة والأطفال وشتم مَن هُم تحت كفالته، وذلك لبلوغ مُراده، أما إذا دخل هذا الرجل حقل السياسة فإنه سَيُقْدِمُ على قمع كل مخالفيه ومعارضيه متوسلاً بالعنف الذي يشبه إلى حد كبير عنف سني الطفولة من ضربٍ وسبابٍ بَدَل أن يسعى إلى النجاح عن طريق انتهاج سبلٍ منطقية).

وبذلك فإن الإفراط في محبة الطفل وتدليله تترك أثراً سيئاً في نفس الطفل، كما أنّ إهانة الطفل وتحقيره وعدم احترامه وتجاهل حُبّه لذاته وعزة نفسه، كل هذا له نتائجه السلبية التي تتكشف في شبابه، إذ يجعل كلا الأمرين منه فرداً حساساً غير متوازنٍ نفسياً وغير متفاعل اجتماعياً، فيجب دائماً منح المحبة للطفل بقدرها المناسب.

أمثلة من محبة الرسول عليه الصلاة والسلام للأطفال:

لقد أكّد الرسول عليه الصلاة والسلام على أهمية إحاطة الطفل بجوٍّ مشبعٍ بالحنان والحب.. ففي أقواله وأفعاله خير زاد لمن أحبّه وودّ أن يقتدي به:

قالت عائشة رضي الله عنها: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فرآه يُقبِّل الحسن والحسين، فقال: أتقبلون صبيانكم، فما نقبلهم، فقال النبي قوله ﷺ: أَوَ أَمْلِكُ أن نَزَع الله من قلبك الرحمة.

فَلِلقُبلة دورٌ فعالٌ في تحريك مشاعر الطفل وعاطفته، وهي دليل رحمة القلب للطفل، ثم هي أولاً وأخيراً السُّنة الثابتة عن رسول الله ﷺ مع الأطفال، ولهذه

الأهمية فقد صَنَّف البخاري رحمه الله باباً في كتاب الأدب سماه: باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته.

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: (**كان رسول الله ﷺ يصلي بالناس وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها**).

وكان الرسول ﷺ يُداعب الحسن والحسين رضي الله عنهما فيمشي على يديه وركبتيه ويتعلَّقان به من الجانبين فيمشي بهما وهو يقول: (**نِعمَ الجَملُ جملُكما، ونِعمَ العدلان أنتما**)..

والرحمة والحنان في الإسلام تتعدى الأطفال في الأسرة، لتشمل جميع الأطفال الأقارب منهم والأباعد، وذوي الأنساب العالية والمتواضعة على السواء.

روى البخاري في الصحيح قال: حدثنا أبو فتاك (**خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت العاص على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها**)..

ومما يروى عنه أنه ﷺ كان يُجلِسُ أسامة بن زيد على فخذه، ويُقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ويقول: (**اللّهم ارحمهما فإنّي أرحمهما**)..

وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحداً منهم.. فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: (**من لا يَرحم لا يُرحم**).

وروى مسلم أن الناس كانوا إذا رأوا أوّل الثمر (أول قطفة للثمار) جاؤوا به إلى النبي ﷺ فإذا أخذه قال: (**اللهم بارك لنا في ثَمرنا وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مُدّنا**) ثم يدعو أصغر وليد ويعطيه ذلك الثمر.

وحدّث عبد الله بن شداد عن أبيه رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً، فتقدم النبي ﷺ

للصلاة فصلّى، فسجد بين ظهراني صلاة سجدة أطالها، قال: فرفعتُ رأسي فإذا الصبّي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله الصلاة قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننّا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك. فقال: (**كُلُّ ذلك لَم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته**).

وفي الصحيحين عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت النبي غضب في موعظةٍ قط أشد مما غضب يومئذ، فقال: (**يا أيها الناس: إن منكم منفّرين فأيكم أمّ الناس فليوجز؛ فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة**).

وروى بُريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله يخطبنا فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: (**صدق الله إنما أموالكم وأولادكم فتنة... نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان فلم أصبر حتى قطعتُ حديثي ورفعتهما**).

وبَلَغَتْ رحمتُه بالأطفال لدرجة أن عفا عن رجلٍ من المشركين إكراماً لطفله، وكان قد جاء إلى الرسول ﷺ قبل الفتح متأملاً في عفوه، وعندما طلب الإذن في الدخول قال ﷺ: (**لا حاجة لي به وقد هتك عرضي**). وكان معه بني له، فقال: والله ليأذن لي، وإلا لآخذن بيد ابني هذا لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقّ له، وعفا عنه إكراماً لطفله الصغير.

كما بلغت رحمته لدرجة أنه حزن على موت أطفال الأعداء المشركين، حتى ولو حملوا السلاح وقُتِلوا بين الصفوف في المعارك. فقد رُفع إلى الرسول ﷺ بعد إحدى الوقعات أن صبية قتلوا بين الصفوف فحزن حزنا شديداً فقال بعض الصحابة: ما يُحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين؟ فغضب النبي وقال ما معناه: (**إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، فإياكم وقتل الأولاد، إياكم وقتل الأولاد**).

فالرحمة بالأطفال والشَّفَقَة عليهم صفة من صفات النُبُّوة المحمدية وهـي طريق لدخول الجنة والفوز برضوان الله تعالى.

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: جاءت امرأةٌ إلى عائشة رضـي الله عنها فأعطتها ثلاث تمرات، فأعطت كل صبيٍّ لها تمرة وأمسكت لنفسها تمرة، فأكل الصبيان التمرتين ونظرا إلى أمهما فعمدت الأم إلى التمرة فشقتها فأعطت كل صبيٍّ تمرة، فجاء النبي ﷺ فأخبرته عائشة فقال ﷺ: **(وما يعجبك من ذلك لقد رحمها الله برحمتها صبييها)**.

وثمة مستوى خاص من الرحمة، يحضُّ عليه الإسلام يتمثل في الرحمة باليتيم، لِعلم الشارع الحكيم أن المعاملةَ الرحيمة له خير وقايةٍ من مشاعر الحرمان والدونية والحقد على الآخرين والعِلل النفسية، وكلّها مقدمات لما هو أخطر. يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾.

ويقول: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾.

ويضمن الرسول ﷺ جزاءً سخياً لكافل اليتيم.. فيقول: **(أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين)** وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى.

الفصل الثالث

الناشئ وتقييم الذات وبناء الشخصية

كثيراً ما يحمي التقييم الإيجابي للنفس من خوض تجارب انفعالية ذات آثار وخيمة على مستقبل الفرد، لذلك كان من الضروري بناء شخصية سليمة تعتمد على ذاتها وتَشعر بقيمتها منذ الطفولة.

في الأسرة:

إن الطريقة التي نتعامل بها مع الطفل لها الدور الأساس في تشكيل تقييمه لنفسه حاضراً ومستقبلاً، وهناك أربعة أمور تخلق في نفس الناشئ تقييماً إيجابياً لنفسه، وهي المساعدة، الإبداع، الكفاءة في حل المشكلة، والمنافسة.

إن الوالدين اللذين يرفضان طلب المساعدة من الطفل ويصرّان على عمل كل شيء بنفسيهما، غالباً ما ينشأ أطفالهما مفتقدين لروح المبادرة غير راغبين بالمساعدة، تنقصهم الثقة بالنفس والاهتمام بالغير.

(عندما يطلب الطفل أن يُساعد فيجب أن يحاول الوالدان الترحيب بطلب المساعدة، إنه ليس دائما من السهل عندما لا تكون المساعدة غير البارعة فعالة، ولا ملائمة، وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن يكون الوالدان مضغوطين لفترة من الزمن، أو قلقين على جودة إنجاز المهمة، أو ببساطة يريدان أن يتمتعا بتنفيذ العمل بأنفسهما، ولكن الطفل غير واع بصورة سعيدة للتضحيات التي يتم مطالبة الوالدين بتقديمها، "هل يمكنني المساعدة في تزيين الكعكة؟ إني لم أفعل ذلك من قبل" إنه من المُغْرِ بالنسبة للوالدين أن يجيبا سنقوم بالمزيد من العمل، إنك لا تعرف كيف، ستفعله بشكل خاطئ، ويرفضا رغبة الطفل الصغير بالمساعدة، مع ذلك، يغفل الوالدان عن الفرصة لتعزيز احترامه أو احترامها الذاتي، ومن الممكن أن يفقد الحصول على المساعدة المرغوب فيها من المراهق فيما بعد)[٣].

بينما يكبر الأطفال الذين أتيحت لهم فرص مساعدة الأهل أو أي أحد من الناضجين وهم يشعرون أنهم مفيدون في شيء إن لم يكن في أشياء؛ لذلك كي نُنمّي احترام الذات في الطفل يجب أن نشجّعه أن يساعد في المنزل أو أن ينضم إلى جماعة في نادي أو مسجد، وعندما يكوِّن الطفل هذا الانطباع عن ذاته بأنه 'شخص مفيد فهذا يعني تقييماً إيجابياً للنفس، وهذا له دور أساسي في تكوين شخصيّة متّزنة لن تقع في مطبّات عاطفية كبيرة يتعرض لها كثيراً مَنْ فقد الاحترام لنفسه والأمن في أسرته فيبحث عنه في خارج منزله مما يزيد الهُوة بين الوالدين والناشئ خاصةً حال دخوله سن المراهقة.

ومما يُذكّي احترام الناشئ لذاته هو الاهتمام بتفوّقه وتشجيعه على الإبداع، (والإبداع هو تلك العملية الفعلية التي يخترع الأشخاص من خلالها طرقاً جديدة ومختلفة من التفكير، وللقيام بالأشياء. في كل مناسبة إبداعية فإنهم يؤكدون على بعض الاهتمام ويزيدون من بعض المقدرة ويعبّرون عن شخصية فردية هامة)[٣].

وبالرغم من أن المجتمع يُعتبر المستفيد الأول من الإبداع، لكن المبدعين أنفسهم يَجنون ثمار إبداعاتهم بشكل فوري إذ بينما يُعبّرون عن إبداعهم فإنهم يعزّزون احترامهم لذاتهم.

وكي يُشجِّع الوالدان الإبداع في طفلهم يمكن أن يُحفّزوا خياله بالألعاب التي تعتمد على المخيلة أو بقراءة القصص، كما يمكن أن يستجيبوا له بطرق فعّالة عندما يُحب أن يكرّر أمامهم ما فعله، أو أن يُعلوا من شأن إبداعه بعرضه أمام الآخرين من الأصدقاء والأقرباء.

(ولأن الإبداع هو مجرد تعبير شخصي عن الشخصية الفردية للفرد، فإن سرعة التأثُّر بالاستهجان والحساسية للنقد تميل لأن تكون عالية، خاصة عندما تصل الاستجابة من الوالدين)[٣].

وكذلك فإن التشجيع على المحاولة بتحدّي الأمور الصعبة عندما يبدو احتمال النجاح ضعيفاً، هو مما يزيد احترام الناشئ لذاته، بعكس الانسحاب الذي يحصل عندما يعبّر الوالدان للطفل عن قلقهما فيما إذا قَبِل التحدي لأمر احتمال خسارته فيه كبير، لأن هذا يفترض أن الطفل ضعيف وبالتالي يلعب دور الضحية الذي يُقلّل من احترام الذات. وفي حال الخسارة يُشجَّع الطفل على إظهار حزنه بشكل معتدل وبدون مبالغة.

(إن ما يمكن للوالدين أن ينصحا الطفل به هو أنه من الجيد أن يصبح منزعجاً، ويُوضِّح مباشرةً عن مشاعره ذات الأهمية، ولكنه ليس من الجيد أن يظل منزعجاً، ويسمح لهذه المشاعر أن تُثبِّط التغلب على المشكلة. عندما تتم معاملة المشاكل العادية ككوارث يمكن أن تنتج الاحتجاج العاطفي)[٣].

إن الاحتجاج العاطفي يُشجّع أفعال الإحباط الذاتي الذي يقلّل من احترام الذات، لذلك على الأهل يقع واجب تعليم الطفل كيف يتعامل مع أي مشكلة وكيف يتجاوز الأزمة.

(سواء كانت المشاكل هي نتيجة لعامل خارجي ما، ظرف تصادفي أو خطأ شخصي في التقدير أو غلط، أو ذنب، يحتاج الوالدان أن يشجّعا الطفل ليتعامل مع أي مشكلة كأحد الفرص الإضافية فقط للتعلّم في الحياة؛ إن هدفهم ليس لِيُربّوا الطفل الذي لم يقترف الخطأ أبداً، والذي لم يحدث منه شيء خاطئ، ولا ليتدخلوا دائماً ويحلوا مشاكل الأطفال بأنفسهم، إن هدفهم هو تربية طفل كفء يكون راغباً وقادراً على تقرير ما يفعله عندما تحدث المشكلة، ونادراً يكون من الممكن للطفل أن يحل المشكلة بدون تعلم شيء ما، لا يعرفه، أو لا يستطيع فعله من قبل. إن كل مشكلة هي أستاذ متنكر، والشيء العظيم بخصوص حل المشكلة أن العملية تأتي مع مكافأتها الخاصة، الإحساس بالإنجاز والفخر بتقرير ما يجب فعله بنجاح)[٣].

أما المنافسة فرغم ما تحمله من مخاطر كتعريض الإنجاز الشخصي للمقارنة مع الآخرين تحت التدقيق العام وكخطر الخسارة والألم الناجم عنها، فإنها تتطلب قدراً من احترام الذات، ومع ذلك فإن الوالدين نفسيهما يمكن أن يكونا لاعبين خطرين (عندما يصبحان مصدر أذى لاحترام الطفل لنفسه، وبذلك يحُوّلان التجربة الإيجابية للطفل إلى تجربة سيئة. ويمكن أن يتم إيقاف هذا السلوك عندما يتأنىّ الوالدان ويتذكرا أن من يرونه يتنافس ويُنجز، ليس امتداداً لما في نفسيهما، ولكنه طفلهما، الذي ليس مجبراً ليُنجز جيداً ما يؤثّر فيهما)(٣).

وكما أن للآباء دوراً كبيراً في تكوين الانطباع الإيجابي للطفل عن نفسه فإن لهم كذلك دوراً مماثلاً في تكوين الانطباع السلبي، ويضرب (ول ديورانت) مثلاً لذلك فيقول: (بعض الآباء الذين يفشلون في الحب أو يعانون من شُحٍّ في المال يحاولون الانتقام من أبنائهم فيوجهون لهم الإهانات واللوم والعتاب، فالإنسان يجد في التسلط على أبنائه آخر ملجأ له).

في المدرسة:

مما ينمّي احترام الذات لدى الناشئ هو معاملته كناضج عندما تُوجّه له الأوامر، يقول (ول ديورانت) في مباهج الفلسفة:(إن إصدار الأوامر للطفل يثير فيه روح المقاومة والعدوان، وهذه القاعدة تكاد تكون ثابتة كقوانين نيوتن في الحركة، فنحن حين نُصدر أمراً ما نكون قد أثَرنا الأسلحة الدفاعية للطرف المقابل. فإن رجوت بطلبك استجاب وإن أمرت رُفض، فكن حسن التعامل مع الطفل لتكسب حبه ومودته، عندها يكون لطلبك وقع أكبر).

إن بإمكان المدرسة أن تجعل الطفل مولعاً بالدراسة وطلب العلم، كما أن بمقدورها أن تجعل حتى الطفل الذكي ينفر من العلوم والمدرسة؛ يقول (ول ديورانت) في مباهج الفلسفة: (إن عامل المدح والثناء يُنشّط الخلايا ويُقوّي الأعضاء

ويُذلّل أمام الإنسان أصعب الأعمال وأكثرها تعقيداً. إن حب الذات هو الرافعة التي بها نستطيع تحريك العالم. وبدلاً من مهاجمة العمل الذي لم يحسن صاحبه أداءه وتوجيه اللوم له، فلننظر إلى الأعمال التي أحسن أداءها ونؤثرها بالمديح الذي يترك أثراً حلواً في صفحة الذاكرة ويدفع إلى التقدم في العمل).

وفي المدرسة تلعب درجات الناشئ أثراً كبيراً في تقييمه لنفسه، فهي دعامة أساسية لاحترام الذات، وعلى الوالدين أن يدعما المعنى الإيجابي للدرجات دون أن يجعلاها مصدراً لضغط غير ملائم على الطفل.

(تُعتبر الدرجات دليلاً في المدرسة، وهي ميدان التنافس في محاولة الطفل، وتُقَدِّم الدرجات المعلومات عن المدى الجيّد الذي يكون أو تكون فيه قادرا على البراعة في تنوع المهام والمهارات الأكاديمية، وتعتبر هذه المعلومات الاسترجاعية قيِّمة ومبنية على التقديرات الشخصية، وسر الأهداف، والاختيار المنتظم بواسطة الأساتذة، ويُعتبر العمل المدرسي تحدّي أساسي في حياة الطفل، إذ الدرجات تكون مقياساً على كيفية إجابة الطفل بصورة ملائمة)[٣].

هنا يجب التمييز بين الحب والاستحسان، فحب الوالدين لطفلهما يجب أن لا يكون مشروطاً بما يحققه الولد من درجات، أما الاستحسان فهو يقوم على التقييم المبني على إنجاز الطفل المدرسي؛ (إن الوالدين اللذين لا يمكنهما صنع هذا التمييز، لديهما غالباً أطفال يعتقدون أن إحراز الدرجات متصل بالحب الأبوي، وأنهم إذا أنجزوا جيداً يستحقون هذا الحب، وإذا أنجزوا بصورة سيئة يخاطرون بفقده، وبالتالي فإن الوالدين اللذين يبنيان حبهما على الإنجاز، واللذان يقدسان جدارة الطفل – غالبا جدارتهما– بدرجاته أو بدرجاتها، يحرمان طفلهما من احترام الذات الذي يأتي من المعرفة بشكل آمن، وسواء نجح أو فشل فإن التزامهما بحبه لا يتزعزع ولا يشوبه شك)[٣].

في المجتمع:

إن الكرامة الإنسانية والقيمة الذاتية تُعتَبر دافعاً نحو الاستقامة والصلاح ومُحرّكاً للإنسان نحو الإحساس بمسؤولياته. فالإنسان الذي يُربَّى في أسرة تحترم كرامة النفس وعزتها ويُنشَّأ على السجايا الفاضلة لا بد وأن تقوده ميوله النفسية ودوافعه الأخلاقية والإنسانية إلى طريق الفضيلة والخير والصلاح.

(وفي قصة الثلاثة الذين تخلّفوا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، لم يُجازِهم بالسجن أو التعذيب أو الإعدام، بل استغل مسألة الكرامة الاجتماعية في عقابهم، وكان إعراض الناس عنهم ومقاطعتهم لهم أصعب بالنسبة لهم من السجن وأشد ألماً من أي عقاب، وبالرغم من أنهم كانوا أحراراً غير مقيّدين إلاّ أنّهم شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم نتيجة مقاطعة الناس لهم.

إذن فحين تقوم أركان المجتمع في دولة ما على مبدأ العزّة والكرامة، لن يكون هناك حاجة لِسَنِّ قوانين جزائية صارمة وقاسية من أجل ضبط الأوضاع، فالعار والفضيحة وسوء السمعة بالنسبة للإنسان الشريف أشد عذابا من التعذيب والسجن أو الإعدام)(٧).

في بناء الشخصية:

إن مجموعة الصفات الطبيعية والمكتسبة التي تعيِّن للفرد سلوكه وعلاقاته مع الناس وتآلفه معهم وتبرز قيمته الاجتماعية هي التي تُحدّد شخصيته.

وإن الانطباع الإيجابي عن النفس يجعل الناشئ يتمتع بقدرة كبيرة على المرونة والثقة بالنفس، وكما بيّنا فإن الأبوين يلعبان الدور الأساسي في هذا التقييم، لذلك ينبغي على الآباء والأمهات أن يدركوا ما يتوجب عليهم من مسؤوليات تجاه أبنائهم ويتعلموها بكل تواضع ورحابة صدر ويتقنوها عبر المران والاكتساب مرة بعد مرة، كما ينبغي أن يتعلم الأبناء كيف يستقبلوا توجيهات ذويهم ونصائحهم

المفيدة بأريحية، لأنها حصيلة تجارب طويلة، وإذا ما سعى الآباء والأمهات والأبناء إلى تقييم ومعرفة أفكار وأحاسيس ورغبات بعضهم البعض الآخر فإن الثقة تترسخ في نفوسهم جميعا تجاه بعضهم بعضا، وفي مثل هذه الحالة لن يلجأ الآباء والأمهات إلى مضايقة أبنائهم دون سبب وانتقادهم على أبسط الأمور، ولن يتوقعوا من مخلوق لم يكتمل نموه بعد وما زال يعيش في كنفهم أكثر من طاقته، والأبناء بدورهم سَيَتَقبلون بعض القيود ويعملون بنصائح وتوجيهات والديهم.

(إن الفتى الذي يحظى بتكريم والديه والذي يشارك في حل مشاكل الأسرة ويُؤخذ برأيه ويُعمل بموقفه، والفتى الذي يعامله أبوه كأنه صديق حميم يُكِنُّ له كامل الاحترام والتقدير، والفتى الذي يشعر وسط أسرته ومجتمعه أن له شخصية لها احترامها كالكبار، كل هذه النماذج من الفتيان يحرصون على تجنب الوقوع في الرذيلة، ويسعون لأن يكونوا أهلاً لهذا الاحترام والتقدير، فيراقبون أعمالهم وسلوكهم ويتجنبون كل ما يمكن أن يُشوّه شخصيتهم)[٧].

بعض الآباء والأمهات لديهم نوايا حسنة لكنهم لا يستطيعون إدراك نفسيات أبنائهم وحاجاتهم، فيقعون غالباً في نفس الأخطاء التربوية التي ارتكبها آبائهم وأمهاتهم تجاههم. فهم قد نسوا تصرفاتهم وأفعالهم إبّان مراهقتهم، وكيف كانوا يشعرون تجاه أسرهم، ولا يعلمون أن أسلوبهم الخاطئ في التفكير وما يعانون من نقص معنوي وأخلاقي، إنما هو ناجم عن تربية آبائهم وأمهاتهم لهم، فيسأل هؤلاء الآباء والأمهات: لماذا يفر أولادنا منا وينفرون؟ ولماذا لا يستشيروننا في أي عمل يقدمون عليه؟.

الفصل الرابع

تعديل الرغبات ورعاية العواطف

يمكن تقسيم الرغبات النفسية والانفعالات العاطفية إلى قسمين: ميول ورغبات فطرية، وهي التي تولد بشكل طبيعي مع ولادة الإنسان، وميول ورغبات مكتسبة وهي التي تولد نتيجة ظروف خاصة بالتربية الأسرية والبيئة الاجتماعية

هناك بعض الرغبات الفطرية لكنها لا تظهر إلا مع البلوغ ومنها الرغبة الجنسية والرغبة الملحة في الاستقلال وحب التجمُّل وإبراز النفس. وعندما يبلغ الطفل ويدخل سن المراهقة وتبدأ قواه الجسمية والنفسية في النضوج تتضح نتائج التربية في مرحلة الطفولة سلباً أو إيجاباً، لأن الطفل يولد لا يعرف شيئا لكنه يحمل ما يُهيّئه للتعلم: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

(والمُلفت أن الضمير الأخلاقي يكتمل تفتحاً قبل أيٍّ من الغرائز. وهنا نأخذ الغريزة الجنسية كمثال، هذه الغريزة قبل أن تتجلى في أعماق المراهق وتبث في نفسه الرغبة في الجماع يكون الضمير الأخلاقي قد طوى مسيرته التكاملية في أعماقه، وكأن الله سبحانه شاء أن يزوّد الإنسان بقوة الضمير والوجدان قبل أن تجتاحه أعاصير الغرائز وذلك ليتمكن من مواجهتها وتعديلها في الوقت المناسب ليقي نفسه من الانحرافات الخُلُقية)[٧].

مسؤولية الوالدين في التوجيه الديني الإنساني:

إن كلمة "الفطرة" في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (**كل مولود يولد على الفطرة**)، لا تشمل فقط عبادة الإله الواحد، إنما تعني الهداية لكل خير، فكما عَقْل الإنسان يدله على وجود إله للكون، حتى لو لم يُنبّهه إلى ذلك أحد، كذلك فإن

الرغبات الخيرة موجودة وفطرية لكنها بحاجة إلى رعاية وتنمية، كما يمكن أن يتم إلغاؤها نتيجة التربية دون شعور بالخطأ الذي يرتكبه الوالدان هنا، فلنفترض أن والداً اعتاد شرب الخمر مثلاً، وبدأ يُزيّنها لطفله الصغير سواء بتشجيعه على إتيان نفس الفعل أو عدم ممانعته إذا رَغِبَ في ذلك أو بعدم إخفائه تعاطيه أم الخبائث عن عيني طفله، فإن هذا الطفل سينشأ محباً للخمر أو راغباً بها أو جاهلاً لأضرارها الجسدية والنفسية، بعكس حال طفل آخر لم تُشوّه هذه الفطرة فيه، فإنه سَيَمج الخمر من أول مرة، ولذلك عندما اختار الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام اللبن على الخمر، قال له جبريل عليه السلام: اخترتَ الفِطرة.

إن مخالفة الفطرة يؤدي إلى عوارض جسدية وروحية، والعوارض التي تصيب البدن من جراء شرب الكحول لا يَخفى أثرها على الأعصاب والكبد والعته الناجم عن الإدمان وغير ذلك، (ويمكن قياس مدى تأثر هذه الأعضاء بأجهزة خاصة، ولكن لا يمكن مشاهدة مدى تأثر المروءة والقيم الأخلاقية والمشاعر الإنسانية بأي جهاز كان)(٧).

يقول (الكسيس كارل): (نحن نعرف كيف نغذي أطفالنا كي يصبحوا رشيقي القامة وعلى جانب كبير من الجمال وثِقَل وفياتهم. وذلك بمعونة علم معرفة الغذاء الحديث، لكن هذا العلم لم يعلمنا كيف نوجد جهازاً عصبياً متيناً، فكراً معتدلاً وشجاعة، وحُسن خُلق، ومقدرة عقلية، وكيف نحميهم من الانهيار النفسي).

لذلك على الوالدين المسلمين أن ينتبها إلى المسؤولية الدينية والإنسانية والأخلاقية العظيمة الملقاة على عاتقهما في تربية أطفالهما، وبقدر ما يؤديان هذه الأمانة بقدر ما يجدا جزاءهما، وفي الدنيا قبل الآخرة، أما الوالدان اللذان لا يقومان بما تفرضه هذه المسؤولية عليهما من واجبات، فيتركا العنان لأطفالهما ليفعلوا ما يشاؤون دون أن يبيّنا لهم الخطأ من الصواب والحرام من الحلال، فهما بذلك يتقاعسان عن هذه المهمة وفي هذا إساءة لأطفالهما ولمجتمعهما ولا بد أن يقطفا ثمار هذه التربية الخاطئة عاجلاً أم آجلاً.

ويظن كثير من الآباء أن مسؤوليتهم الأساسية هي في جمع ثروة ضخمة يورثوها إلى أولادهم، أو في ترفيه أولادهم لأبعد حد، لكن الولد إذا لم يحصل على تربية صحيحة فإن الثروة باعث له على الفساد: والاعتياد على حياة الرفاهية تُنشئ إنساناً غير مسؤول، بينما مسؤولية الوالدين الحقيقية هي في تربية الطفل على المَلَكات الفاضلة والقيم العليا والإيمان الصحيح وإعداده لخوض معركة الحياة بطهارةٍ ونُبل، وهذا لا يكون إلا بواسطة تعديل الرغبات الغريزية وتنمية العواطف الإنسانية.

تعديل الرغبات والغرائز:

يقول (الكسيس كارل): (تلعب الغريزة في سلوك الأشخاص دور الوسيط، والأخلاق هي في الحقيقة عبارة عن سعي يُبذل للحصول على أرضية مناسبة لإبراز الغرائز، ونجاح هذا المسعى ليس بالأمر اليسير طبعاً، فالغرائز التي لا تستخدم في سبيل الإصلاح وتجديد القوى تجد لنفسها وبشكل تلقائي أرضية غير مناسبة لإبراز نفسها بصورة رتيبة وهمجية أو أنها تتحول إلى مرض نفسي).

في مرحلة البلوغ تنمو الغرائز والعواطف نمواً سريعاً، ولكن هذا النمو يترافق بقفزة في النمو العقلي، قد لا تكون بنفس حجم النمو السريع للعواطف والغرائز، ولكنها تساعد على تعديل هذه الغرائز والعواطف فلا تبقى هائجة متحكمة فيه، وما يقوم به الفتى أو الفتاة في هذه الفترة، هو أمر في غاية الجدية والأهمية يتحدد على أساسه مسار حياتهما والتزاماتهما المستقبلية.

يسير المرء نحو هذه المرحلة سيراً طبيعياً وإن كانت مرحلة البلوغ تعتبر مرحلة صعبة من ناحية التغيرات التي توافقها بسبب عدم التوازنات الهرمونية التي يرافقها اختلال في العواطف والانفعالات، لكنها مرحلة لا تطول كثيراً إذا أمكن توجيه المراهق لذلك، وتعتبر هذه المرحلة أفضل مرحلة لتغيير الذات لما يتمتع به المراهق من قوة التجسيم وحب التدقيق والتفحص، كما تبدأ في هذه المرحلةَ تكون الآراء الخاصة والأفكار المستقلة وتأخذ الشخصية بالاتجاه نحو الثبات الانفعالي شيئاً فشيئاً.

إن القوى المحركة والدافعة تختلف قوتها بين غريزة وأخرى، ففي مرحلة المراهقة تبدأ كل من غريزة الشهوة والجنس بالظهور من جهة، وتتبدى الرغبة في الأمانة والصدق والمثالية من جهة أخرى، ولكن الفرق بين هذه وتلك هو أن دوافع الشهوة والقوى المحركة للإنسان نحو إشباع غريزته الجنسية تكون أقوى بكثير من ميوله الفطرية التي تدفعه نحو الصدق والأمانة وغيرها من الصفات الحميدة.

والسبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله إزالة التناقض والصراع بين الرغبات والميول وإشباع كل من الرغبات الفطرية للإنسان في المكان والمقدار المناسبين هو تعديل الرغبات وتحجيم الغرائز، فالرغبة في إشباع الغريزة الجنسية غالباً ما يجر الشباب نحو الزلل والانحراف، ولذلك كانت أهداف البرامج الدينية والأخلاقية والإنسانية هي مساعدة المراهق على تجاوز هذه المرحلة بأقل قدر ممكن من الأخطاء، بحيث يتم إشغاله وتنمية مواهبه والاستفادة من إمكانياته لما فيه نفعه ونفع مجتمعه.

(إن غريزة الشهوة الجنسية هي من أقوى الغرائز التي مُنِحَت للإنسان بحكمة إلهية، والميل للجنس الآخر وُضع في النفس البشرية لأهداف سامية، فإذا ما تم تعديل هذه الغريزة الجامحة بشكل صحيح، وتم إشباعها في زمانها ومكانها المناسبين، فإنها تُوفّر للإنسان لذّة ما بعدها لذّة، وتساهم في الحفاظ على نسل البشر، أما إذا أفلت زمامها وسمح لها بالتمرد والطغيان متجاوزة حدود المصلحة، فإنها ستتسبب في مفاسد عظيمة لا يمكن تحاشيها تؤدي بالإنسان إلى الشقاء والسقوط)(٨).

وإذا ما تم شرح وظيفة الغريزة الجنسية للمراهق والشاب وساعده المجتمع على تخفيف تأجيج غريزته الجنسية ريثما يستطيع إشباعها ضمن إطارها الشرعي، فلن يكون ثمة تضاد بينها وبين الغرائز الأخرى، ويُصبح بمقدور الشاب استعمال غريزته الجنسية وإشباع ميوله الفطرية.

أما إذا لم يعمل الشاب على تعديل هذه الغريزة وأفلت زمامها من يده، وخاصة

مع تحرر المجتمعات من القيود الدينية والأخلاقية، فإن رغباته تنزع به منزعاً خطيراً، ويمكن أن يرتكب حماقات كثيرة لإشباع رغبته الجنسية المتوقدة، والشاب الذي يعجز عن تعديل غريزته الجنسية والسيطرة على شهواته، يبدو عاجزاً عن رسم مستقبله وتحديد خطاه لتحقيق ما يصبو إليه وما يفيد مجتمعه.

وهنا لا بد من ذكر دور الأهل في هذا التعديل وذلك الإشباع، فيجب أن يُساعَد الشاب على الزواج الباكر، لكن بنفس الوقت يجب أن لا يُفكّر الشاب بأن الزواج هو مجرد قضاء وطر وتمتع وتلذذ، بل عليه أن ينظر إليه على أنه مسؤولية بقدر ما هو متعة، ومن هنا فإن على الشاب أن يتمهّل في اختياره لشريكة حياته، وأن ينتخب من هي جديرة بالمسؤولية، وأن يُحكِم عقله إلى جانب قلبه، ويستشير ذوي التجارب من الأهل والأصدقاء وخاصة أبويه، ويطلب النصح منهم في هذا الأمر المهم، لأن بناء الحياة الزوجية يجب أن يقوم على أساس من رضا القلب المدعم بموافقة العقل وإلا فإن احتمال انهياره كبير جداً.

(ويمكن تشبيه الزواج الذي يتم باتحاد شخصين، باتصال قطبين موجب وسالب، يمكنه أن يبعث على الدفء والحرارة أو أن يولد حريقاً كبيراً. وليس صحيحاً ما يقوله البعض أن الزواج هو اختبار للحظ، لأن من يبتاع نظارة لا تتناسب وبُعد نظره أو قِصره مثلاً يكون الحق عليه لا على حظه ونصيبه، ويجب أن ينظر إلى الزواج بمنظار الأرباح والخسائر قبل أن يقدم الشاب والشابة على هذه الخطوة)[٨].

دور العقل والعاطفة في التوازن النفسي:

يختلف العقل عن العاطفة في جوانب عديدة، ويقع على عاتق كل منهما دور معين في ضمان سعادة الإنسان.

يُشبّه بعضهم العقل بأنه قاض عادل وعالم، يجلس في غرفة مغلقة ومحيط هادئ،

يُطالع الأضابير بدقة ويتفهّم محتوياتها بصورة متقنة، ويقيس جميع جوانب القضية ثم يُصدر الحكم؛ أما العواطف فيُشبّهها بالجهاز التنفيذي للسلطة القضائية. ليس واجب الجهاز التنفيذي تمحيص الأدلة والبينات، بل على العواطف أن تنفذ الأحكام العقلية عندما تكون منقادة للعقل.

(إن أحكام العقل قائمة على أساس الاستدلال والبرهنة، وإن موافقته أو مخالفته، ونقضه وإبرامه، كل ذلك يعتمد على المحاسبة الدقيقة والاستدلال المنطقي. أما العواطف فلا شأن لها بالمحاسبة، ولا تفهم المنطق ولا تركن إلى الاستدلال. العواطف عبارة عن العشق فقط والاندفاع والثورة وحسب. إن قلب الأم يطفح بحب الولد، فحبه نافذ إلى أعماق روحها وترى ولدها قطعة من كبدها وتعتبر حياته حياتها، وأبسط حادثة مؤلمة له تعد مصيبة عظيمة لها. ولكن الأم لا تملك في حبها هذا وحنانها ذاك دليلا عقليا أو علميا، إن حنانها لا يستند إلى المنطق والتفكير، إنها أم وحسب وتحب ابنها بعاطفة الأمومة. كذلك حب العاشق وولهه لا يستند إلى الاستدلال العلمي والمحاسبة المنطقية، إنه لم يعشق طبق معادلات رياضية أو استنتاجات عقلية)[٨].

ومع ذلك فإن العقل على رغم أهميته في اتخاذ المواقف الصحيحة وعقد المحاكمات المنطقية والقيام بالاستدلالات والحصول على الاستنتاجات، وعلى رغم قيمته بأنه أساس كل تطور علمي وكل تقدم تقني، فإنه قاس وبارد وجاف وليس كالعواطف التي تمنح الحياة ألَقها وزخمها وجماليتها وفنها وشعرها وأدبها؛ ومع أن العقل هو المشعل المنير والمرشد القدير الذي يُميّز للإنسان الخير من الشر، والطريق الصحيح من الطريق الخاطئ، لكن الطاقة التي تحرك الإنسان في الطريق الصحيح أو الخاطئ هي العاطفة لأنها القوة التي تحفز في نفس الإنسان دوافع الخير أو الشر، ومن المشاعر الداخلية النفسية تنبع جميع مظاهر الحب والكره والشدة واللين، وتصدر الحروب والجرائم أو التضحية والإيثار.

يقول (الكسيس كارل):(العقل صانع العلم والفلسفة فعندما يكون متزناً يصبح مرشداً جيداً، ولكنه لا يمنحنا الشعور بالحياة والقدرة على العيش فهو لا يعدو أن يكون مظهراً من مظاهر النشاطات النفسية فإذا نما لوحده بعيداً عن العواطف أدى إلى تفريق الأفراد وإخراجهم من حيِّز الإنسانية. إن العقل ينظر إلى الحياة الظاهرية أما الأحاسيس فإنها على العكس من ذلك تهتم بالحياة الباطنية. وكما يقول (باسكال) فإن للقلب دلائل وبراهين لا يفهمها المنطق، إن النشاط غير العقلاني للروح المتمثل في العواطف هو الذي يمنحنا الطاقة والفرح، ويهب بعض الأفراد القابلية على الخروج من إطارهم المحدود المتصل بالآخرين، وتوثيق العلاقات معهم والتضحية في سبيلهم).

ومما لا شك فيه أن العقل هو أساس الاستقرار النفسي، ولكن الإنسان يبحث عما يمنحه الطاقة والحرارة ويسبّب له الحيوية والنشاط وذلك هو العاطفة، وكما أن التوازن بين العقل والعاطفة يتظاهر في الكمال الفردي فإنه يتبدى في السلام الاجتماعي.

دور العقل والعاطفة في التوازن الاجتماعي:

إن كلاً من هاتين الطاقتين العظيمتين: العقل والعاطفة يلعب دوراً فعالاً ومستقلاً في ضمان سعادة الإنسان ورفاهه، ويستطيع الإنسان بلوغ الكمال اللائق به متى ما استفاد من هاتين الطاقتين العظيمتين معاً بصورةٍ صحيحةٍ وبطريقةٍ متوازنة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسانِ﴾، ففي هذه الآية الكريمة قارن الله تعالى بين إقامة العدل، والإحسان في جملةٍ واحدة وأمر الناس بها بصيغةٍ واحدة. العدل وليد العقل والإحسان وليد العواطف.

إن المجتمع الذي يحكم بالعدل هو مجتمع جيّد، لكن العدل لا يكفي لأنه لا يستطيع أن يفرض الأمور الروحية السامية والتي لا بد منها لصلاح المجتمع،

ولنأخذ مثلاً على ذلك معاملة الصديق لصديقه أو الحبيب لحبيبه، فإذا كانت تعتمد على العدل فقط فيعني ذلك أن لا يفعل المرء لصديقه أو لحبيبه إلا ما يفعله الآخر له، لكن من الذي يبدأ بالفعل؟ إنه الذي اتسع قلبه للصداقة والمحبة أكثر، أي الذي يُحسن دون أن ينتظر جزاء إحسانه، ولذلك لا بد من وجود العاطفة التي تُضفي على علاقات البشر معاني جميلة ومن هذه المعاني السخاء والعفو والرحمة والرأفة، وهذه كلها لو تركناها للعقل فإنه لا يقوم بها إلا بعد استشارة الأنا الخاصة به، وإذا حدث هذا في مجتمع ما فلن تشم من ذلك المجتمع إلا رائحة الأنانية والأَثَرة والفردية، ولن تجد أثراً للتعالي الروحي والتكامل النفسي والتعامل الخلقي، وتصبح الحياة في مثل هذا المجتمع جحيماً لا يطاق.

والعكس بالعكس فإذا كان المجتمع محكوماً للعواطف فقط، ولا أثر فيه للعدالة والقانون فإن الحياة تتحول إلى فوضى وشغب واضطراب، وتصبح كالغابة، القويّ يأكل الضعيف، إذ في مثل هذا المحيط يمكن للعواطف السلبية أن تتمرد والأمزجة الشخصية أن تُعربد والانفعالات السيئة أن تتحكم، فيصبح الضعفاء رهناً لإشارة من الأقوياء ويتحول المجتمع إلى سجن كبير خارجه المستكبرون وداخله المستضعفون، مما يهدد المجتمع بالانهيار بأي لحظة، فلا حصن للإنسان كالعقل ولا سياج للمجتمع كالعدل.

يجدر بالذكر هنا أن العواطف بأشكالها السلبية ضرورية أيضا، لكن بشرط أن يستفيد منها الإنسان بشكل سليم ويجعلها محكومة للعقل، فكما يكون الإنسان محتاجاً للمحبة، فهو محتاج للغضب لأنه بدون وجود قوة الغضب لا يستطيع المرء الدفاع عن نفسه وماله وعائلته.

يقول (الكسيس كارل) في إشارةٍ منه إلى أهمية دور العاطفة: (لا يوجد أحد يُضحّي بنفسه في سبيل الحقيقة العلمية تماماً. إن الجدران المرتفعة على أساس الجهل والتماهل والكسل لا تتحطم بالمنطق أبداً. إن ما يدفع الإنسان إلى العمل هو العقيدة لا المنطق. إن العقل لا يستطيع أن يمنحنا قوة الحياة طبقاً لطبيعة الأشياء، إنه

يرشدنا إلى الطريق فقط ولا يدفعنا إلى الأمام أبداً. نحن لا نقدر على التغلب على العوائق التي في طريقنا ما لم تنبعث من أعماقنا موجة من العواطف، والحب فقط هو الذي يستطيع تهديم الحواجز العالية الضخمة التي تخفي خلفها أثرَتَنا وأنانيتنا، ويُشعل لهيب الشوق والعشق ويجرنا بأسارير مفتحة إلى طريق التضحية المؤلم. إن مطالعة كتاب في الحقوق لا يبعث فينا الشوق والرغبة).

ويقول أيضا: (إن الخطأ الاجتماعي الكبير في عصرنا الحالي هو الإعراض عن اتباع قانون التكامل الروحي وحصر الروح بصورة استبدادية عنيفة بالقوى العقلانية، وتربية الروح الفكرية فقط، ذلك أن الفكر يستطيع بمساعدة العلم أن يضمن السيطرة على جميع الأشياء لكنه تناسى النشاطات الروحية الأخرى. إن الإنسان المعاصر لم يفهم بعد خطر الخروج على قانون التكامل الروحي، ويظن أن التنمية الفكرية تعادل التربية الروحية، ولم يعلم بعد أن إلى جانب العقل توجد النشاطات المعنوية اللازمة للسير الصحيح في الحياة. إن السيطرة التدريجية للفساد وقلة الأدب والانحراف والإدمان على الخمر والكسل والحسد والحقد والتزوير والكذب والخيانة تحصل عندما يُسحق قانون التكامل الروحي. إنه خطأ فظيع ارتكبه دعاة التمدُّن والتجدد في إهمالهم للتكامل الروحي. إن العمر الروحي للأغلبية العظمى من الناس لا يتجاوز ١٢ أو ١٣ عاما).

لذلك فالعواطف تشكل جانباً مهماً من الفطرة الإنسانية، ويجب أن تنال حقها من التنمية والرعاية كسائر الذخائر الطبيعية وذلك حسب شروط وعوامل معينة، وأهم هذه الشروط أن تكون خاضعة للعقل والشرع بعيداً عن الإفراط والتفريط.

رعاية الميول وتوجيه المشاعر:

هناك ميول مختلفة مودعة في قوام الإنسان: روحه وجسده، ولكل منها دور فعال في ضمان سعادته. ومن الضروري أن تُلبى جميع الميول بالصورة الصحيحة

المتوازنة حتى يصل الإنسان إلى الكمال اللائق به. وإنه من الخلل أن يراعى ميل من الميول بينما يتم تجاهل الميول الفطرية الأخرى، فالإنسان يجب أن يأكل إذا جاع، ولكن سعادة الإنسان لا تنحصر في الغذاء، والإنسان بفطرته يميل إلى الجنس ويجب إشباع هذه الغريزة ولكن حياة الإنسان لا تقوم على الجنس فقط، والإنسان يملك ثروة العقل العظيمة ويجب تنميتها وصيانتها عن طريق التفكير والتعلُّم ولكن المعرفة العقلية لوحدها لا توصل الإنسان إلى إنسانيته، وكذلك العواطف والمشاعر فإنها من الكنوز الفطرية للإنسان، ورعايتها بالصورة الصحيحة من أهم أسس سعادته، ولكن الإنسان ليس مكوناً من العواطف والمشاعر فقط.

يقول (الكسيس كارل): (إن هدف الحياة هو أن تصنع من كل فرد نموذجاً صالحاً للإنسانية، ويجب أن تُنمى جميع الإمكانات الجسدية والفكرية والمعنوية في سبيل القيام بالواجبات الإنسانية. إن قمة تكامل الفرد والأمة تكون عند التعالي النفسي الحاصل، إذن فنحن مدعوون إلى تنمية جميع نشاطاتنا الجسدية والروحية، وهذا واجب مفروض على الجميع، وعلى الفقير والغني، المريض والسليم، الرجل والمرأة والكبير والصغير اتباع ذلك. لكل فرد – مهما كان جنسه وعمره ومنزلته الاجتماعية– حاجات عاطفية وفكرية وجسدية يُعتبر إرضاؤها ضروريا لأداء واجبه).

إن من أهم الواجبات الدينية والأخلاقية والوطنية للوالدين، الاهتمام الشديد بتوجيه مشاعر الأطفال ومراقبة تنمية عواطفهم. وتبدأ الميول العاطفية بالظهور منذ الأسابيع الأولى بصور متفاوتة وتستمر كذلك حتى نهاية العمر إذ يبقى لها دور كبير في جميع شؤون الإنسان وفي مراحل حياته المختلفة.

(يستيقظ الشعور العاطفي عند الأطفال في وقتٍ مبكر، ففي الوقت الذي يكون فيه سراج العقل غير مشتعل بعد عند الطفل، وفي الحين الذي لا يدرك شيئاً عن الاستدلال والمنطق، ولا يملك طاقة بدنية كاملة، نجد أن الشعور العاطفي يستيقظ

فيه ويكون قابلاً للتوجيه والضبط. وإن غفلة الوالدين في هذا الظرف الحاسم تؤدي إلى آثار سيئة في روح الطفل)[٦].

ومن أفضل وسائل تنمية عواطف الطفل مناغاته ومعاملته بالرفق والحنان. فكما أن الطفل يحتاج إلى الطعام والهواء والماء والنوم بفطرته كذلك يحتاج إلى العطف والحنان.

(إن الطفل الذي يتلقى مقداراً كافياً من العطف والمحبة من أبويه ويُروى من ينبوع الحب يملك روحاً غضّة ونشِطة، إنه لا يحس بالحرمان في باطنه ولا يُصاب بالعقد النفسية، وتتفتح أزاهير الفضائل في قلبه بسهولة، وإذا لم تعتوره العراقيل في أثناء طريقه فإنه ينشأ إنساناً عطوفاً وفاضلاً يُكِنّ الخير والصلاح للجميع)[٦].

إن الحاجة إلى الحب والاهتمام حاجة فطرية أصيلة، وإن الاستجابة لهذا الميل الطبيعي وإشباع هذه الحاجة جزء من المنهاج التربوي السليم. فالطفل الذي ينال حظاً وافراً من العطف والحنان في أيام طفولته ينشأ ذا روح طيبة ونفس محبة للناس والخير ويكون سلوكه طبيعيا طيلة أدوار حياته؛ أما الطفل المحروم من الحب والحنان فإنه يفقد الثقة بالآخرين ويملك روحاً ملؤها التشاؤم واليأس ويكون على شفا جُرف من الانحراف. وما يؤكد عليه العالم النفسي (إريك إريكسون) أن الطفل الذي حُرم من عطف أمه صغيراً لا يستطيع أن يثق بالناس كبيراً بعكس الطفل الذي لم يُحرم من هذه العاطفة الهامة.

(لقد سبق وافترضنا أن تقدير الذات إنما يعتمد على "تبييت" أو التشبّع بإحساس غير ملتبس بأن المرء محبوب لذاته. وحيث أن الأم خلال الطفولة هي أهم مصدر على الإطلاق للحب الذي لا ريبة فيه، فيكون من الطبيعي أن اختفاءها لا بد أن يتدخل في القدرة على التلبس بالحب أو يحول دونه، ومن ثم فإن ذلك يجعل تقدير الذات على جانب أكبر من الصعوبة في طريق إحرازه والحفاظ عليه)[١٠].

لذلك فالعواطف تلعب دوراً أساسياً وهاماً في حياة الناس، وبالإمكان معرفة درجة رقيّ الأُمّة وتقدمها أو انحطاطها وتخلفها عن طريق مشاعر تلك الأمة. فهناك إلى جانب العقل طاقة جبارة أخرى هي العواطف والمشاعر، والتي بإمكانها أن تُطفئ جذوة العقل وتدحره بالرغم مما هو عليه من قوة وسلطة.

يقول (الكسيس كارل): (إن النشاط العقلي ظاهر وغير ظاهر في وقت واحد. في الكومة المتدفقة لحالاتنا الشعورية الأخرى.. إنه وسيلة من كياننا، وهو متغير مثلنا أيضاً. ويمكننا أن نقارنه بشريط سينمائي يسجل المراحل المتعاقبة لقصة على سطح يختلف في درجة حساسيته من نقطة لأخرى...بل إنه أكثر ترادفا للوديان والتلال التي تحدثها موجات المحيط العاتية والتي تعكس بطريقة مختلفة السحب التي تَعبر السماء. فالعقل يُبرز مرئياته فوق الشاشة الدائمة التغيير لحالاتنا المتأثرة لآلامنا ومباهجنا، لحبنا وبغضنا. ولكي ندرس هذه الناحية من أنفسنا فإننا نفصلها صناعياً عن الكل غير المنظور. وفي الحقيقة إن الشخص الذي يفكر ويلاحظ ويتعقل يكون في وقت واحد سعيداً أو تعساً، مضطرباً أو مطمئناً، منتعشاً أو منقبض الصدر، بواسطة شهواته وبغضائه ورغباته. ومن ثم تتخذ الدنيا مظهراً مختلفا في نظره تبعاً للحالات المؤثّرة والفيسيولوجية التي تتحرك في مؤخّرة الشعور في أثناء النشاط العقلي.. إن كل إنسان يعرف أن الحب والكراهية والغضب والخوف تستطيع أن تشيع الاضطراب حتى في المنطق.. ولكي تظهر هذه الحالات الشعورية نفسها فإنها تحتاج إلى إحداث تعديلات معينة في المبادلات الكيميائية، وكلما ازدادت شدة الاضطرابات العاطفية أصبحت هذه المبادلات أكثر نشاطاً. ونحن نعرف أن المبادلات الكيميائية على العكس من ذلك، أي لا ينتابها أي تعديل بسبب العمل العقلي، والوظائف المؤثرة ليست شديدة القرب من الوظائف الفيزيولوجية،إنها تمنح كل مخلوق حي مزاجه، ويتغير المزاج من شخص لآخر.. إنه مزيج من الخصائص العقلية والفيزيولوجية والتكوينية، إنه الإنسان ذاته، وهو مسؤول عن ضعفه أو اعتداله أو قوته).

الفصل الخامس

النمو الانفعالي والعاطفي في الطفولة

تثبت الملاحظة أن للطفل الرضيع شخصية خفية يظهر شيء منها من خلال انفعالاته وردود أفعاله الدفاعية وميوله، وعندما تنمو القوى الجسمية والعصبية للطفل فإن شخصيته تنمو أيضا، ويجمع ذلك كله تحت مسمى التطور الحركي الروحي. فما إن يتخطى الطفل مرحلة الرضاعة الممثلة بعمر سنتين حتى نجد أنه قد اجتاز مراحل متعددة في طرق التعبير عن شخصيته، فهو يلتقط جميع الصفات الحسنة والسيئة من محيط الأسرة، ويغرم بتقليد من حوله من الكبار في سعي نحو إثبات شخصيته أكثر، وأثناء لعبه أو احتكاكه بالآخرين تظهر الصفات الحسنة أو السيئة التي خُلِقت في طبعه وكذلك تلك التي التقطها من محيطه، ومن هنا تتكون شخصيته سيئةً كانت أم حسنة.

وفي مرحلة تالية تبدأ من العام الثالث للطفل نجد أن هناك تطوّرات وتحوّلات تحصل على جسم الطفل ونفسيته، مما يترك أثراً بالغاً على نمو شخصيته، إذ تنمو خصائص الإدراك والذكاء وتبدأ مرحلة من العناد وإثبات الذات، كما يُسهم اعتدال الأبوين في محبتهما للطفل ومدح المعلم والمربي له في ظهور الاستعدادات الكامنة في أعماق الطفل ونمو شخصيته نمواً سليماً، لأن عدم الاهتمام بالطفل وظلمه وتوبيخه دون سبب من شأنه أن يَقمع كل الاستعدادات ويُوَلّد عقدة نفسية فتأتي شخصيته مريضة مهزوزة.

ولا يكون النمو الوجداني نامياً لدى الطفل كما هو عند المراهق، لذلك على الأهل والمدرسة تقع مسؤولية التعليم الأخلاقي التي تساعد على نمو الضمير الوجداني لدى الناشئ، وقد أجرى (بياجيه) ضمن سلسلة تحقيقاته الشهيرة والمثيرة للاهتمام دراسة حول مراحل نمو حالة التمييز الوجداني لدى الأطفال معتمداً على

اختبارات خاصة. وأثبت أن التمييز الوجداني يكون لدى الأطفال بين "٦ – ١٢" سنة ضعيفاً في البداية ومعتمداً على الغرائز والميول المادية، ويبدأ بالنمو التدريجي حتى يصل إلى حد الدقة في الإدراك الإرادي والشعور بالمواساة والمسؤولية وبالتالي التمييز بين الخير والشر.

يقول (الكسيس كارل): (إن تقنية تعليم الأخلاق والعقائد تختلف كثيراً عن تعليم التعليم الفكري، ذلك أن معرفة الخير والشر، والقدرة على تملّك زمام النفس، وحب الجمال، والإيمان بالله يختلف كثيرا عن تعلم اللغات أو التاريخ أو الحساب. هذا التعليم التطبيقي لأصول الحياة لا يمكن أن يحصل إلا في محيط تربوي خاص. كيف يمكن إيجاد محيط كهذا؟ إن هذا الأمر عسير جداً بالنسبة إلى الانحطاط الخلقي الذي نعيشه في عصرنا. إن انسجام البيئة الاجتماعية مع أساسيات التعليم والتربية يستلزم في المرحلة الأولى القيام بعملية تصفية واسعة النطاق، بحيث تُعد الرقابة على الأفلام والإذاعة، وغلق كثير من محلات الرقص وشرب الخمر، والتغيير الجذري في عالم المطبوعات التي توضع في متناول الأطفال والشباب جزء من تلك العملية).

وأهمية النمو الوجداني تنبع من كونها تساهم إلى جانب النمو العقلي في تكوين الضمير لدى الطفل والمراهق بحيث يمكنه السيطرة على انفعالاته ورغباته وعواطفه.

تصنيف الانفعالات:

الانفعال حالة تظهر على الشخص طفلاً أو كهلاً، ويتم التعبير من خلال حركات الجسد أو إيماءات الوجه عن هذه الحالة التي تحدث نتيجة استجابة لمؤثّرات داخلية كالتذكر والإحساس أو لمؤثرات خارجية كالسمع والإبصار وغيرها.

(كان بعض العلماء يرى أن الطفل يولد ولديه بعض الانفعالات وهي الخوف والغضب والحب وتصبح كافة المثيرات الطبيعية مثيرة لأي من الانفعالات. وتكتسب بعض المثيرات عن طريق الاشتراط خواص المثيرات الطبيعية ولكن هذه النظرية ثبت

عدم صحتها بفضل بحوث (بردجز) التي انتهت إلى أن الطفل لا يولد بانفعالات مُعيّنة وإنما يكون لديه ما يمكن أن يسمى بالتهيّج العام، وهو المادة الخام التي تتكون منها الانفعالات فيما بعد. ففي بداية الحياة لا يخبر الوليد أي انفعالات محددة. وهو رأي صحيح لأن الطفل كي يشعر بالإثم لا بد أن يعرف ما هو المُحرّم وما هو المباح، وكي يشعر بالفخر لا بد وأن يعرف ما هي مواطن الفخر. وهذا ما يؤكد ارتباط النمو الإدراكي عند الطفل بتنوع انفعالاته وتمايزها. فكلما نما الطفل واتسع إدراكه تنوعت أشكال الانفعال لديه وتعددت. كما يؤكد الصفة التلازمية لجوانب النمو بمعنى أن يرتبط الارتقاء في كل جانب بالارتقاء في الجوانب التلازمية الأخرى)[٢].

تطور الانفعالات في سنتي المهد:

تتمايز الانفعالات بالتدريج في هذه المرحلة، لكنها لا تكون واضحة كعواطف ثابتة، وأهم ما يمكن الإشارة إليه هنا هو مشكلة الفطام، إذ يُحذّر علماء النفس من الفطام الباكر أو المتأخر، والوقت المناسب للفطام النهائي هو العام الثاني، وأهم من وَقت الفطام هو الأسلوب الذي تتّبعه الأم في فطام طفلها. والأسلوب الصحيح هو الفطام التدريجي الذي يبدأ من الشهر الخامس حيث تبدأ الأم بتعويد طفلها على تناول الوجبات بالملعقة، وتخف عدد الرضعات مع تقدمه في العمر، أما الأسلوب الذي تتبعه بعض الأمهات وهو الفطام الفجائي وذلك بتعويد الطفل على الثدي كليا ثم ما إن يبلغ السنتين حتى يتجهن به إلى الأطعمة الصلبة فجأة ومنعه من الثدي بوضع مادة مرة عليه، أو إبعاد الطفل عند أقاربه، فهو أسلوب غير مناسب ويتضمن صدمة نفسية أليمة للطفل، وخبرة عاطفية سيئة، فالثدي بالنسبة له في هذه السن هو رمز للغذاء والدفء والحنان والرعاية. وحدوث هذه الصدمة/الخبرة/ للطفل في الوقت الذي لم يدرك فيه بعد مغزى ما يحدث ولا يملك المحصول اللغوي ليعبر عن نفسه وترسّب في أعماقه شعوراً بأن الدنيا لا أمان لها، وقد لا يعود قادرا على تكوين الثقة بمن حوله مستقبلاً.

النمو الانفعالي وبدء تكون العاطفة بين (٣ و٦) سنوات:

هذه المرحلة تتميز بحدوث ثورة انفعالية شديدة إذ نرى الطفل حاد الانفعالات فهو يفرح لأقل الأشياء ويحزن لأبسط الأسباب وكل انفعال عنده شديد عنيف، فهو عندما يفرح يفرح بشدة وعندما يغضب يغضب بعنف. ورغم أن انفعالاته شديدة فإنها تزول بسرعة بزوال أسبابها. وأحد أسباب هذه الثورة الانفعالية هو رغبة الطفل في تأكيد ذاته، فهو قد تعلم الكلام والأكل والمشي وهو يريد أن يتكلم كالكبار وأن يتصرف مثلهم لأنه يريد أن يستخدم عضلاته ومَلَكاته وينطلق كما يريد، وإذا حدث وأعاقه أحد عن هذا الانطلاق فإنه يثور ويغضب بينما يفرح ويُسر إذا تُرِكَ يُلبّي رغباته كما يشاء.

هذه الثورة الانفعالية في إثبات الذات تستمر طيلة العام الثالث. أما في العام الرابع فتبدأ الانفعالات تخف في حدتها، بحيث تميل نحو الاستقرار، فبدل أن يكون الشخص مرّةً كريها بالنسبة له ومرةً أخرى محبوباً، يصبح موضوع الانفعال واحد كرهاً أو محبة، وهنا نقول إن العاطفة قد تكونت.

(فالعاطفة هي عادة انفعالية ثابتة، وتتخذ من الأشخاص المحيطين بالطفل موضوعاً لها. ومن المتوقع أن تكون أول عاطفة تنشأ لدى الطفل السوي هي عاطفة الحب والتي تكون موجهة بشكل كبير نحو الأم التي تُصبح مركزاً لمحبة الطفل حتى لو لم تُنله كل ما يرغب، وإن كان هذا النمو والتطور يختلف من طفل إلى طفل ومن أسرة لأخرى فبعض الأطفال يُكَوِّنون عاطفة نحو الأب أو لا يرغبون بالتعبير عن عواطفهم تجاه الأم التي تكون مسؤولة عن تربيتهم بشكل أكبر. أما الحالة السّوية والطبيعية فهي أن تكون الأم مركز عواطف الطفل من البداية ثم يُكَوِّن الطفل عاطفة نحو أبيه ثم إخوته وجيرانه وأقاربه حسب اتساع دائرة معارفه الشخصية)[٢].

يتدخل هنا أيضا النمو العقلي والاجتماعي بحيث يصبح الطفل حريصا على إرضاء والديه مبتعداً عما يزعجهما، وذلك كله يعود إلى أساليب الوالدين في

التربية، وإن تكوين الأنا الأعلى – وهو مظهر من مظاهر النمو الاجتماعي والخلقي في هذه المرحلة – يساعد الطفل على أن يتعامل مع المحيطين به من صغار وكبار بصورةٍ أكثر موضوعية وثباتاً.

النمو الانفعالي أثناء الطفولة المتأخرة بين (٦ و١٢) سنة:

هذه المرحلة تتوسط مرحلة الثورة الانفعالية في الطفولة الأولى ومرحلة الثورة الانفعالية التي تتجلى في المراهقة، فهي مرحلة هادئة نسبياً أو مرحلة كُمون عاطفية وجنسية أيضاً.

يبدأ الطفل هنا في التعامل مع الآخرين، وتفرض طبيعة الحياة المعاصرة أحياناً على الطفل أن يبدأ هذا التعامل بشكل أبكر أي في عمر "٣ سنوات" مثلا، وقد يكون قبل ذلك حسب عمل الأم خارج البيت، ولكن الشكل المعتاد هو أن يبدأ هذا التعامل خارج نطاق الأسرة من سن "٦ سنوات"، فيبدأ بالخروج من نطاقه الشخصي وعالمه المحدود إلى عالم أوسع هو المدرسة، حيث يصبح فرداً بين أفراد آخرين، هم زملاؤه التلاميذ وأساتذته المعلمين، وكل هذا يُخرجه من دائرة التركيز على مطالبه الذاتية إلى رغبات أرحب تمتد لتشمل أصدقاءه وأساتذته ووالديه، وهذا ما يُخفف إلى حد كبير الثورات الانفعالية السابقة. عدا أن المدرسة تتيح للطفل مجالات يعبر فيها عن نفسه عبر النشاطات المختلفة، فلا يعود هناك أي ضرورة للصدامات مع من حوله، ومن خلال المدرسة يكتسب خبرات اجتماعية في كيفية التعامل مع المختلفين عن البيئة الأسرية التي اعتادها فهنا نرى أن الطفل يميل إلى التنازل عن رغباته أو تأجيلها وفقاً لما تقتضيه ظروف المحيطين به، إضافة إلى أنه يتعلم سلوكيات جديدة يجب أن تكون مفيدة في توجيه الطفل لخدمة أهداف الأسرة والمجتمع وليس لخدمة مطالبه الطفلية فحسب، بحيث تكون محبته لهذه السلوكيات دوافع للسلوك الاجتماعي المرغوب، وهكذا يتم توجيه النمو العاطفي لدى الطفل.

وإذا لم تُراعى هذه الجوانب فإننا نلاحظ لدى الطفل قصوراً في النمو العـاطفي يتبدى بما يلي من المظاهر :

- صعوبة تناول الطعام.
- التَبَوُّل الليلي وخاصة بعد أن يكون تعدّى مرحلة الجفاف.
- الانطواء الشديد على نفسه.
- بطء التقدم والنمو الجنسي.
- كثرة البكاء وسرعة الغضب ولأبسط الأسباب.
- الخوف والتعلق الشديد بالأبوين رغم تقدم سنه.
- كثرة المشاجرات مع الآخرين وخاصة خارج نطاق الأسرة.
- اضطرابات النوم وكثرة الأحلام المزعجة.
- كثرة التمارض والتشكّي من الآلام.
- ضعف التحصيل المدرسي رغم وجود الذكاء الجيد.

بينما نجد أن الولد الصحيح العاطفة تَغْلب عليه السعادة والبهجـة والمتعـة بالحيـاة مع بعض المظاهر التالية:

- يتوق للتعلم والرغبة في معرفة كل ما هو جديد.
- راغب بالنمو ليصل إلى مرحلة يُعامَل فيها ككبير.
- يرتاح لصداقاته وعلاقاته مع الآخرين.
- منتظم النمو ونشيط في الصباح.
- جيد الشهية للطعام.
- اجتماعي محب للقاء الناس.

- مسالم يعرف كيف (يأخذ ويعطي) مع الآخرين.
- سليم الصحة الجسدية.
- متفوق في تحصيله المدرسي[٤].

بعض مشكلات النمو العاطفي عند الأطفال:

لا يُعتبر أن الطفل لديه مشكلة نفسية أو عاطفية إلا إذا تكْررت السلوكيات الخاطئة الصادرة عنه أو إذا عجز عن تقديم التفاعل الاجتماعي السوي مع من يحيطون به من الناس، وهذه السلوكيات الخاطئة يمكن تقسيمها إلى:

(المجموعة الأولى): وتتألف من السلوك العدواني من قبيل كثرة الشجار، التقلّبات المزاجية، السلبية، العناد، القابلية الشديدة للتهيج، الانفجارات الانفعالية، الغيرة، شدة الميل إلى المنافسة.

(المجموعة الثانية): وتشمل الانطواء، الخضوع، الخجل، غلبة النعاس على الطفل، التحفظ المفرط، قلة النشاط على المستوى العادي.

(المجموعة الثالثة): وفيها نجد الاستمناء، الاهتمام الجنسي غير العادي، التهتهة أو اللجلجة.

(المجموعة الرابعة): وتتضمن التبول اللاإرادي الليلي أو النهاري[٢].

إن أسباب هذه المشكلات قد يكون بسبب إصابة الطفل بعاهة جسمية خَلْقية أو مكتسبة، مما يجعل الوالدين يزيدان من حنانهما وعطفهما عليه؛ كذلك فإن من هذه المشكلات ما له علاقة بأساليب تربية خاطئة كالتدليل المفرط أو القسوة الزائدة أو المقارنة بين الأولاد والتفرقة بينهم في المعاملة أو في إظهار المحبة، إضافة إلى اتباع أساليب تخلق لدى الطفل شعوراً بالذنب ومثل هذا ما يتراكم في نفسية الطفل نتيجة بعض الظروف المحيطة به من قبيل علاقة الوالدين مع بعضهما. فمن

المعلوم أن أطفال البيوت المنهارة يعانون من هذه الأعراض أكثر مما يعاني منها الأطفال الذين ينشؤون في بيوت تسود فيها العلاقات الأسرية السَّوية، كما أن حرمان الطفل من أحد الوالدين أو كليهما بالوفاة أو الانفصال يخلق ظروفاً مواتية لظهور هذه الأعراض في سلوك الطفل.

المشاكل التي تشمل الجوانب الانفعالية كثيرة وسنناقش من أسبابها فقط ما له علاقة مباشرة بفقد العاطفة أو نقص الاهتمام مثل:

أولاً: خوف الطفل من فقدان الحب:

إن عاطفة الحب الموجودة بين الوالدين وكذلك الموجّهة منهما لطفلهما تجعله يشعر بالأمان، الأمر الذي تنبني عليه الشخصية السوية المتمثّلة بالاستقرار الانفعالي فيما بعد. فالطفل الذي يفتقد الحب والاهتمام في محيطه الأسري سيبحث عنه خارج المنزل عندما يُصبح في سن أكبر، مما يؤدي إلى عواقب عاطفية شديدة إذ يمكن أن يمنح عواطفه لمن يستغلها أبشع استغلال. ولذلك وجب أن يمنح الوالدين أطفالهما كامل الحب والاهتمام والرعاية وأن يؤكدا باستمرار على هذه الأمور، وينتبها أن لا يصدر عنهما ما يخالفها نتيجة غضب أو انفعال.

ثانياً: الغيرة:

تحدث الغيرة عند الطفل إذا ولد له أخ ينافسه في عرش قلبي الوالدين، فيجد الطفل نفسه مهملاً من قِبلهما بعد أن كان كل شيء في حياتهما، وعبر الغيرة يعبر الطفل عن شعوره بالإحباط لهذا الاختلاف في المعاملة بين فترتين: قبل مجيء أخيه وبعده، وكذلك عن شعوره بالقلق وخوفه من فقد حب والديه له، فيظهر كرهه وعدائيته للوافد الجديد، فيتمنى له بعض الأمنيات غير الطيبة وينسب إليه كل ما يحصل في البيت من أعطال حتى لو كان هو سببها، ويتسقّط أخطاءه ويعددها أمام الآخرين، كما قد يحاول إيقاع الأذى به؛ وهنا يكون الملام هما الأبوين اللذين لم

يحسنا تهيئة الطفل لاستقبال شريك لـه في كـل شـيء، حيـث أن الطفـل الـذي تـم إعداده لذلك لا تجد عنده الغيرة واضحة، أما في عمر أكبر وفي سن المدرسة تحديـداً فالطفل السوي لا يشعر بالغيرة من إخوته وزملائـه، وإذا شـعر بهـا فإنـه يعبر عـن ذلك بالتهكم والسخرية والانتقاد اللفظي.

ثالثاً: التخريب:

لا يعتبر مشكلة أي تخريب يقوم به الطفل، فمثلاً قد يرمي الطفل الصغير لعبتـه أو سيارته ليكتشف ما يحدث لدى رميها، أو ليفكـك أجزاءهـا، وقـد يلجـأ الطفـل إلى التخريب إذا لم يتوافر لديه من الألعاب والأدوات ما يصرف من خلاله طاقته ونشـاطه. ويزيد حب التخريب لدى الأطفال الذين يعيشون في بيوت ضيقة محصـورة، بينمـا يقـل في البيوت العريضة الفسيحة التي يجري فيها الطفـل براحتـه أو إذا كـان يراعـى بشـكل دائم إخراجه إلى الأماكن الفسيحة. لكن التخريب إذا زاد عن حدٍّ معـين ولـم يكـن لـه أي سبب مقنع، فإنه بالدرجة الأولى هو رد فعل عند الأطفال في مواقف الإحباط وعدم الشعور بالراحة والأمان أو الشعور بالنقص والإهمال والدونية.

رابعاً: الكذب:

وأهم ما يهمّنا هنا هو الكـذب الادعـائي وهـو عندمـا يكـذب الطفـل ليعـوض شعوراً بالنقص يعاني منه سواء كان هذا النقص حقيقيـاً أو متوهمـاً، وأهـم أسـبابه هو اضطراب الحياة الأسرية وتفكك الأسرة، وعدم الشعور بالأمن في داخلها نتيجة لتمييز الأهل بين الإخوة وتفضيل بعضهم على بعض؛ وفي المدرسة قد يكون سـبب الكذب هو ظلم المدرس الذي يدفع الطفل للكذب بقصد الخلاص من القصاص.

خامساً: السرقة:

إن السرقة عند الطفـل ليـس لهـا المدلـول الاجتمـاعي الأخلاقـي الموجـود لـدى الكبار، وقد يسرق الطفل لأسباب مختلفة، وما يهمنا هنا هو نوعين من السرقة.

النوع الأول هو الانتقامي إذ يكون بدافع الانتقام وكردة فعل على قسوة زائدة أو تجاهل كبير وذلك عندما يسرق الطفل من والديه إذا وجد أنهما انصرفا عنه وأهملا شأنه، ومن ناحية أخرى قد تكون الأشياء المسروقة لا تخص الوالدين فقد يلجأ الطفل إلى سرقة زميل له يحقد عليه أو يشعر بالضيق منه أو بالغيرة تجاهه، فيسرق أدواته وقد يحطمها لأنه لا يحتاج إليها بل بدافع الانتقام.

والنوع الثاني يرتبط بنقص الحب والرعاية اللذين ينبغي أن يتلقاهما الطفل من الوالدين أو من المحيطين به بصفة عامة، وفي هذا النوع يختار الطفل أحد الأقرباء أو أصدقاء الأسرة أو من مدرسيه مَن يستريح له ويتوسم فيه موضوعاً لحبه، ويرغب الطفل أن يقيم معه علاقة تُعوض له الحنان المفقود، فإذا لم يُستجب للطفل ولم يلتفت إليه فإن الطفل لا يستطيع مواجهة هذا الصدّ، ولا يتحمل ذلك الحرمان، ويمضي في إصرار لإقامة العلاقة، ولكنها تكون في الخيال في الدرجة الأولى. وهنا يلجأ الطفل إلى سرقة أحد الأشياء من ذلك الشخص وفي العادة لا يكون للشيء المسروق قيمة مادية تُذكر، ولكن الطفل يسرق هذا الشيء ويضعه في مكان أمين ويتفحصه بشوق وهيام ويجد في الاحتفاظ به استمراراً للعلاقة ولذلك يحرص عليه جداً، وإذا فقده فإن علاقته بموضوع حبه تتهدد، ويسمي علماء النفس هذه الظاهرة بالأثرية (fethism) إشارة إلى أن هذا الشيء يمثل أثراً من آثار المحبوب.[٢]

رعاية النمو الانفعالي والعاطفي للطفل:

١- افهم احتياجاته:

- **أعطه المحبة والدفء والاهتمام:** وذلك من خلال الجلوس معه وقضاء الوقت المناسب في صحبته، في الكلام أو اللعب أو القراءة. إنه لا ينفع أبداً أن تقول لولدك بأنك تحبه وأنت لا تجد وقتاً تقضيه معه. إن مجرد قضاء الوقت مع ولدك سيشعره بقيمته ويُنمّي فيه احترامه لنفسه. وإذا تحلى الطفل بهذه الخصلة فإنه سيكون أكثر

احتراماً لكل ما هو في حياته، لأن شعوره بقيمته الذاتية سينعكس ويشع من أعماقه على كل ما حوله من أشخاص وعلاقات إنسانية، وعلى كل ما حوله من احترام الوقت والأشياء المادية كالكتب وحتى أثاث المنزل. إن احترام الإنسان لنفسه لأمر أساسي في صحتنا النفسية والعاطفية. ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ليشعرنا باحترامنا لذاتنا ومكانتنا في هذا العالم.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أهمية الاحتكاك واللمس الجسدي بين الوالدين وأولادهما. فاللعب اللطيف والعناق واللمس كلها من الأمور التي تُشعر الأولاد بالاطمئنان والسكينة، وبأنهم على صلة جيدة مع والديهم. وأنا أنصح باستمرار هذه العلاقة حتى عندما يكبر الأولاد. ومن المؤلم أن يذكر لي شاب في السابعة عشرة من العمر أمنيته في الحياة أن يعانق والده، أو يسير معه واضعاً ذراعه على كتف والده كصديقين، إلا أنه لا يستطيع فعل ذلك لأن والده دوماً يبقي حاجزاً كبيراً بينه وبين أولاده.

- **اقبله كما هو**: وذلك بأن تُشعر ولدك بالقول والعمل أنّك تتقبّله كما هو، وبغض النظر عن درجاته التي يحصلها في المدرسة ، وبغض النظر عن طوله وشكله.

ومهما حدث فيجب أن لا يُهدَّد الولد بسحب المحبة منه، وإنما أشعره حقيقة بأنه الولد المحبوب والمقبول لوالديه على الدوام.

- **أعطه الأمن وأشعِرهُ أنك متواجد معه دوماً**: فإن من أكثر الأمور التي يقدرها الولد هو تواجد والديه أو أحدهما إذا ما أراد هذا الولد الحديث في أمر أو الاستشارة أو طلب المساعدة. ومن المهم أن نعطي الولد الانتباه الكامل إذا أراد الحديث في موضوع ما، لا أن نتكلم معه وذهننا منشغل في كتاب أو جريدة أو تلفاز.

٢- عَوِّده الاعتماد على ذاته:

- **أشعِرهُ أنك تثق بإمكاناته وقدراته**: وذلك بالفعل وليس بمجرد القول. ويمكن أن

تحقق هذا عن طريق فتح المجال للولد ليقوم ببعض الأعمال والأنشطة المناسبة لِسِنِّه، والقيام بتشجيعه وعدم الانتقاص من معنوياته وقدراته على إنجاز هذا العمل.

- **تجاوز عن الخطأ أثناء محاولاته:** فبالرغم من أننا نحاول تشجيعه على القيام ببعض الأعمال والأنشطة، فإننا لا نتوقع أن يكون إنجازه لهذا العمل بالضرورة كاملاً من المحاولة الأولى. ولذلك من المفيد أن نتجاوز عن بعض الأخطاء أثناء التنفيذ، وإلا فإنه لن يحاول ولن يتعلم. ويلاحظ الإنسان في عالم الكبار كم هي الأعمال التي نتركها ولا نقوم بها لأن الناس من حولنا ليس لديهم صبر على محاولاتنا، ويلحون بأن تكون الأمور كاملة من المحاولة الأولى.

- **اترك له القيام بأموره وأعماله الخاصة به:** فمن القواعد البسيطة في علم النفس والتربية أن كل عمل يمكن للولد القيام به، فالأصل أن نتركه ليقوم به بنفسه. فإذا كان يستطيع ارتداء قميصه، فلماذا تتدخل أمه لِتُلبسه؟ وإذا كان يستطيع أن يشرب الماء، فلماذا لا نعوده على إحضار كأس الماء كلما عطش.

- **لا تكن مفرطا بحمايته ورعايته:** وغالباً ما تتصف الأم أكثر من الأب بهذه الصفة حيث تبالغ كثيراً في رعاية أولادها وحمايتهم. فهي لا تريد للولد أن يلعب في الحديقة خشية أن يتسخ بالطين والتراب، وهي تبادر في إطعامه بيدها مع أن ولدها قادر على تناول الطعام بنفسه، وكذلك حال الملابس، وغيرها من الأعمال التي كان يمكن للأم أن تترك ولدها يقوم بها بنفسه. إن مثل هذه الرعاية المفرطة تحرم الولد فرصة الاعتماد على نفسه وبناء ثقته بإمكاناته الذاتية، هذا بالإضافة إلى أنه يُتعب الأم كثيرا ويُحمّلها فوق طاقتها.

- **أشرِكهُ في أعمال المنزل:** فعلى كل فرد في الأسرة وحتى الصغير منهم أن يقوم بعمل ما داخل البيت. ويمكن لأفراد الأسرة أن يتوزّعوا مهمات البيت والأسرة فيما بينهم. ولا بأس أن يكتبوا قائمة بالأعمال المطلوبة واسم الفرد المسؤول عن هذا

العمل. إذ أنه من غير اللائق أن يعتاد الإنسان على استخدام المنزل وكأنه في فندق أو مطعم، فهو يأكل وينام ويفعل كل ما يحلو له، ويتوقع أن يقوم غيره بالتنظيف والترتيب وإعداد الطعام، وأنه من غير العدل أن نترك كل هذه الأعمال والمسؤوليات لفردٍ واحدٍ كالأم مثلاً، وخاصة إذا تذكرنا أننا نطالب الأم أيضا بتسيير أمور المنزل، وبشراء الحاجات، وبالاعتناء بتعليم الأولاد، وفي ذات الوقت تُطالَب المرأة بالاهتمام بالدعوة والحياة الاجتماعية. ثم إن الأولاد يتعلمون تحمُّل بعض مسؤوليات الحياة فلا يكونوا اتّكاليين على غيرهم ويُعِدّهم هذا لمسؤوليات الحياة المستقبلية ويصبح في البيت الكثير من النظام والانضباط، ويقل احتمال حدوث الخلافات والنزاعات، ولا شك أن الأم تسعد كثيراً مع كل مساعدة تُقَدّم لها في أي عمل في المنزل ولو كان صغيراً.

- **احترم خصوصياته:** فلكلٍّ منا خصوصياته التي يحتفظ بها لنفسه. وعلى الوالدين احترام خصوصيات أولادهم فلا يتجسسون عليهم، سواء كانوا يكتبون مذكّرات أو لديهم رسائلهم الخاصة بهم، وإذا خشي الأهل من وجود ما يقلقهم فعليهم الحديث الصريح المباشر مع أولادهم دون التجسس عليهم. ومن أمثلة احترام خصوصيات الأولاد عدم الدخول إلى غرفته إلا بعد الاستئذان بقرع الباب.

٣- أعطه التوجيه والهداية:

- **أعطه أرضية صلبة تُمكّنه من اتخاذ القرارات في المستقبل،** وذلك بالحديث معه عن حكمة ما تقوم به من أعمال وممارسات دينية وأخلاقية، فإن هذا يُعينه على فهم وإدراك مقاصد هذا الدين الحنيف، ولأن هذا يُنمّي فيه فَراسة المحاكمة وتقدير المواقف. ومن الأمور الضارة في التوجيه الديني أن تصبح الأمور مجرد طقوس وممارسات بلا روح ولا مقصد.

- **عرّفه بدينك وقِيَمك وأخلاقك:** لأن معرفة الولد لديانة والديه ومبادئهما الأخلاقية في الحياة يعطيه الشعور بالاطمئنان، ويُنمّي عنده الوازع الأخلاقي في

واقع الحياة. ويتم هذا من خلال حديث الأبوين لأولادهما عن تاريخ حياتهما ونشأتهما وبعض ما مر معهما من مواقف وأحداث.

- **علّمه ما هو حلال مقبول، وما هو حرام مرفوض،** وكذلك ما هو مكروه ومُستحب ومُباح.

- **علّمه بالقدوة والسلوك لا بمجرد الكلام:** فغنيٌّ عن البيان أهمية القدوة الحسنة في الجوانب المختلفة للأخلاق خارج البيت وداخله، وفي الأمور الصغيرة والكبيرة. فإن من أفضل وسائل التربية الأخلاقية هو النموذج الحسن والقدوة المناسبة. ومن الأمور الخطيرة على التكوين الديني عند الولد أن يعيش في جو من التناقض والتباين بين القول والعمل، وخاصة عندما يكبر الولد ويدخل سن المراهقة، لأن من صفات المراهق أنه مثالي لا يمكن أن يتفهم أو يتقبل افتراق القول عن العمل.

- **ثق بولدك:** فالثقة بين الولد ووالديه من الأمور الحسّاسة والهامة في نشأته الأخلاقية والدينية والحياتية بشكل عام. وهذا يعني أن لا يلجأ الأهل إلى التشكيك في صدق كلام ولدهم، وأن لا يقوموا بما يسمى الاستجواب والتحقيق كالذي يتم في المحاكم الجنائية. لأن هذا الأسلوب يُعلّم الولد الكذب والخداع، والأهل يدفعون الولد لممارسة ما يحذرون منه. الأصل أن تكون علاقة أفراد الأسرة كلها مع بعضها قائمة على الثقة، والتي تعني هنا الاطمئنان إلى أن الجميع يتعاملون بصدق وصراحة وأمانة.

٤- ضع قواعد في المنزل:

- **لا بد من ضوابط وقواعد في البيت كالنوم والطعام والدراسة وغيرها:** وهذه من أهم الأمور في تعلم الانضباط مما ينعكس بشكل إيجابي على الصحة العاطفية للولد، بينما في البيت الذي لا تحكمه ضوابط وقواعد للسلوك فإن الولد يكون غير مطمئن وغير سعيد.

- **أوجد روتيناً ونظاماً داخل البيت:** بحيث يعتاد الولد على نظام معين بدل أن يكون في حالة فوضى. فالنظام يساعد كل فرد على ترتيب برنامجه وأنشطته. وإذا كان لا بد من المفاجأة فلتكن أقل ما يمكن.

- **ضع حدوداً عادلة ومعقولة:** وذلك وفق عمر الولد وظروف الأسرة، فليس بالضرورة أن تكون نفس القاعدة تنطبق على كل الأولاد، وخاصة إذا تفاوتت الأعمار كثيراً بينهم (كوقت النوم). وقد يكون النظام في عطلة الصيف غير النظام أثناء الدوام المدرسي، وما يُناسب ولداً قد لا يناسب من هو أكبر منه أو أصغر سناً.

- **لا بد من اتباع هذه الضوابط والقواعد على الدوام:** فمن أكبر العيوب في وضع الضوابط والقواعد هو عدم وجود استمرارية في تطبيق هذه القواعد، وبالتالي يتعلم الولد التفلُّت من هذه القواعد وغيرها، نتيجة قناعته فإنه يمكنه عدم الالتزام بها. والعيب الآخر في تطبيق القواعد أن يكون تطبيقها وفق القواعد المزاجية للوالدين، ومن دون منطقية أو أسباب موضوعية للأمور. ومن الأمثلة على هذا، أن يكون وقت نوم الطفل الساعة الثامنة مساء ولكن الأب يترك ولده يطيل السهر حتى الساعة العاشرة ليلا لأن الوالد في حالة مزاجية مريحة، بينما في يوم آخر يكون فيه الأب منزعجا من أمر ما فإذا به يأمر الولد بالنوم في الساعة السادسة!

- **المعاقبة على كل مخالفة للقواعد:** فالولد الذي قيل له: إنه إذا لم يُكمل واجباته المدرسية فإنه لن يستطيع مشاهدة التلفزيون، فإنه إذا لم يكمل واجباته فيجب عندها أن نطبق ما ذكرناه للولد، ولا يُسمح له بمشاهدة التلفزيون ذلك اليوم.

- **كافئ على السلوك الحسن الجيد:** فنحن معشر الآباء والأمهات قد نكون شديدي الانتباه للسلوك المزعج فنبادر للعقوبة مباشرة، إلا أننا لا نعطي نفس الانتباه للسلوك الحسن، والذي قد نتركه يمر ولا نشجع عليه. ولنتذكر تلك

القاعدة النفسية التي تقول: إن كل سلوك يُعزّز ويُشجّع فإنه سيتكرر في المستقبل أكثر.

٥- أشركه في مشكلات الأسرة:

إن من الأمور المفيدة للطفل أن يختبر الحياة بحُلوها ومُرها وهو في بيت والديه، وهذا يعني أن لا يُبالِغ الأهل كثيراً في حماية الولد من معايشة بعض مشكلات الحياة وآلامها، سواءً كانت مالية أو صحية، كمرض أحد الأقرباء حيث يُشجَّع الولد على عيادة قريبه المريض، أو في حالات الوفاة حيث يُسمَح للولد بحضور الجنازة وتوديع قريبه الذي مات، فهذه سُنّة الحياة. وسيتعلم الولد كثيرا من مثل هذه التجارب والمواقف، سيتعلم عن مشاعره وأحاسيسه، ويتعلم أيضا من مواقف الآخرين من حوله. والنتيجة أنه يكون أقدر على مواجهة ما تأتي به الحياة من صعوبات وتحديات.

ولا بد مع كل هذا من إيجاد الطريقة والظروف المناسبة لإخبار الطفل بمثل هذه الأمور، وبالطريقة البسيطة التي يفهمها.

٦- اِفهم أصدقاء الولد:

- **كن على مستوى توقعات أصدقائه:** فعندما يأتي ولدك بأصدقائه إلى منزلكم فإنه يريد أن يفتخر بوالده ووالدته، ولذلك أَحْسِن معاملة أصدقائه، واحترم مشاعره أمامه، فإذا أردت أن تنبهه إلى أمر فَعَلَهُ أو لم يفعله، فليكن تنبيهك لطيفا، والأفضل أن يكون بينك وبينه بعيداً عن أنظار أصدقائه، إلا أن يكون الأمر خطيراً لا يحتمل الانتظار.

- **ليس عليك طبعاً أن تفعل وتُقلّد ما يفعله الآخرون:** فقد يحاول الولد أن يضغط عليك ليجعلك تُقَدِّم له ما يقدمه أهل أصدقائه لأولادهم، فكل أسرة أدرى بظروفها وإمكانياتها.

- **لا تختر له أصدقاءه، ولكن تحدّث معه في هذا الأمر:** وقد يستغرب بعض الناس هذه المقولة، والمطلوب أن نعين الولد ونوجهه على معرفة ما ينفعه مما يضره، ومن ثم فتح المجال أمامه للتعبير عما تعلمه من مصلحته الخاصة.

٧- ساعده على التعلم:

- **تابع واجباته المدرسية.**

- **اجتمع بمعلميه وتحدث عن تقدمه ونموه.**

- **ارفع موانع التعلم كالمرض وقصر النظر وغيره.**

٨- أشركه في تجاربك الخاصة:

- **تحدث معه عن ذكرياتك وحياتك في صغرك.**

- **تحدث له عن علاقاتك وصداقاتك.**

- **تحدث له عن مهنتك وعملك.**

- **القيام بمشاريع مشتركة مع الأسرة.**

الفصل السادس

النمو الانفعالي والعاطفي في المراهقة

ينشأ في جسم الإنسان ونفسه إبان البلوغ تحولات كبيرة تفرض عليه حالة عقلية وذهنية ونفسية مميزة ومعقدة، إذ تَشدّ التغيرات الجسمية التي يُفاجَأ بها المراهق انتباهه لذاته، فيشرع في تأمل ذاته ويساوره القلق على نفسه، وخاصة عندما تستيقظ الغريزة الجنسية لدى المراهق ويبدأ اهتمامه ينصب على باطنه، ولا يعود لعالم الأشياء أهمية عنده كالمرحلة السابقة فهو يلتحق بعالمه الجديد.

ويفقد الشاب في هذه المرحلة الثقة بالنفس التي كان يتمتع بها من ذي قبل، وبسبب ذلك تُصبح "الأنا" محور أقواله وفعاله، وبما أن العالم والمحيط لا يدوران في فلك "الأنا" للمراهق، فهو ليس على ما يرام مع المحيط ويشكو منه على الدوام، ويعترض وينتقد، ليس مرتاحاً للأوضاع والأحوال، فتنهار قواه الفاعلة وتضعف إرادته وكأن هناك علاقة بين هاتين الحالتين أي حالة الاعتراض والانتقاد وحالة الضعف والانهيار.

إنه يقيم كل شيء على أساس ميوله ورغباته، وليس لديه أفكار نهائية عن أي موضوع، ونتيجة لكل هذه الخصوصيات يصبح وبكل سهولة عرضة للمؤثرات الخارجية، فتضطرب حياته الانفعالية حيث يكون قوامها (انفعالات عنيفة متقلبة، حماسة زائدة، خجل بصدد نموه الجسمي الذي يظنّه مرضاً أو شذوذاً أو إحساساً شديداً بالذنب يثيره انبثاق الدافع الجنسي على نحو صريح، أحلام فاضحة وخيالات متطرفة وأماني جديدة، عواطف غريبة كالحب والوطنية والتدين، أسلوب جديد في التفكير ونزعات نقدية وشكوك لم تساوره من قبل)(٢).

إن فترة البلوغ تأخذ طابع التوتر والأزمة، فالمراهق لا يمكن اعتباره شاباً ولا

طفلاً، بل ما زالت بعض تصرفات الطفولة تغلب عليه أحياناً، ومظاهر الشباب تظهر عليه أحياناً أخرى.

يقول (موريس دبس) في كتاب البلوغ:(هناك نقاش قائم منذ مدة حول ما إذا كان البلوغ يُعتبر ضمن مرحلة الطفولة أم مرحلة الرشد والكمال، وحتى يومنا هذا هناك غالبية من الناس تعتقد بأن الإنسان تستمر طفولته حتى سن الخمسة عشر سنة، ثم يمر بمرحلة برزخ وهي مرحلة البلوغ قبل أن يصبح إنساناً ناضجاً فكرياً وجسدياً. وهذا اعتقاد خاطئ لأن الإنسان بين سن الـ ١٢ وسن الـ ١٨ يمر بمرحلة معينة من الحياة مستقلة تماماً عن مرحلة الطفولة ومرحلة الكمال، لها مميزاتها وقوانينها وتلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان).

سبب الأزمة في فترة البلوغ هي أن العاطفة تنمو بشكل سريع مثل سائر أعضاء الجسم، أما العقل فينمو بشكل أبطأ نسبياً، ولذلك تبدو بعض أفكار المراهق غير متوازنة وتصرفاته غير مقبولة، وانفعالاته شديدة وعنيفة، ولا يتناسب حجم الانفعال مع سببه، وتتغير شخصيته وكأننا أمام شخص آخر في أغلب الأحوال، ويصعب على المحيط تقبُّل المراهق الذي يبدو في حجم الراشد الكبير ولكن سلوكه لا يزال كالطفل الصغير، وهذا ما يجعل المحيطين به ينتقدون أي تصرف يأتي به المراهق ويَسِمونه بالتناقض، وفي الحقيقة أن الكبار هم المتناقضين مع أنفسهم إذا لم يستطيعوا تفهم أسباب عدم التوازن بين النمو الجسمي والعقلي التي تجعله غير قادر على إنجاز المهمات التي يُكلف بها الناضجون.

ويُلاحَظ نزوع المراهق نحو الاستقلال فلا يعود يستجيب للأوامر كما كان في الطفولة، ويبدأ الفتى في إبراز خصائص الرجولة لِيُثبت لمن حوله أنه رجل، فيبدأ يأمر وينهى ويتصرف وكأنه رجل البيت، بينما تميل الفتاة إلى إظهار جاذبيتها لدى الغير كما تسعى أحيانا إلى التمرد على قِيَم العائلة كالفتى سواءً بسواء. لذلك فإن أهم ما يميز فترة المراهقة هو عدم الثبات الانفعالي الذي ينشأ من الرغبة بالاستقلال

وأن يعامل كفرد بالغ وناضج في نفس الوقت الذي لا يمنحه والداه ومعلموه هذا الاستقلال بسبب أن بعض تصرفاته ما زالت غير متوازنة، وإذا كان الآباء من النوع المتسلط فإن الصراع في نفس المراهق يكون على أشده بعكس ما إذا كان محيطه متفهماً للتغيرات التي يمر بها. ورغم أن المراهق يرغب بالاستقلال عن والديه لكنه في نفس الوقت يعلم أنه لا يمكنه الاعتماد على ذاته لأنه يشعر أنه ما زال بحاجة إلى خبراتهما وعونهما، فهو يريد الاستقلال وتأكيد الشخصية لكنه لا يتمكن من ذلك بسبب قصوره من الناحية المادية أو الفكرية أو الجسمية أو الاجتماعية مما يزيد في الصراع وعدم التوازن في نفسه؛ إضافة إلى أن ما يزيد الطين بلة في نفس المراهق هو النزاع بين دوافع غرائزه الجنسية وبين ضميره ودينه وأعراف مجتمعه والمُثُل التي نشأ عليها.

من المظاهر الانفعالية لدى المراهق:

- التقلب في الانفعالات، وكثيراً ما تكون الأسباب التي تدفع المراهق من حالة انفعالية إلى نقيضها أسباب داخلية. والحقيقة أن العوامل الذاتية مؤثرة في كل الحالات التي تبدو أنها لا تستحق هذا القدر من الانفعال، لأن ذات المراهق هي التي تُجسِّم التافه من الأمور وتعطيه حجماً أكبر.

- يتذبذب المراهق في سلوكه فلا تستطيع أن تصفه بأنه اجتماعي أو انطوائي، متدين أو ملحد، محب لزملائه ورفاقه أم كاره لهم، مطيع لأهله أم معاند لهم، كما لو كان شخصا لم يحدد بعض اتجاهاته ومواقفه إزاء الأشخاص والأفكار. وهو كذلك بالفعل فهو يتصرف حسب ما تمليه عليه حالته الانفعالية الراهنة وهي متقلبة. ويترتب على ذلك صفة التذبذب في السلوك.

- مع أن التذبذب سمة في سلوك المراهق فإن مسحة من الكآبة والحزن تعلو سلوكه بصفة عامة. بمعنى أن ساعات الحزن أكثر من ساعات الفرح، ويلازم الحزنَ

ميلٌ للانطواء والوقوف موقفاً سلبياً من المجتمع قوامه إحساس المراهق بضعف الحيلة والهَوان وظلم المجتمع.

- قد يأخذ الموقف السلبي من المجتمع للمراهق شكلاً آخر، يتمثل في الثورة والتمرد، ويشمل هذا السلوك الأسرة والمدرسة وكل المؤسسات التي يتعامل معها المراهق. فالتمرد ينصب على كل صور السلطة. ويعتقد المراهق أن نصائح الآباء والمعلمين تَدخُّل في شؤونه الخاصة، ورغبة منهم في التحكم فيه. ويعتقد المراهق أن الآباء والمعلمين لا يزالون يعاملونه كما لو كان صغيراً، ولا يعطونه ما يستحقه من معاملة. ولذا يكون رد الفعل لديه هو الثورة والتمرد والعناد والرفض بدون تدبير أو تفكير فيما يقال له أو يُعرَض عليه. ونجد كثيراً من المراهقين يرفضون من الآباء ما يقبلونه من الأصدقاء والزملاء.

- من مظاهر الحياة الانفعالية عند المراهق الخجل والحساسية المفرطة، فهو يخشى غشيان الاجتماعات والمناسبات الاجتماعية، خاصة إذا كان بمفرده ظناً منه أنه سيكون محط أنظار وتعليقات المجتمع، وتزداد هذه الخاصية عند من سبق لهم أن تعرضوا لمواقف اجتماعية محرجة. كما أن المراهق مفرط الحساسية في التعامل مع الآخرين، قد تؤلمه كلمة ظنها تجرح شعوره، وقد يطرب فرحاً لكلمة تمتدحه أو تؤكد شخصيته التي يود أن يظهر بها أمام الآخرين. وتفوق البنات البنين في ظاهرتي الخجل والحساسية، وتتوقف الحساسية أيضا على تربية الطفل ونوع المعاملة التي تلقّاها وعلى فكرته عن ذاته، وقد يبدو متناقضاً إحساس المراهق بالخجل والحساسية من ناحية واستعداده للتمرد والثورة من ناحية أخرى.

- يحس المراهق كثيراً بالذنب نتيجة الأخطاء التي يرتكبها، فهو يُجسِّم لنفسه هذه الأخطاء ويصورها خروجاً على الصورة المثالية التي رسمها لنفسه، وقد يُحاسِب المراهق نفسه ليس على الأخطاء التي يرتكبها، لكن على الأفكار التي تراوده، وعلى الرغبات التي تهفو إليها نفسه. ويمكن اعتبار هذا الإحساس من

الميكانزمات التي تلجأ إليها النفس لتحمي المراهق من عنف الرغبات الجنسية والعدوانية التي تضطرم داخله ويقوم الأنا لديه بضبط هذه الرغبات.

– لا نستطيع أن نختم الحديث عن مظاهر النمو الانفعالي لدى المراهق دون أن نشير إلى ظاهرة هامة وهي ظاهرة أحلام اليقظة وهي تلك النوبات التي يُسلم فيها المراهق نفسه لخياله ينطلق به جامحاً، ويعيش فترة من الزمن بعيداً عن الواقع مفضلاً عليه حياة أخرى جميلة من صنعه، ويجد المراهق لذّةً كبيرةً في الاستغراق في هذه الأحلام. وهذه الأحلام سلاح ذو حدين، فهي قد تكون نافعة إذا كانت حافزاً على العمل والاستذكار فإذا كان المراهق يحلم لنفسه بمركز مرموق وتبلورت هذه الأمنية في نفسه، ووضع كل طاقاته للوصول إليها كانت أحلام اليقظة هنا بمثابة دافع إيجابي في حياة المراهق؛ أما إذا استغرق المراهق في الأحلام أكثر ساعات النهار وانصرف عن العمل والاستذكار فالأحلام هنا هروب من الواقع وليست وسيلة لتحسينه وتطويره. وعندما تزيد مدة هذه الأحلام فإنها تتحول إلى عرض يشير إلى سوء تكيف، ولذا فإن درجة استغراق المراهق فيها دالة أو مؤشر على كمية الإحباطات التي يواجهها في واقعه، فكلما كان واقع المراهق أليماً بالنسبة له وخالياً من كل ما يسره هرب منه إلى عالم يصنعه في خياله، والعكس صحيح فكلما كانت حياة المراهق متوازنة يجد فيها التفهّم والاهتمام من جانب الوالدين كما يجد فيها ألوان النشاط المختلفة التي يُشبع فيها ميوله ويعلي بها دوافعه، قل التجاؤه إلى أحلام اليقظة[٢].

الفروق بين الجنسين من الناحية الانفعالية:

تكون الفتاة أكثر رقةً من الفتى، وتظهر سمة الرومانسية أكثر عند الفتيات، وهن أكثر استسلاماً لأحلام اليقظة، وربما كان ذلك في البيئات الشرقية حيث تضع هذه البيئات قيوداً على حياة الفتاة أكثر، فلا تجد مفراً من اللجوء إلى الخيال لتعيش فيه، ولتحقيق ما تعجز عن تحقيقه في الواقع. كذلك نجد عند البنين ميلاً أكثر

للعنف والثورة والتمرد من ناحية، واهتماماً موازياً بكيفية ضبط النفس والتحكم في الانفعالات وتحقيق التكيّف في الوسط الاجتماعي من ناحية أخرى. ولكن هذه الفروقات كلها تخضع للتربية، ومن الأفضل فعلاً أن نعزّز بعض الفروقات الفطرية على أن نشوه الفطرة كما فعلت المجتمعات الغربية فكان عاقبة أمرها خُسراً.

تطور عاطفة الحب عند المراهق:

بما أن فترة المراهقة هي فترة البحث عن الذات والخروج عن المألوف ورفض السائد المعروف، والميل إلى المثالية أحيانا والسخرية من كل شيء أحيانا أخرى، فهي مرحلة انفعالية تتبدى في نواحي كثيرة، منها في الناحية العاطفية الخاصة للمراهق، حيث أنه يبحث عن مَثل أعلى له، قد يجده في صديق أو أستاذ وغالباً ما يكون من خارج العائلة إذا لم يكن أفرادها على قدر كبير من التماسك، وتبدو الروح المثالية العاطفية عند المراهق في حبّه للإنتاج الأدبي الرومانسي، أو في كتابته للشعر والقصص، أو رسوم لوحات مُعبّرة عن الجمال أينما كان.

(ويُمثل الحب العمود الفقري في حياة المراهق الانفعالية، فهو يرضى إذا حصل عليه، وتسوء حالته إذا حُرم منه، يبحث عنه ويسعى إليه، يريد أن يحبه الآخرون، كما يريد أن يمنح الآخرين الحب. وعندما يثور على والديه يتصور أنهما لا يحبانه، ويستكين في اللحظات التي يرجع فيها إلى نفسه ويعرف أنهما مستودع الحنان والحب له).(٢)

وفي المراهقة يظهر الدافع الجنسي بصورة واضحة وصريحة. وفي البداية يعتصم المراهق بنفوره السابق من الجنس الآخر في وجه هذه الدفعات، ولأن الدافع الجنسي في بداية المراهقة يكون غامضاً وغير واضح، نجد المراهق يتجه إلى عقد صداقة مع أحد أفراد جنسه ويتجه بحبه نحوه وهو ما يسمى مرحلة الجنسية المثلية. ولكن بعد وضوح الدافع الجنسي يتجه المراهق باهتمامه إلى أفراد الجنس الآخر، ويحاول جذب اهتمام أفراده وهي مرحلة الجنسية الغيرية.

أما تكوين عاطفة الحب بين الجنسين فسيتم توضيحها في الفصل العاشر حيث ننقل وجهة علم النفس ونظريات تكوّن الحب.

سيكولوجية البلوغ والمراهقة:

إن مظاهر البلوغ الجسدية مهما تنوّعت فهي ليست بتنوّع خصائص البلوغ النفسية، هذه الخصائص هي ما يعبَّر عنها بكلمة المراهقة، فالمراهقة قد لا تكون متزامنة مع البلوغ تحديداً، إذ تبدو بعض مظاهر البلوغ السيكولوجية قبل النضج الفيزيولوجي، وقد يستمر النمو السيكولوجي لمدة تتجاوز النمو الجسدي بكثير، وفي بعض الأشخاص يبدو أن المراهقة ليست بالعمر بقدر ما هي بالفِكر!

وإذا كان من السهل تحديد المراهقة بحصول البلوغ الذي يتم مع النضج الفيزيولوجي، فمن الصعب تحديد نهايتها التي تتمثل بالنضج العقلي والعاطفي والاجتماعي الذي يظهر من طريقة تفكير الفرد ومن خلال سلوكه وتصرفاته.

(نحن نعلم من وجهة النظر الجسدية أن البلوغ يتحصل عادة في عمر يتغير نسبيا بعض الشيء أو على الأقل ضمن حدود واضحة يمكن ضبطها بشكل موضوعي. تبعاً للقاعدة، تُنضِج الطبيعة ثمرتها جيداً وتجعل من الولد راشداً، أي فرداً قادراً على تأمين وظيفة النسل. أما التطور السيكولوجي فمختلف جداً، إذ إن الطبيعة هنا غير كافية لتدبير الأمور، وكون الراشد الحقيقي نتاجاً قيماً ونادراً في مجتمعنا، هو من الثوابت العادية. في الحالات السوية ينتهي المراهقون باتخاذ وضع الراشدين القانوني إنما عبر العديد من الصعوبات، وبعد سنوات طويلة من المراهقة، تستمر أيضاً في العمر الذي يُسمّى "سن النُّضج" مع بعض التقلّبات، والعقبات والانتكاسات وأخيراً مع فشل نسبي)[١١].

إن النُّضج النفسي لا يتم فجأةً بل يستغرق وقتاً ويحصل عبر سلسلة من الخبرات بعضها تصرفات صحيحة وبعضها ليس كذلك، ويختلف الوقت الذي يستقر فيه السلوك بحيث يصبح ناضجاً من فردٍ لآخر.

فالمراهقة هي المدخل إلى الرشد، وذلك لأن الفرد يصل في نهاية مرحلة المراهقة إلى درجة من النضج الشامل لجميع جوانب نموّه تؤهّله لحياته الراشدة. والنضج الشامل هو أن يصل الفرد إلى النضج الجنسي من الناحية التكوينية والناحية الوظيفية معاً، وإلى النضج العقلي حيث تكون قدراته العقلية قد ظهرت ووصلت إلى اكتمال نمّوها وقد تحدّدت ميوله، وأن يصل إلى النضج الانفعالي كما يظهر في ضبط السيطرة على انفعالاته وتوظيفها في خدمة أهداف بنائية رشيدة.

وفي الحقيقة إن خصائص المراهقة لم تكن معروفة في المجتمعات الزراعية البدائية، حيث كانت تُقام احتفالات البلوغ للفتى ويُزَوج ويُعامل كراشد، أما مع دخول العصر الصناعي الحديث فقد ظهرت المراهقة وبشكل أزمة أحياناً أكثر منها مجرد مشكلة عابرة. لقد كان البلوغ وما زال هو شرارة بدء الحياة الاجتماعية لدى الإنسان، لذلك فهو يُعتبر تطوراً مهماً وثورة عظيمة في حياة الإنسان، حتى إن بعض الشعوب السابقة كانت تقيم مراسم وطقوس خاصة للبلوغ، ففي أثينا كانت مثل هذه المراسم تقام في سن الثامنة عشر، أما في روما فكانت تجرى عندما كان الفرد يخلع عنه ثوب الطفولة ليرتدي ثوب الكبار، بينما في قبائل أفريقيا كانت بعض العادات القاسية تجرى ليختبر تحمل الشاب أعباء الحرب مثلاً، فكان عليه أن يتحمل قلع ضرس أو ضرب وشم أو دق خال، دون أن ترتسم على وجهه علامات الألم.

(إن الانتقال من الطفولة إلى النضج يطرح مشكلة تُشكّل خطراً على مدنيَّتنا، وهي إلى ذلك مُشكلة حديثة نسبياً، إذ إن المدنيّات البدائية لم تتعرف عليها، كما يبدو. لقد تم تجنبها من خلال سلسلةٍ من السلوكيات العشائرية، من احتفالات (المسارة) المُكرَّسة لإضفاء الصبغة الرسمية على إدراك مرحلة النُضج، والتي تنقل الولد إلى وضعية الراشد دون مرحلة وسيطة. يكون تطور المجتمع سريعاً في المدنيات الصناعية، إلى حد أن المشاكل التي يثيرها وضع المراهقين تُحل بصورة خاطئة، وغالباً ما يكون طرحها خاطئاً) (١١).

إذن، طول فترة المراهقة تعتمد على ظروف المجتمع، فإذا كان الوصول إلى النّضج دليل انتهائها، فإن الاستقلال المادي هو دليل أيضاً على ذلك، لذلك تقصُر فترة المراهقة في المجتمعات البدائية والمجتمعات الريفية بينما تطول في المجتمعات الحديثة والمجتمعات المدنية والصناعية (لأن الفرد في المجتمعات الأولى ينضج اقتصادياً في الوقت الذي ينضج فيه جنسياً، ويستطيع أن يعول على نفسه، مما يمكنه أن يتزوج ويُكوِّن أسرة. وبذلك يُشبع دوافعه الجنسية داخل الإطار الاجتماعي المشروع بالزواج وتنتهي بذلك مراهقته ليدخل مرحلة رشده. أما المراهق في المجتمعات الحديثة فإن استقلاله الاقتصادي يتأخر كثيراً عن نضجه الجنسي، فهو يظل عالة على والديه طوال فترة تعليمه أو إعداده للمهنة، وحتى بعد إتمام إعداده والتحاقه بالعمل فإنه لا يحقق الاستقلال الاقتصادي السريع الذي يمكنه من تكوين الأسرة. وهذه الفترة التي تفصل بين نضج المراهق جنسياً ونضجه اقتصادياً فترة صعبة على المراهق في المجتمعات الحديثة خاصة وأنها تطول إلى فترة عشر سنوات وربما أكثر) [٢].

ولذلك تعتبر المراهقة أزمة في المجتمعات الحديثة، بل هي أعنف أزمات النمو في رأي (جان جاك روسو) الذي أطلق عليها الولادة الثانية، وقد كان (روسو) محقاً بعض الشيء في ترحيبه بسن النزوات في روايته (اميل)، وقد تابع هذا الاتجاه (ستانلي هول) رائد السيكولوجيّين الأمريكيين، (وهو اتجاه يقوم على المشاهدات الفعلية والواقعية لسلوك المراهقين الذي يتّسم بعدم الثبات، والتوتر والقلق، والتأرجح بين الثورة والخضوع، والتحمس والرفض، والانطلاق والتقوقع. وقد أرجع علماء النفس ردود الفعل الانفعالية والاجتماعية هذه إلى طفرة النمو الجسمي وإلى النمو والتمايز الذي يحدث في النمو العقلي. والمراهقة من هذا المنظور أزمة بيولوجية لازمة وسُنّة من سَنَن الطبيعة البشرية لا بد لكل مراهق أن يمر بها؛ ولكن أبحاث (مارغريت ميد) و(رث بندكت) وغيرهما من الانثروبولوجيين قدّمت معطيات تعارض المنظور السابق حيث انصبّت دراساتهم على المجتمعات البدائية

والنامية ووجدوا أن المراهقة في هذه المجتمعات لا تمثل أزمة من الأزمات، بل إنها مرحلة عادية من مراحل النمو. ولا يعاني المراهق من إلحاح الدوافع غير المشبعة أو من الصدام مع المجتمع أو من مضاعفات البحث عن الذات مما يعانيه المراهق في المجتمعات الحديثة)[٢].

ومن أهم خصائص مرحلة المراهقة أنها تَمرُّد على السلطة، فالأهل سريعو التأثر إزاء تيقّظ الشخصية لكنهم يتقبلون ذلك بصعوبة، فهم أسيرو نظرة وهمية بحيث يواصلون نظرتهم إلى من لا يزالون يعتبرونه ولداً، وهي النظرة التي تطرح مشكلة الطاعة، وفي نفس الوقت يرون أن جسم المراهق أصبح يؤهله أن يستقل عنهم فيطرحون مشكلة المسؤولية، التي تخلق المشكلة الأكبر ألا وهي الحرية:

(المراهق قد يصطدم بوالديه وقد يصطدم مع مدرسيه وقد يصطدم مع المشرف في النادي، ويرجع ذلك إلى إحساس المراهق بأن هؤلاء الكبار يريدون تقييد حريته وفرض ما يشاؤون عليه مما قد لا يتفق مع رغباته، في الوقت الذي يرى أنه يعرف مصلحته ويعرف ما يناسبه، ويستطيع أن يفكر لنفسه أفضل من الكبار والمحيطين به)[٢].

وأحيانا تولد أزمات في العلاقة بين الآباء والأبناء تؤدي إلى نوع من الفتور والنفور، وخاصة عند أصحاب الطبائع المتمردة من الفتيان في مواجهة آباء وأمهات مستبدين أو ضعفاء. وأحيانا أخرى يسيطر نوع آخر من الأحاسيس ألا وهو حس العداء والخصومة الذي قد يطيح بالعلاقات الأسروية، حيث يبدأ الفتى بالتمرد والعصيان ثم بالفرار من البيت بعد أن يستخدم رذائل الكلام لينتهي إلى الهجران الأبدي.

(ويحدث أن يستشعر الأهل بانتصارات الاستقلالية كما لو أنها هزائم بالنسبة لهم. فيمكنهم في هذه الحالة تشديد النظام وزيادة الهيمنة على الشخصية المتيقظة بحجة أن البلوغ هو مرحلة انتقالية صعبة وهامة، وبحجة إمكانية ظهور عوامل جديدة يجب منعها من البروز مهما كلف الثمن حسب ظنهم. هذا الخضوع المتنامي المطلوب من المراهق يستلزم من الابن أن يفعل ما يريده والده أو ما يتراءى

له أن والده يرغب به، أو أن يتبع الخط المرسوم له، ويتقبل نفس القيم الظاهرة والضمنية. هذا الخضوع المطلق يؤدي عادة إلى ردات فعل عكسية، إلى تمرد مكشوف أو كامن للشخصية الآخذة بالتشكّل، وإلى حالات من العصيان البسيطة، المتكررة أو المثيرة، أو حتى إلى حالات الرفض العنيف التي تصل إلى حد الهروب المؤقت، الانحراف، وحتى الانتحار) [11].

بينما إذا اتخذ الأهل موقفاً متكيفاً وأكثر مرونة مع هذا التبدل في شخصية المراهق، بحيث يتركوا له حرية نسبية في اختيار كيف يعيش هذه المرحلة الصعبة، ويتسامحوا مع بعض العدوانية اللفظية أو الفعلية، فقد يساعد هذا في تخفيض عتبة التوتر بين المراهق وأهله مما يؤدي إلى تجنب التصرفات السلوكية المأساوية. أما بالنسبة للأهل المثقفين والذين يُبقون باب الحوار مفتوحاً مع أولادهم فلا تحدث هذه التجاوزات، لذلك فالتربية من الطفولة لها أهمية في إعلاء مفهوم الحوار والتقبل في الجيل الجديد، وكلما كانت الفجوة أقل بين الأهل وأولادهم في هذه الفترة كلما تم تجاوزها بسلام أكبر وبدون صراعات تُذكر.

تبقى أهم خصائص المراهقة متمثّلة في البحث عن الذات وهنا يمكن للمراهق أن يأخذ أحد أنماط أربعة:

١- **المراهقة المتوافقة:** وسماتها الاعتدال- الهدوء النسبي والميل إلى الاستقرار والإشباع المتزن- وتكامل الاتجاهات والاتزان العاطفي والخلو من العنف والتوترات الانفعالية الحادة والتوافق مع الأبوين والتوافق الدراسي والنجاح التحصيلي والتوافق الاجتماعي والرضا عن النفس.

٢- **المراهقة الانسحابية:** وسماتها الانطواء والاكتئاب والسلبية والتردد والخجل والشعور بالنقص والاقتصار على أنواع النشاط الانطوائي وكتابة المذكرات والنقد والتفكير المركز حول الذات ومشكلات الحياة ونقد النُظم الاجتماعية

والثورة على التربية والاستغراق في أحلام اليقظة التي تدور حول موضوعات الحرمان والحاجات غير المشبعة والإسراف في الاستمناء.

٣- **المراهقة العدوانية:** وسماتها التمرد والثورة ضد الأسرة والسلطة عموماً والانحرافات الجنسية والعدوان على الإخوة والزملاء والعناد بقصد الانتقام خاصة من الوالدين وتحطيم أدوات المنزل والإنفاق بإسراف والشغف بقراءة روايات المغامرات وأحلام اليقظة والتأخر الدراسي.

٤- **المراهقة المنحرفة:** وسماتها الانحلال الخلقي التام والانهيار النفسي الشامل والجناح والسلوك المضاد للمجتمع بالانحرافات الجنسية وسوء الخُلق والفوضى والاستهتار وسوء التوافق والبعد عن المعايير الاجتماعية في السلوك(٢).

بالنسبة للمراهق المنطوي على ذاته يميل إلى الشك بذاته فيعمد إلى نوع من الرتابة كي يتجنب الاصطدامات والإهانات والألم. ويكون المراهق في هذا الشكل شديد الامتثال للأوامر ويكون التشبه بالآخرين ضرورة لحياتهم. (وهم بحاجة إلى الحب كي يطمئنوا، ويتمنون أن يكونوا ذوي شعبية بين رفاقهم لكنهم عادةً لا يتوصلون إلى ذلك عندئذ يكتشفون ملذات الاستبطان العزائية ويستسلمون لها مع تلذذ نرجسي) (١١).

أما بالنسبة للمراهق العدائي، فهناك ما يسمى الخصوصية الفتوية التي تكلم عنها (ديبيس): (إن اكتشاف الأنا هو النقطة الأساسية في أزمة الخصوصية) ويفسرها وكأنها توكيد للذات عند المراهقين الذين يشكلون "مثال النمو الثوري". أما ما يفسرها غيره فهو كأنها تعبير عن الشك بالذات أكثر مما هي توكيد للذات. (يمكن القول: إن المراهق عدا اقتناعه بالتفردية الرائعة التي تتم للأنا العبقرية والغامضة، يحاول إقناع الآخرين بها، وبما أنه لا يمتلك إلا أسلحةً رديئةً على المستوى الذهني الذي لا يزال في بداياته، فإنه يستعمل لهذا الغرض الأحابيل الأكثر وضوحاً

والأكثر دناءةً: العقلنات المضادة، احتقار الأفكار التي يتلقاهـا، التوكيـدات التـي لا رجوع عنها، المفارقة، اللاامتثالية الواضحة في الملبس والسلوك. إنـه نصـف مخدوع بسبب رغبته في التضليل) [11].

يمكن القول: إن المراهق الأصيل يتخفى أكثر مما يعرض نفسه، فهـو يختفـي عـن الأنظار مبرزاً عن نفسه صورة خاطئة دون أن يخطر بباله أنها تمنحه قيمة ما. أخـيراً ينطبق على المراهق الباحث عن ذاته هذا القول:

(يقول مثل صيني: "إن الخبرة هي ممشط الصلع" نكاد نعتز بتصديق ذلك لـنرى التبذير المفرط في الخبرة التي تبدو ظاهرياً بدون فائدة، والتـي يستسـلم لهـا الشـبيبة أثناء هذا البحث المستمر عن الذات، لكن هذا ليس سوى انطبـاع. في الواقـع كـل فعل أثناء المراهقة له أهميته كشاهد، فلا يُعطى أي عمـر آخـر هكـذا أهميـة لقيمـة الأفعال الاختيارية، وبالاستناد فقط إلى الخبرات الفاشلة أو الناجحة، يستطيع الفكر الذي أصبح براغماتيا أن يتقدم. إنما المقصود بالطبع هو الخـبرة الخاصـة بكـل فـرد، فخبرات الآخرين غير ذات أهمية ومرفوضة أكثر من أي وقت مضى) [11].

من الجدير بالذكر هنا أيضـاً أن لوسـائل الإعـلام دوراً هامـاً في دمـغ الشـخصية الآخذة بالتشكل، فلقد كان لدى الطفل أبطاله المألوفون الذين يتطابقون مع أبطالـه العائليين، ولقد تمكن المراهق من الانفصال عنهم، ويتوجه نحـو شـخصيات تتجنـب كل تداخل بين مجال العاطفة الطفولية وبين شخصية الراشد.

(عادة ما يكون مأخذنا على وسائل الإعـلام الجماهيريـة أنهـا تثير إعجـاب الشـبيبة بأبطال تعرضهم فقط من زاوية النجاح المادي والتفوق المالي. لا يبدو أن هـذه النمـاذج قادرة على الاندماج بالاكتفاء أمام سطحية الواقع اليومي المعاش. هنا يُعتبر ذلك مـأخذاً جدياً نوجهه إلى وسائل الإعلام. إنما مع مرور الزمن ومع الممارسةالمتواصلة التـي يقـوم بها الشبيبة يحدث التمايز بين الواقـع والوهـم، فيسـتيقظ الفكـر وتسـتعيد المثـل، الأكـثر

إنسانيةً والأشد ليونةً، قيمتها. وتساهم التماهيات المتتابعة في تهيئة مثال يبقى أكثر تجرداً، يستبطن تدريجياً ليصبح في نهاية المطاف مثال الراشد)[11].

رعاية النمو الانفعالي والعاطفي للمراهق:

١- إعمل على تعزيز ثقة المراهق في نفسه وتخليصه من الحساسية الشديدة التي يعاني منها بدون أن توجه له أي انتقادات مباشرة أو أي سخرية من تصرفاته أو أي مقارنات بمن هم أفضل منه.

٢- شجعهُ على الاشتراك في كل أوجه النشاط الممكنة وأوحِ له أنه يستطيع أن يُثبت نفسه وتفوقه أيضاً في أي مجال إذا أراد.

٣- ساعدهُ على التخلص من الاستغراق الزائد في الخيال واللجوء إلى أحلام اليقظة كلما واجهته صعوبة. ويكون ذلك بجعله يتقبل واقعه فيراه مُحتَملاً على الأقل إن لم يكن بهيجاً. وإذا وجد المراهق أن في واقعه ما يرتاح له فإنه يحاول أن يعيشه ويندمج فيه ويندر أن يلجأ إلى الخيال والأحلام.

٤- أشعرهُ بأنك تحبه، وَقِف بجانبه بكل عواطفك ومشاعرك، وشاركه همومه وآلامه وأماله، وقدِّر مشاعره وتفهَّم معاناته.

٥- إجعلهُ يشعر أنه موضوع اهتمامك فإن هذا الشعور يُسعده ويُذهب عنه شعور اليأس أو الإحساس بالغربة والوحدة.

٦- ساعدهُ على تحقيق الاستقلال النفسي بتشجيعه على الاعتماد على نفسه، وأسنِد إليه مسؤوليات على قدر طاقته.

٧- لا تحاسبهُ بعنف إذا أخطأ أو لم يتصرف التصرف الصحيح، وأعط له الفرصة مرة ومرة، حتى لا يفقد ثقته بنفسه. وكذلك اقبل عذره برحابة صدر وتقبل منه محاولته تصحيحه لأخطائه وشجّعه على ذلك.

٨- عامله معاملة الشخص الكبير خاصة في النصف الثاني من المراهقـة، وإذا وجـد المراهق نفسه مستحقاً لمعاملة كالتي ينالها الأشخاص الناضجين فإنـه يقـدّر هـذا ويعطي أفضل ما في نفسه ليكون أهلاً للثقة.

٩- خذ رأيه في كل المسائل التي تخصه وكذلك في بعض ما يخص الأسرة، وعلـى المدارس أن تُعلي مـن تقييـم المراهقـين لأنفسـهم بمشـاركتهم الآراء حـول نظـام المدرسة.

١٠- تفهّم دوافعه الكثيرة وأهواءه المختلفة وأنه فعلاً يحتـاج إلى المسـاعدة والعـون، وكن له الصديق المتفهم فإن في ذلك أكبر عون له لتجاوز أزمات المراهقة.

الفصل السابع

النمو الفيزيولوجي والجنسي لدى المراهق

البلوغ

البلوغ هو المرحلة الانتقالية من الطفولة إلى النضج أي أنها مرحلة التغيرات التي تطرأ على الإنسان على الصعيدين الجسدي والنفسي.

ويتحدد قرب البلوغ بظهور الصفات الجنسية الثانوية حتى ظهور النزف الطمثي عند الفتاة، بينما تحدث أوائل عمليات القذف لدى الفتى والتي تسمى بالاحتلام.

تظهر أولى الصفات الجنسية الثانوية عند الفتاة بين ٩ و١٠ سنوات، وعادة ما يكون نمو الثديين هو أول التحولات البلوغية، ثم ظهور شعر العانة، أما نمو شعر الإبط فيأتي متأخراً إذ يسبق عادة الطمث الأول بستة أشهر إلى ثمانية. ويزداد حجم المبيضين مع نضوج (جريبات دوغراف) وتكون الدورات الطمثية الأولى غالباً لا إباضية أي لا تحدث فيها الإباضة.

أما عند الفتى فتبدأ دلالات البلوغ منذ عمر ١١ سنة وأولها هو تضخم الخصيتين، ونضج القنوات المنوية وتمايز العناصر المنوية لِتُكوِّن المني الذي لا يكتمل إلا بعد مضي ٣ سنوات على الأقل. أما الخصائص الجنسية الثانوية فتكون بنمو حجم القضيب، وظهور شعر العانة ثم شعر الإبط، ويتميز الفتى بنمو الشعر في كل أنحاء الجسم، وتختلف هذه الظاهرة باختلاف الأفراد والأعراق.

يبدأ التطور نحو البلوغ بفضل مجموعة معقّدة من التأثيرات التي تحدث على مستويات متعددة، ضمن تسلسلٍ وتكاملٍ واضحين، بحيث تصيب تحولات البلوغ كل أنحاء الجسد، وأكثرها بروزاً على الجهاز التناسلي والهيكل العظمي والعضلات والنسيج الشحمي والجلد.

(الخصائص الجنسية الثانوية تتمثل في التغيرات الجسمية التي تحدث لكل فتى وفتاة في هذه المرحلة، والتي تعطي لكلٍ منهما الشكل المميز للراشد من جنسه، فبالنسبة للبنات يتركز الدهن في أجزاء معينة من الجسم خاصة عند الأرداف وفي الثديين، ويستدير أعلى الفخذ ويظهر الشعر على العانة وتحت الإبط كما يظهر شعر خفيف على الذراعين والساقين وعلى الشفاه العليا أيضا، ويخفض الصوت ويعمق. أما بالنسبة للفتيان فينمو شعر الذقن والشارب ويغلظ الصوت ويخشن ويظهر الشعر على الذراعين والساقين وينمو الشعر على العانة وتحت الإبط وأعلى الصدر) [٢].

يبدو دور الغدد الصم رئيسياً وأهمها هي الغدة النخامية بفصها الأمامي التي تفرز هرمون النمو الذي يثير عمليتين هامتين بالنسبة للبلوغ؛ الأولى هي تركيب البروتينات الضروري لنمو الجسد، والثانية نمو الهيكل العظمي المرتبط بنمو الأنسجة الغضروفية.

تعمل الغدة النخامية على الغدد الصماء الأخرى مثل الغدد التناسلية كالخصيتين والمبيضين وهي التي لها الدور الأساسي في فترة البلوغ، وكذلك على الغدة الدرقية التي تفرز هرمون التيروكسين الذي يؤثر على كافة الأنسجة، وغدة الكظر التي تفرز الأندروجين (هرمون الذكورة) أثناء البلوغ عند كلٍ من الفتى والفتاة.

لا ننسى دور الجهاز العصبي وقسمه الأهم وهو ما تحت السرير البصري الذي يضبط عمل الغدة النخامية، وله تأثير في المفعول الارتجاعي (feed-back) الذي يُوفّق بين إنتاج الهرمونات وكبح إفرازها.

خلال فترة البلوغ تُفرز المبايض هرمون الاستروجين بكميات متزايدة، وهو الهرمون الأنثوي المسؤول عن غالبية الخصائص الجنسية الثانوية مثل نمو الثديين وتوزع النسيج الدهني في الجسم، وتطور الرحم، وتبدلات الأقنية، والشفرين

الصغيرين، والفرج، والغشاء المخاطي المهبلي بينما تخرج من المبيض نسبة ضئيلة من هرمون التستوسترون وهو هرمون الذكورة المسؤول عن نمو شعر العانة وزيادة حجم البظر ونمو الشفرين الكبيرين، وإفراز الغدد الدهنية وحب الشباب وبداية الشعور بالرغبة الجنسية.

عند الفتى تثير الهرمونات النخامية غدة قشر الكظر والخصيتان التي تُكَوِّن هرمونات الذكورة (الأندروجينات) وهي المسؤولة عن التحولات الجنسية كالأعضاء التناسلية ونمو العضلات وتوزع الشعر. ويكون شعر العانة مختلفاً عند البنت والصبي لأنه يكون ذا منشأ كظري عند البنت بينما هو ذا مصدر مختلط خصوي وكظري عند الصبي.

إن توقيت حدوث البلوغ يخضع لعوامل شتى منها الناحية الوراثية والفروقات العائلية والعرقية، وكذلك المحيط البيئي وأحياناً الحث المبكر.

النمو الجسدي:

يتسارع النمو الجسدي أثناء البلوغ ثم يتباطأ إلى أن يتوقف نهائياً. وتبدو طفرة النمو العظمي واضحة حيث تتضخم الغضاريف في المشاشات بحيث تكون ضرورية لإنتاج نسيج عظمي متكلس.

يقوم هرمون النمو بإثارة النشاط الزائد لهذه الغضاريف. كما تتدخل الهرمونات الكظرية عند الجنسين في هذا النمو، فمنها ما يدعمه ومنها ما يكبحه، وبينما تلعب هرمونات الأنوثة دوراً ضئيلاً أو معدوماً لدى البنت، فإن هرمونات الذكورة يكون لها التأثير الأكبر عند الصبيان.

للغدَّة النخامية إذن دورٌ هام في هذا النمو العظمي فقد تَبيَّن أن استئصالها يُضعفه، ولكنه مرتبط قبل كل شيء بالهرمونات الجنسية، فالغضاريف تلتحم قبل أوانها في حالات البلوغ المبكر.

تساهم جميع أجزاء الهيكل العظمي في تحول العظم الذي يحدث في مرحلة البلوغ، ومن هذه التغيرات النسبة بين الكتفين والحوض، فعند الولد يكون الحوض أكثر ضيقا بوضوح من الكتفين، بينما عند البنت يتسع الحوض ويتقعر مع تقعر عظم العجز.

إن العملية المميزة لمرحلة النمو العظمي هذا هو الالتحام التدريجي لغضاريف الاتصال التي يمكن بواسطة التصوير الشعاعي متابعة مراحلها.

تكبر عظام الجمجمة نسبياً أقل مما يحصل في بقية الجسم، تكون نسبة الرأس إلى مجمل القامة ١/ ٧ في سن ١٦، في حين أنها كانت ١/٦ في العام التاسع.

أما من ناحية الوزن فيتعرض لقفزة هامة كالعظم، تظهر عند البنات قبل الصبيان، وتنتج هذه الزيادة عن النمو الذي تخضع له كل أجزاء الجسم بما في ذلك الأحشاء. وذلك بسبب نمو الألياف العضلية والعظمية. وتنمو العضلات بشكل أوضح عند الصبيان، وسوف يشكل هذا النمو العنصر الأساسي في اكتساب الوزن. أما النسيج الدهني فهو ينمو عند غالبية الأولاد بشكل منتظم من الثامنة حتى سن البلوغ. وعند مرحلة طفرة النمو تخف هذه الظاهرة بحيث يحدث نقص في النسيج الدهني عند الولد بعكس البنت. ويختلف توزيع النسيج الدهني بطريقة مختلفة بين الذكور والإناث، إذ يتكثف عند الإناث في الجزء السفلي من الجسم بينما يكون أكثر توضعاً في البطن والكتفين عند الذكور.

(ويشعر كثير من المراهقين بالخجل من جراء سرعة النمو الجسمي خاصة وأن النمو في البداية يكون غير متناسق، ويعمد المراهق إلى إخفاء ما يعتقد أنه يسيء إلى مظهره الذي تعود أن يراه الآخرون فيخفي يديه ويمشي أحيانا وهو منحني الظهر خجلاً من طول قامته، وخاصةً إذا كان أطول من أقرانه بكثير، كذلك تشعر الفتاة بالحرج عندما تجد أجزاء من جسمها تكبر وتبرز بصورة ملفتة للنظر ويزداد

حرصها إذا جرت أو إذا سارت مسرعة، كما قد تتبع بعض الفتيات نظاماً غذائياً معيناً خاصاً توهماً منهن أن ذلك يقلل من حجم أردافهن، ومن الأمور التي تقلق بال المراهق أن النمو لا يسير متوازياً فلا يبدو أن هناك تناسقاً في جسمه وقد يضايقه ظهور بعض البثور على وجهه. كذلك تكون حركة المراهق خاصة في أول المرحلة غير دقيقة، ويمكن أن يصطدم أثناء سيره بقطع الأثاث كما أنه غير دقيق عندما ينقل الأشياء من مكان لآخر وسرعان ما يشعر بالإجهاد لأقل مجهود يبذله، ويرجع ذلك إلى التغيرات العضوية وردود فعلها في جسمه، ولكنه يصل إلى التآزر والاستقرار التام في النمو الحركي في نهاية مرحلة المراهقة)[٢].

النمو الجنسي:

يُعتبر الجنس جانباً هاماً من جوانب نمو الإنسان عامة والمراهق خاصة حيث تكون نظرته إلى نفسه ونحو الآخرين وتصرفاته معهم متأثرة بالجانب الجنسي أو بالتربية الجنسية التي تلقاها من بيئته خلال طفولته.

ويعاني المراهق كثيراً من الصراعات بسب الاستفزازات الجنسية التي تثير دوافعه القوية الجارفة، ولا غرابة في ذلك، فالمراهقة تبدأ بالبلوغ الجنسي ولا تنتهي إلا عندما يستطيع المراهق أن يتحكم في هذه الدوافع ويُخضعها للمواصفات الاجتماعية.

يشعر المراهق بالدافع الجنسي في أول المرحلة شعوراً غامضاً، فقد ينجذب إلى الجنس الآخر وقد ينفر منه، وقد يراقبون بعضهم بعضاً إنما دون اهتمام، وقد يقوم المراهق بالاتجاه نحو أحد أفراد جنسه ويُنشئ معه علاقة صداقة تشوبها العاطفة القوية.

أما في الحالة الطبيعية فيتحول المراهق في وقت قريب إلى الجنسية الغيرية لينجذب إلى أحد أفراد الجنس الآخر ليقع في غرامه (وغالباً ما يختار الفتى المراهق فتاة من

سنه، أما الفتاة فهي تختار موضوعات تعلقها من أعمار أكبر من عمرها، وهو ما يضايق أقرانها من الذكور) (٢).

يغلب الطابع العاطفي الرومانسي على الدافع الجنسي في النصف الأول من المراهقة،(وينظر المراهق إلى محبوبته كملاك ويشحذ كل ملكاته الأدبية كي يعبر عن شعوره نحو ملاكه الطاهر، ولكنه مع تقدم النمو وازدياد احتكاك المراهق بالمجتمع والأصدقاء، وإدراكه للأمور على حقيقتها تنزاح هذه الغلالة الرومانسية وتكتسب سمة واقعية، ويبدأ في النظر إلى محبوبته باعتبارها إنسان عادي به المحاسن والعيوب معاً) (٢).

بعد ذلك يبدأ الدافع الجنسي بالوضوح في النصف الثاني من المراهقة، فينغمس في النشاط الجنسي الذاتي (وهذا الفعل وإن كان شائعاً بين أكثر المراهقين وفي كل البيئات إلا أنه يزيد في تلك المجتمعات التي لا تتيح فرص النشاط الاجتماعي والرياضي والثقافي للمراهق. وتقل حدة الانغماس تدريجياً ويرجع ذلك إلى أن المراهق ينجح في إنشاء بعض الصداقات مع أفراد الجنس الآخر، وتأخذ معظمها طابع العلاقات العاطفية).(٢) أو أن السبب هو ميله إلى المثاليات وكونه يبدأ بمطابقة فعله مع قوله وظاهره مع باطنه، وليس كما هو الحال سابقا عندما يميل إلى انتقاد غيره بينما هو ينزع بنفسه إلى الظهور بمظهر المثالي.

ومن الجدير بالذكر أن الاتصال السيئ مع المحيط يؤدي إلى الانعزال والتقوقع على الذات، (وإلى التوحد في الانطواء النرجسي وإلى حالة من التقوقع واضحة تسهل وتستدعي ممارسة الاستمناء التعويضية. يرى الولد في ذلك تحديا للكبار ووسيلة للمساواة معهم، والتدليل على رجولته. ربما يكون هذا فعلاً العمل الوحيد الذي أُعطي له ليتممه. دون شك يسبب الاستمناء شعوراً بالذنب يزيد في صعوبات الاتصال الاجتماعي ويرسي تبعاً لذلك حلقة مفرغة. يمكن أن يأخذ طابعاً عصابياً وقهرياً عندما تكون الموانع قوية جداً، وعندما تزيد التهديدات التي لا مبرر

لها كالخصاء والعقم والجنون. ويمكن للأخلاقية الدينية والشعور بالخطيئة أن يضيفا إلى هذه اللائحة أفعالاً تعبر عن إماتة الجسد، واحتفالات طقسية تكفيرية تقود الصبي إلى حلقة لا نهاية لها من الخطأ. فالأنسب إذن، للتخفيف من الاستمناء، هو التأثير على المواقف التي تثيره، إذ تبدو طرق الكبت غير ناجعة لا بل خطرة)[11].

وكما يلج المراهق عالم الجنس لأول مرة فإن الأسئلة تزداد لديه، فيرغب في معرفة كل شيء عن الجنس والعلاقات الجنسية. وهذه الرغبة تدفعه إلى سؤال المراهقين الأكبر منه سِنّاً، علّه يجد إجابات عن أسئلته كما يبحث عن المعرفة في الكتب والمجلات ويهوى مشاهدة الأفلام الجنسية والصور الفاضحة للحصول على المعرفة من ناحية ولِلّذة التي يشعر بها كلما اقترب من المثيرات الجنسية، وهو ما يمكن أن يُطلق عليه الفضول الجنسي، وقد يحصل على معلومات خاطئة تشوه لديه مفهوم الجنس وتؤثر على سلوكه الجنسي وهنائه العائلي فيما بعد.

هناك فرق واضح بين سلوك الفتى الجنسي وسلوك الفتاة الجنسي، فبينما يكون تعبير الفتاة عن الحب أكثر رومانسية وعاطفية، نجد الفتى أقرب إلى إدراك الجانب الحسي من العلاقة بين الجنسين، (حيث يرى الفتى المراهق العلاقة بين الجنسين من خلال هذا الدافع، أو على الأقل فإن الدافع الجنسي يحتل مكانة واضحة فيها. أما الفتاة فهي أقرب إلى إدراك الجانب العاطفي من العلاقة حيث تأخذ لديها طابعاً رومانسياً معظم المرحلة) [2].

يحصل تحول في آخر مرحلة المراهقة بالنسبة للدافع الجنسي عند الجنسين فيأخذ شكلاً أكثر إنسانية ويكتسي بعواطف الحنان والحب والرعاية والرأفة (ويكون المراهق قد استطاع أن يسيطر على دوافعه بحكم نضجه الاجتماعي والانفعالي، بحكم المكانة الاجتماعية التي يكون قد حققها كطالب في المرحلة الثانوية أو الجامعية أو في مجال العمل. وهذا التطور للميل الجنسي ينسجم مع طبيعة مرحلة النمو التي وصل إليها المراهق حيث يكون على استعداد أن يتزوج ويُكَوِّن أُسرة.

وتكون دوافعه قد تشكلت بالصورة التي تخدم قيام الأسرة وبقاءها، ونلاحظ أن كثيراً من الفتيات يخطبن ويتزوجن في هذه المرحلة، ولكن عدد الفتيان الذين يستطيعون الزواج في هذه السن قليل إذا قيس بعدد الفتيات، نظراً لتأخر سن إتمام التعليم ولتأخر النضج الاقتصادي للفتى، وحيث أن تكاليف إقامة الأسرة مسؤولية الشاب بالدرجة الأولى، ولأن الثقافة تشجع على زواج البنات قبل البنين) (٢).

الفصل الثامن

الحب الإنساني والصداقة

إن غريزة حب الذات غريزة متأصّلة وفطرية في بني البشر، والغاية منها حفظ النفس والاهتمام بالحياة وتقديس هذه النعمة التي منحها الله لنا ألا وهي الروح، لكن هذه الغريزة موجودة في الإنسان والحيوان على السواء، وقد تزيد عن وضعها الطبيعي المقبول فتتحول إلى أنانية ونرجسية وأَثَرة، وقد تتحول إلى عبادة للذات بحيث يعتدي المرء على حقوق الآخرين من أجل أن يحقق رغباته الشخصية، لذلك كان لا بد من تعديلها بتنمية الفطرة الأخرى التي تحتاج إلى تربية ورعاية ألا وهي غريزة حب الغير، فهي ضعيفة شأنها شأن الرغبات الإنسانية السامية، ويجب على الآباء الاهتمام بإنمائها وتشجيع الطفل على تَملّكها وتَمثلّها.

وكلما تمتّع الإنسان بهذه الصفة من حبّ الغير، كلما عبّر ذلك عن مدى إنسانيته وصفائيته وتهذيبه وسموه. وليس أدل على ذلك من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: (**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**)، فيجب غرس محبة الآخرين في نفس الطفل منذ نعومة أظفاره، بدءاً من تعليمه حب إخوته في العائلة إلى حب جيرانه وأقربائه إلى حب زملائه في المدرسة، وكما يختلف الأطفال في مَلَكاتهم وقدراتهم فإنهم يختلفون في امتلاكهم لصفة مَحبّة الغير والإيثار.

وإذا لم تظهر في نفس الطفل وظهرت بدلاً عنها الأَثَرة والأنانية فيجب تعليمه إياها بالقصص والقدوة الحسنة وبطريقة تلقائية وغير مباشرة، ويتم ذلك حسب عمر الطفل فبينما تكون حكايات الحيوانات مناسبة لسن أقل من ٤ سنوات، وبعد ذلك يجب أن تتحول بعدها لقصص أبطالُها من البشر، ويرتفع مستواها مع ازدياد عمر الطفل من البشر العاديين إلى قصص الأنبياء الذين كانت محبتهم للناس وإضمار

الخير لهم تجعلهم يتحملون أذى أقوامهم، ومن أفضل القصص قصة يوسف عليه السلام مع إخوته وكيف قابل كيدهم له بالإحسان إليهم عندما تَمكّن منهم- وسنذكر أهمية هذه القصة في بحث التربية الجنسية والدين أيضا- وكذلك سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وكيف أنّ الله سبحانه أرسله رحمة للعالمين ووصفه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

تقبل النفس وتقبل الغير:

رغم أن حُبّ الذّات مفصول عن حب الغير، فهو ليس معاكساً له، إذ لا يمكن أن نحب غيرنا ونتقّبلهم بشكل حقيقي ما لم نحب أنفسنا ونتقبلها على علاتها، لذلك يجب أن يُشجع الطفل على تقييم ذاته بشكل إيجابي، وهذا التقييم يعتمد على درجة بلوغ المعايير والأهداف الشخصية، أو تقييم إنجاز الطفل بواسطة خبير، أو عقد مقارنات بينه وبين الآخرين، أو تلقّي الاستحسان والاستهجان الخارجي من الآخرين الذين يتم تقدير آرائهم بصورة شديدة، والانضمام لمنافسة ما، والخسارة أو المكسب.

(إن إحدى الطرق كي تقاوم هذا الاتجاه للاستخفاف بالذات هو بأن تطلب من الطفل مقداراً من التقدير الذاتي في كل عملية تقييم، فضلاً عن التعارض مع نزعة الطفل النقدية، ويمكن أن يُشجّع الوالدان الولد أو البنت أن يتضمن عنصرين آخرين مهمين بدرجة مساوية في تقييمه لذاته أو تقييمها لذاتها: الرغبة في تلقي الإطراءات والتي يتم تقديمها بصورة صادقة، والرغبة في تلقي التصديق على ما يفعله أو تفعله بصورة جيدة: "إننا نحترم حقك في نفسك فيما يتعلق بكيفية إنجازك، ولكننا نريدك أن تقيم الصورة كاملة، وليس فقط جزءاً منها، لقد كان جزء من لعبك جيداً، واضحاً بالرغم من أن محاولاتك لم تكن تتدنى، واستمريت كذلك وواصلت المحاولة في بذل قصارى جهدك، وأصعب وقت لتظل مستمراً هو عندما لا تبدو الأشياء ملائمة، وهذا لصالحك!" ويمكن أن ينتج احترام الذات بقدر ضئيل

عن التقييم النقدي المفرط للنفس، ويمكن أن يساعد الوالدان الطفل ليسترد هذا النوع من الاحترام المفقود بالإصرار على التقييم الذاتي المتوازن والذي لا يعترف فقط بالعيوب، ولكنه يعترف بالنقاط القوية أيضا) (٣).

إن الذي يعتاد أن يتقبل نفسه باعتدال، بأخطائها ونواقصها، ويعمل على تجاوز نقاط الضعف ويستفيد من نقاط القوة، سيكون أقدر على تقبل غيره وتطويرهم والاندماج معهم.

حب الناس:

إن حب الناس والعطف عليهم أبرز سمات العاطفة الإنسانية. من الضروري أن يتربى كل فرد من أي أمة كان وإلى أي عصر انتمى على حب الخير للجميع. فحب الناس أحد الأركان الأساسية للسلام العالمي والسعادة البشرية، وهو بعد رمز للتكامل الروحي الذي يحرزه الفرد.

يجب أن يتلقى الفرد درس حب الخير للجميع منذ الصغر، والوالدان اللذان يبذلان العطف والحنان لطفلهما يستطيعان أن يُفهماه كيف يحب الآخرين. أما الطفل الذي لم يَر عطفاً من أحدٍ أبداً ولم يذق طعم الحنان فإنه لا يفهم معنى للحب ولا يدرك هذه الحقيقة الروحية الطيبة أصلاً. إنه وجد في الحياة برودة وجفاء وتَزمّتاً وعقاباً، ولذلك فهو يسلك مع الناس بتلك الصورة أيضاً، ولذلك وبالتالي لا يجب أن ننتظر من فرد كهذا أن يكون محباً للناس.

إن العطف والحنان في الأسرة أساس التنمية الصحيحة لعواطف الطفل. وفي ظل المشاعر والعواطف فقط يمكن هدايته إلى الطريق المستقيم والحياة السعيدة، أما الطفل الذي حُرم من العطف والحنان فإن مشاعره تسير نحو طريق منحرف فيصاب بالقسوة والشدة، ويشعر بالتشاؤم والاستياء، وتشب في نفسه نيران الحقد والبغضاء، وعشرات من الصفات الذميمة الأخرى.

قوة الحب:

إن حب الغير يعتبر رمزاً للسمو النفسي والنضج الأخلاقي، وبدون هذه الخصلة لا يمكن أن يستتب السلام الداخلي في نفوس الأفراد ولا السلام الخارجي في المجتمعات ولا السلام العالمي في البشرية، وهذا ما نراه اليوم بعد أن عم الدمار في العالم كله نتيجة الحروب الناجمة عن حب التدمير والرغبة بالاستعلاء؛ لذلك يجب بناء هذه الصفة في الأطفال، وفاقد الشيء لا يُعطيه فمن افتقد الحب في طفولته لا يمكن أن يمنحه لغيره عندما يكبر.

كما يجب تشجيع المراهق على اكتسابها إذ يمكنه أن يستفيد من وقته الحر في تنمية فضيلة حُب الغير ليكون إنساناً بكل معنى الكلمة، وهذا يحتاج إلى مجاهدة وصبر وقوة إرادة، فالذي يُريد أن يتحرر من قيود الغرائز الحيوانية والشهوات النفسية ويتحلى بالصفات الإنسانية الحميدة، ينبغي عليه أن يبرز استعداداته المعنوية ويعتمد عليها ويوقظ في نفسه حس حب الغير والفضيلة حتى يستطيع بلوغ اللذات المعنوية والروحية ويشعر بالراحة والسرور عند أداء واجباته الإنسانية.

فالناشئ يحتاج إلى من يساعده في اكتساب هذه الصفة، (وغريزة حب الذات التي تعتبر قاسماً مشتركاً ما بين الإنسان والحيوان لا تتطلب رعاية كبيرة أو تربية معينة بينما يحتاج الخُلق الإنساني وحُب الغير إلى رعاية وتربية كبيرة. إن إشباع الغريزة الجنسية بشكل عشوائي وهو من الصفات الحيوانية لا يحتاج إلى مرب أو مرشد، إلاّ أن التحلي بخصلة العفاف الإنسانية يتطلب سعياً وتربيةً أكيدة. كما أن استخدام قوة الغضب ومحاولة الانتقام لا يحتاج إلى تربية بينما التحلّي بروح العفو والمسامحة يتطلب بالضرورة تعليماً وتربيةً. إن إشباع غريزة الحرص على جمع الثروة التي تعتبر من العوامل التي تبعث على الجمال الاجتماعي واللّذة المادية لا يحتاج إلى محُرك خارجي، لأن الإنسان يسير تلقائياً نحو ذلك، أما أن يصبح الإنسان الثري محباً للغير منفقاً بعض أمواله على الأيتام وأن يساعد المرضى والفقراء والمحتاجين فذلك يتطلب محركاً خارجياً) (٧).

إن الإنسان بطبعه يحب المسرات ويعشق الملذّات، وما يحركه في إشباع غرائزه ونزواته الحيوانية وشهواته هو رغبته في إصابة اللذّات لما يبعثه ذلك من سرور وبهجة في نفسه. فإذا ما أراد المربون أن يأخذوا بيد الناشئة نحو طريق الإنسانية ليكتسبوا صفاتها السامية، عليهم أن يعملوا أولاً على إيقاظ إدراكاتهم المعنوية كي يتفهموا أن طريق السعادة وبلوغ اللذّات لا تنحصر في إشباع الشهوات الحيوانية فقط، لأن إرضاء الميول الإنسانية النبيلة وتحقيق الرغبات الروحية شأنها شأن الغرائز الحيوانية تبعث على الالتذاذ والمسرة مع فارق أن اللذات الحيوانية سطحية وعابرة أما اللذات الروحية فثابتة وعميقة.

(إن المؤمنين الحقيقيين بالله سبحانه وتعالى يمدون يد العون إلى البؤساء ويُطعمون المساكين من منطلق حُب الغير وأداء الواجب الإنساني، وليس هدفهم من وراء هذه الخدمة الصادقة الحصول على مدح الناس وثنائهم إنما لذتهم في هذه العبادة هي رضا الله سبحانه. قال تعالى: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾(٧).

يجب أن نشرح للناشئ – المراهق بشكل خاص – أن الذي ينمّي البعد المعنوي في نفسه ويصبح إنساناً حقيقياً لا يمكن أن يكون أسير لذّاته المادية وغرائزه الحيوانية، لأن اهتمامه ينصب على اللذّات الروحية والإنسانية، ويستفيد من اللذات المادية بما يُرضي الله سبحانه وتعالى ويحفظ له إنسانيته.

وينبغي أن يُشجع على أن يُنظم برنامج حياته بما يتلاءم وتكوينه، ويطابق سلوكه مع مبدأ الخِلْقة والتكوين فيلتفت إلى شؤونه الروحية والجسمية ويهتم بأوضاعه المادية والمعنوية، دون أن يقمع رغباته الغريزية في سبيل تعزيز البعد المعنوي والسمو النفسي لديه، ودون أن يصبح عبداً ذليلاً لغرائزه، ضارباً بميوله المعنوية عرض الحائط من أجل إصابة اللذّات الحيوانية، بل يجدر به أن ينقاد إلى قانون الفطرة ونظام التكوين وأن يُشبع كل رغباته المادية والمعنوية دون استثناء ولكن

بشرط أن يُتمم ذلك وفق المقاييس الصحيحة ووفق التوازن المطلوب، وأن يهتم بالجوانب الغريزية والروحية في نفسه كلٌ في مكانه، ويسعى لأن يبلغ الكمال اللائق بها.

(فإذا ما تم التخطيط لأوقات الفراغ على الأساس ذي البعدين الإنساني والطبيعي في عالمنا المتطور اليوم، وإذا ما انصرف الشاب عن التفكير في غرائزه الحيوانية والمادية في ساعات فراغه، وخصّص جانباً منها لإشباع أمانيه الإنسانية وبلوغ اللذّات الروحية، وعمل بما يبعث على راحته وسروره بالاعتماد على الله تعالى وخدمة عباده فإنه دون شك سيعيش حياةً إنسانيةً شريفةً ونزيهةً، وسيبقى في مأمن من الطبيعة الوحشية وأخطار الجرائم المتفاقمة. أما إذا كان هدف الشاب من وقت فراغه ينحصر في اكتساب اللذات وإشباع الغرائز والشهوات متجاهلاً الأبعاد الروحية والمعنوية، فإنه يكون في طريقه نحو الوضاعة والانحطاط والسقوط، حيث الطبيعة الحيوانية ستتغلب عليه ويصبح على أتم الاستعداد لارتكاب أي نوع من الجرائم)[٧].

الصداقة:

الإنسان اجتماعي بطبعه، فلا يمكن أن يعيش بدون من يفهمه ويشاركه أحزانه وأفراحه، وتتبدى هذه الحاجة في كل عمر، فالطفل الصغير يتغير سلوكه عندما يكون مع أصدقائه إذ يشعر أنه شخص مهم كالكبار، وله عالمه المستقل بعيداً عن أهله، وذلك حق طبيعي ضمن نزوع الإنسان إلى الاستقلال منذ الصغر، لكن الصداقة التي يقيمها الطفل خارج محيط أسرته تكون عادة غريزيّة عابرة شأنها شأن الألعاب بالنسبة للطفل. ولن تستمر هذه الصداقة التي تكوّنت نتيجة الجيرة أو ما شابه ذلك بعد الفراق والانفصال، وغالباً ما يكون هذا النوع من الصداقة نابعاً من الميل إلى الاجتماع الذي يظهر عند الأطفال خلال المرحلة المتأخرة للطفولة، فيصبح حب الطفل للطفل أشبه ما يكون بالصداقة، وحب الطفل لمن هو أكبر منه سنا أشبه ما يكون بحب الولد لأبيه، أما في المراهقة فهذه الحاجة تتبدى بشكل أكبر.

إن علاقة الصداقة التي تنشأ بين الأطفال خلال سني الطفولـة تنحصر في محيط الأسرة ومن ثم المدرسة، لكن الأمر يتغير كلياً مع حلول مرحلة المراهقة وبدء نضوج الأحاسيس والمشاعر حيث يبدأ المراهق بالتعرف على من هم خارج محيط الأسرة والمدرسة، ويقيم معهم علاقات صداقة ليوسّع من علاقاته الاجتماعية. وعندما يختار المراهق أصدقاءه فنادراً ما يقيم علاقة مع طفل يصغره سنا أو شخص يكبره في العمر. فالمراهق غير مستعد لإقامة علاقة مع طفل غير بالغ ويعتبر ذلك لا يتناسب وشأنه، لأنه يعتقد أن مصاحبة من هم أصغر منه سناً تعتبر اعترافاً منه بعدم كفاءته، وهو بذلك يُهين شخصيته ويحط من قدره.

ويشعر المراهق بالغبطة والفرح إذا ما اختاره رجل ناضج صديقاً لـه، وذلك لما تمتاز به طبيعة الشاب من حب التسامي والتفوق، وهو يرى في هذه العلاقة دليلاً على نضوج شخصيته، إلا أنه لن يتجرأ على اقتراح الصحبة على من هو أكبر منه لأنه يشعر أن الشخص الناضج ليس على استعداد لأن يتخذه صديقاً ويحط من شخصيته وقدره. إضافة إلى أن الشاب يعتبر نفسه ساذجاً وقليل التجربة فيخشى أن يصدر عنه خلال فترة صداقته للناضج كلام أو عمل يثير سخرية الناضج واستهزاءه به.

يقول (موريس دبيس) في كتاب البلوغ مبيناً أهمية الصداقة بالنسبةللمراهق:

(إن لعلاقات الصداقة خلال مرحلة البلوغ وفترة المراهقة دوراً مهماً في بناء شخصية الإنسان لما تمنحه من تجارب للطرفين. كما أن هذا النوع من العلاقات يُساهم في قيام علاقات صداقة أكثر عقلانية تستند على الود والثقة المتبادلة خلال الكبر. ويعتقد البعض أن لهذا النوع من العلاقات قيمة عظيمة كونها تولّد في أعماق الإنسان الشعور بحب الإنسان. وثمة حقيقة لا غبار عليها تقول بأن هذا النوع من العلاقات يدفع بالإنسان إلى تجاهل نفسه قليلاً)

إن ما يحتاجه المراهق في مجال الصحبة والصداقة هو التوجيه الصحيح والإرشاد السليم لاختيار الصديق وتحديد أُطر الصداقة. وإذا استطاع الأبوان والمربون تبيان

مقتضيات مرحلة المراهق النفسية وتعريفه على حالته النفسية وإطلاعه على مخاطر رفاق السوء وأضرار التطرّف والتسرع في مسألة الصداقة وتحذيره بالمنطق والاستدلال من صُحبة المنحرفين والضالين، فإنهم يكونون قد عملوا بمسؤولياتهم تجاه المراهقين في هذا المجال وأناروا لهم طريق السعادة والفلاح.

والصداقة في مرحلة البلوغ تكون إما اختياراً أو تعصباً وغالباً ما تكون غامضة وغير واضحة، لكنها كثيراً ما تكون مؤثرة في شخصية المراهق الذي يحاول أن يستعيض عن الأمن المفقود في جو عائلته بعلاقاته مع أصدقائه، وكلما كانت صلات المراهق العاطفية والنفسية بعائلته مفكّكة العُرى كلما كانت صِلاته بأصدقائه وتأثره بهم أشد وأقوى.

وهذا أحد أخطار الصداقة لدى المراهق إذ إن الإنسان العاقل وصاحب التجارب لا يمكن أن يغفل عن احتمالات الخصام والخلاف مع صديقه لا سيما في قمة العلاقة بينهما، ومن هنا فإنه يتجنب الإفراط في الصحبة ويرسم حدود العقل والمصلحة. أما المراهق والذي ليس له من التجارب الكثير، فإنه ينقاد بسذاجة لأحاسيسه وعواطفه في اختيار الصديق ولا يفكّر قط بمستقبل العلاقة معتقداً أن العلاقة التي تربطه اليوم بالصديق هي علاقة أزلية لا يمكن أن تنتهي بأي شكل من الأشكال، كما أنه قد يتمادى في هذه العلاقة إلى الحد الذي يُصبح وصديقه كأنه روح واحدة في جسدين يُقلدان بعضهما بالملابس وتسريحة الشعر ويتبادلان الأسرار صغيرها وكبيرها، وتتضح سلبيات هذا الإفراط والتمادي في الصداقة حينما يتخاصمان نتيجة حادث عرضي، وتتحول الصداقة بينهما إلى عداء، حينها يلجأ كل منهما إلى كشف أسرار الآخر وفضحه انتقاماً منه.

(ويسعى المراهق أن يجد له صديقاً خاصاً به، يُبدي له مشاعره تجاهه من خلال تقديم الهدايا له، ويَسعد عندما يعلم أنه بات مخلصاً حميماً في نظر صاحبه. وغالباً ما يبرز إلى جانب ذلك ميل شديد لأن يصبح لهما اسم واحد وهوية واحدة، فهما

يسعيان لأن يكون لهما ذوق واحد، يقلدان بعضهما في تصفيف الشعر وفي الخط. إن الشاب اليافع يجعل من الشخص الذي يحبه ويعزه "أنا" مثالياً، فهو يريد أن يتصور صديقه جزءاً منه لا أن يتصوره شخصاً منفصلاً عنه، ولكن هذا التصور يزول فيما بعد وينمحي، وإذا ما نشب خلاف جزئي بين هذين الصديقين المثاليين الحميمين فإنه يبيد العلاقة بينهما) (٧).

هذه العلاقة طبيعية في حياة أكثر المراهقين، وهي تأخذ شكلاً عاطفياً، وتبدأ بالتحول والانعكاس من الجنس نفسه إلى الجنس الآخر مع نمو المراهق واستيقاظ الغريزة الجنسية لديه، ورغم أن الجنس مفصول عن الحب لكن ترافقهما معاً يؤدي إلى حالة تُسمى بالعشق.

(ثمة علاقة بين ظهور العشق ونمو الغريزة الجنسية خلال فترة البلوغ، وليس معنى ذلك أن هذه القوة المحركة هي التي تولد العشق، أو أن أياً منها يثبت وجود الآخر، لأن العشق الإنساني الطبيعي لا يمكن تصوره بعيداً عن تفتح الغريزة الجنسية. أما العاطفة وهياج الحب الذي يتفتح في الفترة ذاتها فهما قرينة ملازمة أخرى لتكون العشق، ولكن لا يمكن تسمية هذه العاطفة بالعشق، والعشق في الحقيقة هو نتاج لازمتين وقرينتين، وهو نوع من النشاط المميز الذي يصدر عن عاملي الغريزة الجنسية وهيجان أو فورة الحب، ويتغذى منهما. والآن يمكننا من خلال هذه التوضيحات التفريق بين الصداقة في المراهقة وبين العشق، فمصدر هذه الصداقة تلك العاطفة وفورة الحب، ومن هنا فهي تشبه العشق الذي يصدر عن نفس العاطفة أيضا) (٧).

المشاعر الحادة في المراهقة:

يبني المراهق وبدافع عاطفي علاقة صداقة بين عشية وضحاها دون تريث أو تفكير، ويتعمق في هذه العلاقة، إلا أن هذه العلاقة سرعان ما تتحول إلى حقد وعداء بالسرعة التي قامت فيها لسبب ما قد يكون تافهاً نتيجة شفافية طباعه

وحدة مشاعره. فهو خلال أيام الصداقة يذهب في إظهار حبه وعلاقته بصديقه إلى حد المغالاة وذلك بسبب انقياده لمشاعره الحادة التي لم يقدم على تعديلها، وخلال فترة القطيعة يذهب في إظهار حقده وعدائه لمن كان صديقه يوماً ما إلى أبعد الحدود.

لذلك فإن من واجب الوالدين والمربين أن يراعوا خصلة التأثّر السريع لدى المراهقين، ويتصرفوا معهم على أساس من الاحترام والتقدير. عليهم أن يلتفتوا إلى نقطة مهمة وهي أن عدم احترام المراهق وتحقير شخصيته يُوَلّد في نفسه روح القسوة والانتقام.

(إن الوالدين اللذين لا يهتمان بعواطف ومشاعر أبنائهما ويتصرفان معهم بقسوة ويقذفانهم بكلمات جارحة، يتسببان من حيث لا يشعران في معاناة أبنائهما. وينبغي أن يعلما أنهما يسوقان فلذات أكبادهما نحو الصفات السيّئة والأخلاق المذمومة) (٧).

وقد ينمو لدى المراهق الرغبة في الانتقام من أهله، أو ينصب ذلك الانتقام على نفسه فيأتي بتصرفات رعناء، وفي هذه الحالة لا يتحمل المراهق لوحده مسؤولية تصرفاته لأنه ما زال في طريقه إلى النضج، ويريد الناضجون أن يعاملوه كطفل صغير تارة وكبالغ كبير تارة أخرى، وهو نفسه محتار مع أي الفريقين هو. لذلك فإن على الوالدين مهمة صعبة هي تفهّم هذه المرحلة وخطورتها وأزماتها كي يستطيع ابنهما أن يتجاوزها بسلام.

الفصل التاسع

الحب عشق الجمال ونزوع نحو الكمال

يقول (أوسكار وايلد):(الجمال نوع من العبقرية، إنه لا يحتاج لتفسير، فهو من بين الحقائق العظيمة في هذا العالم، إنه مثل شروق الشمس، أو انعكاس صدفة فضية نسميها القمر على صفحة الحياة المظلمة).

حب الجمال فطرة في النفس البشرية:

يستطيع الطفل أن يفرق بين الجميل والقبيح إذا تُرك لفطرته السليمة، وقد يكون الجمال لديه ممثلاً بوجه أمه حتى لو لم تكن جميلة؛ ويختلف تذوق الجمال بين شخص وآخر، إذ يختلف ذوق الناس ومعاييرهم في الجمال اختلافاً كبيراً، وقد يتبع هذا النظرة الاجتماعية المحيطة، فمثلاً قبائل أفريقيا الوسطى تقيس جمال المرأة بضخامة جسمها، أما قبائل (البوكا) فتعتبر آثار الجروح على الوجه أو الجسم بأنها دليل على الُحسن والجمال.

كذلك يختلف تقييم الجمال والإحساس به من عمر لآخر، فقد تكون القيمة العُليا لجمال الوجه والجسم في الطفولة والمراهقة لتتحول إلى نظرة أكثر اعتدالاً مع نهاية مرحلة الشباب ودخول مرحلة النضج حيث تعلو قيم الجاذبية الروحية على قيم الجمال المادي. ومع بداية عهد الشباب تطوى صفحة الطفولة، ويدخل الإنسان مرحلة يتحسس فيها شيئا من المسؤولية ويتحمل أعباء بعضها، وقد يكون للتجارب الدور الأكبر في اختلاف النظرة إلى الجمال، فلا شيء يُعلّم كالصدمات واهتزاز المشاعر، وما أكثرها في مرحلة المراهقة.

وحب الجمال شيء فطري في النفس البشرية، وتبرز خلال مرحلة البلوغ صفتان بشكل طبيعي إحداهما تَفتُّح الغريزة الجنسية والثانية الشعور بحلاوة وجمال

الشباب؛ ومع أن الرغبة الجنسية تشكل بحد ذاتها عاملاً مهماً يرتكز عليه كل جنس لجذب الجنس الآخر حفاظاً على النسل البشري، إلا أن الله سبحانه قد جعل هذه الرغبة العنيفة تتوقف على حسن جمال الجنسين البشريين من الذكور والإناث.

تنمية حس الجمال:

رغم أن ميل الإنسان إلى الحسن والجمال هي رغبة فطرية، لكن من الواضح أن الشعور الفطري بالجمال لا يكفي وحده لتذوق وإدراك أنواع الجمال الطبيعي والفني، بل ينبغي تنمية هذا الشعور الفطري ليكون في ظل التربية الصحيحة أبعد آفاقاً وأدق تحديداً لجمال الموجودات.

ومن الممكن إلغاء هذه الفطرة وتربية الطفل على أن يرى القبيح حسناً، فمثلاً في أمريكا تُشجِّع بعض كتب القراءة المدرسية على تربية الطفل لبعض الحيوانات التي تَأنَف من قبحها الفطرة السليمة، ففي إحدى القصص نجد أن الطفل يربي صرصوراً داخل علبة كبريت، وفي قصة أخرى نجد أن الحيوان المفضل للطفل هو الوَزَغ، وفي درس آخر نجد أن الأم هي التي تعتني بغراب فتجعله الطائر المفضل لدى أولادها. وهذه الأمثلة كلها تدلنا على أن تشويه الفطرة بلغ مداه في المجتمعات الغربية، وهو مدخل للشذوذ في كل شيء بما فيه تقبل الشذوذ الجنسي على أنه شيء طبيعي ويجب تقبل الشخص الشاذ كأي فرد آخر في المجتمع، ولا عجب بعد هذه القصص التي تغرس في أذهان الأطفال القيم الباطلة أن نفهم كيف يتحول الجمال قبحاً والفطرة شذوذاً.

الإسلام والجمال:

يولي الإسلام قسطاً وافراً من الأهمية لمسألة الحسن والجمال، فقد أوصى معتنقيه بضرورة الاستفادة من الجمال الطبيعي والاستمتاع به، قال عليه الصلاة والسلام: (**إن الله جميل يحب الجمال**).

(من مظاهر الجمال التنوع، فلا نكاد نجد مخلوقاً يطابق غيره من أبناء جنسه، لا في عالم الإنسان ولا الحيوان ولا النبات ولا الجماد.. حتى الأزهار المتفتحة على غصن واحد في فصل الربيع تختلف إحداها عن الأخرى لدى الفحص الدقيق.. من جمال الله سبحانه أن يُبدع هذا النظام العجيب في المجرّات والنجوم والكواكب.. إن الشمس لا تقوم بدور حيوي فحسب، إنها تؤدي دوراً جمالياً، في شروقها وغروبها، وجلائها وغيابها، وظلالها المترامية على الأرض.. والناس تعرف عن القمر الجمال قبل أن تعرف حساب الشهور والأيام، والنهر المتدفق بمياهه يلفت الانتباه بجماله قبل منفعته، واختلاف الحيوان والنبات في البر والبحر آيات من الجمال للناظرين) (١٢).

وكما تحدّث القرآن الكريم عن جمال السماء والكواكب والنجوم والأرض، تحدث عن الزينة والتزين: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد)، وفي الحديث الشريف: (**إنكم قادمون على إخوانكم فأصلِحوا رحالكم وأصلِحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يُحب الفحش ولا التفحش**).

لكن لما كانت رغبة التجمُّل والتزيُّن تزداد في فترة المراهقة فلا بد من أن تخضع لمراقبة شديدة، ويجب إشباع هذه الرغبة بعيداً عن الإفراط والتفريط. فالإفراط في التزيّن له نتائج وعواقب سلبية وربما ساق الفتيان والفتيات إلى طرق تؤدي بهم إلى التعاسة والضياع. لذلك وجب لفت أنتباه الناشئين إلى أن جمال الإنسان لا ينحصر أبداً بالجمال الطبيعي والمصطنع، بل يتعدّاه إلى الجمال الأخلاقي والمعنوي الذي يُعتبر من الأركان المهمة والأساسية لجمال الإنسان، فالجمال الذي يليق به ويوصله إلى الكمال الحقيقي هو جمال العلم والأخلاق والصفات الحميدة.

إن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمه على عبده، ومن هذه النعم الجمال فالله سبحانه يُحب أن يكون ظاهر الإنسان جميلاً كباطنه، ومن هنا يمكن أن تتولد لدى

المراهقين الرغبة في الجمال المعنوي، دون أن نُنكر عليهم حب التجمُّل الظاهري، وبذلك ينمو لديهم حب الفضائل، خاصة وأن المراهق بطبيعته ينزع إلى المثالية ويعشق الصدق والأمانة والوفاء بالعهد وخدمة الناس، وينفر من الكذب والخيانة ونقض العهد، ومن هنا فكثيراً ما تبدأ مرحلة التدين بالظهور في سن المراهقة أو على الأقل التشبُّه بشخص يكون المثل الأعلى للمراهق.

وكما ذكرنا أثر وسائل الإعلام في تغيير مفاهيم المثل الأعلى والقدوة لا بد أن نذكر تأثيرها على معاني الجمال، حيث أصبحت القيمة العليا هي للجمال المادي، ولذلك فإن العبء يقع مُضاعفاً على الأهل، ولا يمكن أن تقوم الفضائل على التربية الفردية في البيت إذا لم تُدعم بتربية مماثلة في المدارس وفي المجتمع. وإذا كان من الجميل أن نسمع خبراً مفاده أن إحدى المدارس الابتدائية في بلد عربي أجرت مسابقة لملكة جمال المدرسة وحازتها الفتاة المحجبة، فإننا نتمنى أن تقوم المدارس بإعلاء قيم الفضائل الروحية والأخلاق إلى جانب إعلاء قيمة الحجاب الظاهري؛ إذ إن الحياة بين متناقضين أمر يوقع الجيل الجديد في حيرة كبيرة، فبينما ترى الفتيات على التلفاز ملكات الجمال وقد تُوِّجن لامتلاكهن الجرأة على الوقوف أمام كاميرات المصورين وأعين الناس شبه عاريات ترى في مدارسها أن المُتوَّجة هي المحجبة، فكيف نحمي أولادنا وفتياتنا من تغوّل العولمة دون أن تتكون في أنفسهم وأنفسهن ردود أفعال رهيبة تجاهها؟!

ما هو الحب؟

لنعبر عنه نحن الناضجين بالتساؤلات التالية:

الحب مطهرةٌ من كل الآثام... فلماذا يجعل بعضهم الحب إثماً؟!

الحب شلالات متدفقة وعطاءات ثَرّة وينابيع متفجرة، فهل هناك شيء أشد إعجازاً من معجزة الحب؟!

كيف ينشأ؟؟ وإذا كانوا يقولون وُلِد الحب.. فمتى كان جنينا؟؟!

وهل هو يولد طفلاً عاجزاً.... أم أنه يولد عملاقاً قادراً؟؟

وهل له شروط حتى يولد؟ وهل له مشارق كالقمر؟؟ وهل لا يغيب إلا ويريد أن يظهر؟!

كيف يقتحم حياتنا كأظرف لص عرفته البشرية.. ويسرق قلوبنا؟ كيف يجعلنا هناك ونحن هنا؟!

كيف يتسرب في دمنا؟ ويجري في عروقنا؟ ويعيد شبابنا؟ وينعش أحلامنا؟

كيف يتلبَّسنا؟؟ كيف يستعمر نفوسنا؟؟ كيف يستوطن آفاقنا؟!

كيف يمتد في أناملنا؟! كيف ينعكس على صفحة وجوهنا؟! كيف يشرق في ابتسامتنا؟!

كيف يجعلنا نتّحد مع الكون فنسمع أغاريد البلابل وزقزقات العصافير وكأنها تخاطبنا؟

كيف يترقرق في ماء النهر لطفا ويهدر مع موج البحر عنفا؟!

كيف يرسل هذا الساحر موسيقاه فتطرب لها دواخلنا وترقص به جوانحنا؟!

هل هو الحب حقاً من يفعل كل هذه المعجزات أم أنه استعداد لدى بعض البشر أن يخضعوا لتنويمه المغناطيسي دون بعضهم الآخر؟!

هل هناك من عجنته اليد الإلهية بماء الحب، فإذا لم ترتو روحه شغفاً وتحلق ألَقاً كان كالآلة الصماء وكالدابة العجماء؟!

لماذا تكون الروح مبعثرة مشتتة قبل الحب.. بينما تتلملم ذراتها ويتجمع شتاتها بسهولة بعده؟

هل هي أسرار الشِفرة الوراثية الروحية التي لا يتكامل ارتباط الفلقة فيها إلا بلقاء الفلقة الأخرى الدائرة السائرة على غير هدى... تبحث في لا وعيها عمن يشدها إلى الكمال؟!

أليس الحب هو عشق الجمال ونزوع نحو الكمال؟!

الإجابة على السؤالين الهامين:

هل الحب نزوع نحو الكمال؟

الجواب: ورد في الندوة (لأفلاطونsymposium) أن أحد الفلاسفة أخذ على عاتقه أن يُطلع أصدقاءه على سر قوة الحب، فكتب أسطورة مفادها أن الكائن البشري كان مكتمل الخلقة، ويتكاثر بالانبثاق أو التوالد اللاجنسي، وهو ما شكل تهديداً للآلهة التي قررت الانتقام من هذا الكائن؛ فشطره (الإله زيوس) إلى نصفين، وأصبح كل نصف مضطراً للبحث عن رفيقه، ليتم التناسل بواسطة الاتصال الجنسي. وإن كان لأسطورته تلك مغزى جنسي بحت، لكنه عرّف الحب في نهايتها بأنه الرغبة والسعي لتحقيق الكل واستعادته.

هل الحب مطهرة من كل الآثام؟

الجواب: يقول (تيودور رايك) في كتابه الحب بين الشهوة والأنا:

(كلنا عراة تحت ثيابنا، ولدينا اعتقاد أن أجسادنا العارية ليست جذابة، فنحن نعرف عيوبها: ضعفها المستتر أو بقعها المنفرة، ولكننا أيضاً عراة تحت الأقنعة التي نرتديها أمام الآخرين وأمام أنفسنا، ونعرف في لا وعينا ليس أننا نبلاء وحسب، بل أيضا أننا وضيعون، كما نعرف في لا وعينا كثيراً من الحقائق غير السارة عن أنفسنا. إن شعورنا بالإثم يحد من ثقتنا بالنفس. الأمر الذي يبرر شكوكنا بأننا غير محبوبين، وحين ننشد الحب، حين نريد أن نكون محط احتفاء وإعجاب، ونحن نفعل ذلك بصورة رئيسية لأن كوننا محبوبين يعني غفران أخطائنا ونواقصنا، سوء أفعالنا وجرائمنا التي نرتكبها في أفكارنا.

أن تكون محبوباً يعني: أن تكون لك قيمة مميزة، وأن تحظى بالغفران، وأن تنتمي. والرغبة في أن تكون مطلوباً هي من الحاجات الانفعالية الأقوى التي ترافقنا خلال حياتنا. إن كونك مطلوباً ومحبوباً يسكن الشعور بالإثم الفردي، ويؤكد مجدداً أننا غير متروكين وحدنا وغير مرميين جانباً. والحاجة الجديدة للاستجابة في الحب وفي الجنس يمكن ردها إلى نفس المصدر شأن النزوات المتجذرة في مآثر أخرى. فهي أيضا تنبثق من الإدراك اللاواعي ذاته لقصورنا والجهد المبذول للتغلب عليه. ذلك أن اقتناع المرء بأنه غير مرغوب يمنع تطور رغبته الخاصة. واعتقاد الرجال والنساء أنهم غير محبوبين يمكن أن يدفعهم إلى نكران كلّ حب.

إن فهم الأهمية المتزايدة للاستجابة وديناميات التماهي اللاواعي في التخييل والنشاط الجنسيين يتيح لنا صياغة قانون خفي يبدو أنه يتحكم بعمليات الجنس في زماننا. ثمة مطلب داخلي يدفعنا لأن نفعل للآخرين ما نتمنى أن يفعلوه لنا. ولا مناص من الاقتناع الراسخ أننا في الجنس أيضا لا ننال سوى ما نعطيه. وأنتم لا بد سمعتم وقرأتم عن "الجنس الفاتن" ولكن ما يعنيه ذلك ليس الدافع الجنسي الأولي الخام. فقدرة هذا الدافع على أن يكون فاتناً ومجيداً لا تتعدى قدرة عمليات الإطراح. والفتنة لا يمكن أن تنشر عبيرها إلا بتضافر الحافز الجنسي مع نزوات الحنان).

بما أن هذا الكتاب الذي اقتبست منه هذا المقطع الأخير هو برأيي أفضل الكتب التي تحمل تحليلاً لنفسية المحب والمحبوب وكيفية نشوء الحب، أرى أنه يستحق أن أُفرد له فصلا خاصا لأعرض أجزاء منه مع قليل من التصرف، رغم أن مؤلفه يقول إنها مجرد نظرية، لكنه في نفس الوقت يذكر أن له طابع التحدي، ومن تجاربي الخاصة ومن كل ما سمعت وقرأت وخبرت أرى أنها النظرية التي تستحق أن تُعتبر الأولى في تفسير نشأة الحب وطبيعته، وأقصد تحديداً الحب الانفعالي الذي يصاحب مرحلة المراهقة أو الشباب وليس مرحلة النضج والتي تُعَقْلِن الحب اللاعاقل أساساً،

فهذا النوع من الحب الأخير نقلتُ قوانينه في نهاية الفصل التالي، وكملحق مُترجَم في نهاية الكتاب أيضا، والذي يهمنا في التفريق بين الحب اللاواعي والحب الواعي أن الأول إذا لم يَتعقَّل فإنه لا يمكن من استمرار الزواج، بينما الحب العاقل هو الذي يمكن أن يكون أساساً لعلاقة متينة ضمن إطار الزواج.

الفصل العاشر

الحب وعلم النفس

أولاً: الحب ودوافع الأنا (الحب الانفعالي): [١٣]

مفهوم جديد للحب:

في موضوعات واسعة المنظر مثل موضوع البحث السيكولوجي في الحب، من المفيد أن تنسى كل ما تعرفه أو ما تعتقد أنك عرفته عنه، وأن تُلقي جانبا بما قرأته أو سمعته، وتُقارب المشكلة ببساطة كما لو أنها المرة الأولى.

ما هي الضرورة لأن أشعر بالغرام أو العاطفة تجاه شخص من الجنس الآخر؟ ما معنى هذا التوق الشديد؟ هل هو حيوي وضروري كالهواء وكإشباع الجوع والعطش؟ ألا يمكن للمرء أن يصرف العمر كله دون حب؟ الجواب: ليس الحب ضرورياً ضرورة إشباع حاجتي الجوع والعطش، وليس الحب ضرورياً ضرورة الجنس. قد ينكر الرومانسيون والشباب العاطفي ذلك، لكن الوقائع عنيدة جداً، وما لا يمكن إنكاره أن الحب خبرة لم يعرفها الكثير من البشر والأعراق، وإنما هو نتاج التطور البشري، بينما الجنس موجود منذ وُجد الإنسان على الأرض. (ولعل من المفيد التأكيد هنا على أنه ينبغي عدم الخلط بين الرغبة الجنسية الجامحة والغرام).

تم تجاهل الفرق بين الحب والجنس؛ بحيث ظهرا في أكثر الحالات كأنهما شيء واحد. أما الحقيقة فهي أنهما متباينان، ولكن التحليل النفسي الذي أسسه (فرويد) تعامل مع الظاهرتين على أنهما ظاهرة واحدة، ولم يحصل أي تقدم فيما يتعلق بتحليل الحب منذ أن أعلن (فرويد) أن الحب جنس مكفوف الهدف.

قد يكون سبب هذا الخلط بين الحب والجنس هو رغبة المرء في أن يكون محباً ومحبوباً في الوقت ذاته؛ لأن كل من يحب شخصاً يأمل بصورة واعية أو لا واعية أن

يكون محبوباً من قِبل هذا الشخص، وهذه الاستجابة لا تشكل شرطاً للعاطفة؛ لأنه كثيرا ما يكون الحب من طرف واحد كالشارع ذي الاتجاه الوحيد، وهنا لن يدوم الحب طويلا، بينما الرغبة في أن تكون محبوباً ما هي إلا المكافأة المتوقعة التي يتوقع المرء أن يكافأ بها على شعوره هو؛ أي نحن في إظهارنا الحنان والعاطفة نشير إلى ما ينبغي على الشخص الآخر أن يبذله تجاهنا. وبالتالي فإن حبك للآخر ليس طريقة وحسب لكسب الآخر لك وإنما هو هدفك أيضاً. وباتباعنا هذا الالتفاف نصل إلى الرغبة الأصلية. والانزياح من كون المرء محباً إلى أمنيته أن يكون محبوباً هو المقابل والكسب.

أي نوع من الإشكاليات هو الحب؟.

الحب إشكالية قيمة، أي أن ظاهرة الحب يستحيل تفسيرها ما دامت الفروق في القيمة غير محسوسة ومدركة، ولا تصبح ولادة الحب ممكنة إلا حين تضفي على شخص ما قيمة كبيرة تفوق القيمة المضفاة على أشخاص آخرين؛ فعندما تعتبر أن شخصاً ما مساوياً لك فكيف يمكنك أن تحبه أو تحبها؟ الحب لا يكون ممكناً إلا حين تعزو إلى شخص آخر قيمة أسمى من القيمة التي تعزوها إلى ذاتك، وحين تراه أو تراها – من نواح محددة على الأقل – بمثابة شخصية متفوقة عليك.

إذن الأساس الأول في هذه النظرية أن الحب لا يكون ممكنا إلا حين يتم تقييم الأفراد على نحو متباين، وبالتالي ظهر الحب متأخراً نسبياً في تاريخ النوع البشري، فالقدرة على تقييم البشر والحاجة إلى هذا التقييم لا تتواجد إلا بعد بلوغ طور معين من تطور الحضارة وتطور الأفراد.

الاستعداد الانفعالي:

كل المحاولات القليلة الجهيضة التي بذلها السيكولوجيون لتفسير ظاهرة الحب الرومانسي الغريبة انطلقت من موقع واحد، وهو أن الحب يولد عندما يشعر

شخصان من جنسين مختلفين بانجذاب أحدهما إلى الآخر. وبعبارة أخرى فإن الحب يولد عندما يلتقي الولد والبنت. ولكن إذا كان الحب يولد في هذه اللحظة فمتى كان جنيناً؟

الجزء الأهم من القضية هو الاستعداد، ويفسر بوجود منطلقات واضحة ومحددة لا بد أن تتواجد داخل هذا الشخص فتجعله مستعداً للغرام.

إن الغرام ينمو على تربة عدم الرضا عن الذات، وإن القلق والفزع والاستياء الملحوظ قبل بزوغ الحب هي أعراض ثابتة في سيكيولوجيا هذه الحالة، وهي طرف الخيط الذي يُفضي إلى هذه الإشكالية، فالحب فرار من الذات وترياق للنفور منها. إن فلان وغيره من الناس يريدون الابتعاد عن ذواتهم، وإيجاد ملاذ لهم في الحب؛ لأنهم تعبوا من كونهم أنفسهم. أما إذا كانوا راضين عن ذواتهم فإن الحب لا يمكن أن يمسَّهم.

إن حالتهم قبل أن يَفِد الحب إلى حيواتهم حالة حرجة لها طابع الأزمة الداخلية، وفي هذا الوقت تظهر مسألة القيمة؛ لأن الإشكالية التي يواجهها هؤلاء الأشخاص، مع أنهم لا يدركونها عادة، هي إشكالية التقييم الذاتي. تُرى، ما هو سبب عدم رضاهم عن أنفسهم؟ إنهم يشعرون بالإحباط بصورة لا واعية؛ إذ يقارنون ما هم عليه مع ما يتمنون أن يكونوه، وما أنجزوه مع ما يرغبون بتحقيقه.

إن سوء ظن المرء بنفسه، وعدم ثقته بها، والشعور بالنقص، والرغبة بذات أفضل هي خطوات تمهيدية ضرورية لتطور الحب، والذي هو محاولة لإعادة توطيد تقدير المرء لذاته. أما إذا كنا راضين عن أنفسنا فلماذا ننشد ذاتاً أخرى أفضل ونسعى خلفها؟

إن عدم الانسجام ضمن الذات مشروط بمقارنة لا واعية بين (أنا) الفعلي والشخص المثالي الذي نود أن نكونه، والذي هو أكثر وسامة، وأفضل، وأذكى،

وأشجع، وأكثر فعالية مما نحن عليه. وكل واحد تقريبا يخلق في أواخر طفولته صورة لمثل هذه الذات الأسمى والتي ندعوها مثال (الأنـا الأمثـل) "ego- ideal". وهـذه الذات الخيالية أو هذا الشخص الذي ليس نحن بل ما نود أن نكونه؛ وتُبيّن الخبرات التحليلية كيف تحل شخصية الحبيبة لاحقاً محل الرغبة بذات أفضل. فالمحبوب هـو بديل "substitute"، إنه الوريث لمثال الأنا، وقد انزاح من ذات خيالية إلى شـخص متخيل، يتثبت في النهاية علـى شـخص واقعي بخصـال "نـادرة في روعتهـا الفريـدة ومدهشة في تضافرهـا" وهكـذا فـإن الوقـوع في الحـب يعنـي أَسْـرُ صـورة متخيَّلـة capture of image فالموضوع تم إيجاده قبل أن يظهر؛ وكان واضحا في الاسـتيهام قبل أن يتواجد في الواقع. وليس ثمة حب من أول نظرة لأن كل شـيء كـان معـدّاً من الناحية السيكولوجية.

تضارب الإرادات:

عندما تتسع الشقة بين الذات والمثال، وعندما يزداد التوق إلى هذا المثـال، فإنهـا تكون اللحظة التي يبدو فيها موضوعاً واقعياً جديراً بعاطفتنـا، وخليقـاً بـأن يصبـح تشخيصاً لأحلام يقظتنا السرية. وقد تكون مزايا هذا الشـخص واقعيـة أو متخيلـة، فهذا التمييز ليس مهماً، ونحن جميعـاً نعـرف شـباباً تظهـر لهـم إوزاتهـم علـى أنهـا بجعات.

تظهر القيم المتفوقة لدى المحبوب جدّ جلية وطاغية بحيث أن نوعاً مـن الدهشـة العاجزة قد يكون هو الشعور الأول لدى الشـباب، إعجـاب لا يجـرؤ علـى مقاربـة الموضوع ويقصي المقارنة مع الذات. أما التفحص التحليلي النفسي لهذه الحالة فقـد يكشف لحناً لا واعياً مصاحباً لهذه "الثيمة"، لحناً من الحسد والتملك، رغبة بحيـازة الموضوع واستدماجه مع مواهبه الطبيعية إلى الذات. وقد يبدو غريباً أن يبـدأ الحـب بصورة لا واعية بمثابة حسد وغيرة، لكن ذلك لا يبدو بمثل هذه الغرابة حين نـأخذ في الحسبان ما سلف: الإحباط الداخلي لدى الشخص، الإحسـاس بنواقصـه وعـدم

جدارته، النفور من ذاته والرغبة بذات أفضل. إن الحب الذي لا يكل عن العطاء كان مرة وفي منشئه الخفي حافزاً للانتزاع، لحيازة وتملك مزايا الموضوع النفسية والجسدية. والحب هكذا هو التغلب على هذه النزوعات اللاواعية من الحسد والغيرة والشجع؛ محاولة ناجحة لتجنيب الذات مشقة هذه الانفعالات المتزايدة.

ولقد استبق (جوتة) هذا التبصر السيكولوجي حين قال: (في مواجهة التفوق الكبير للآخر ما من دواء سوى الحب)، وبالطبع فإن الغرام لا يشير إلاّ إلى مخرج واحد فقط من مخارج هذه الحالة الانفعالية المتوترة، وثمة مخارج أخرى بالطبع كالكراهية أو صرف الاهتمام.

عند التفحّص التحليلي لبدايته اللاواعية فإن الحب لا يبدو ذلك الانفعال السكّري العذب الذي تشتمل عليه حكايات الغرام، فثمة حسد وغيرة وتناول للموضوع بروح السَّلب (rapacity) واشتهاء ما هو للغير. يريد المحب أن يعانق محبوبته ويعاملها بحنان، لكن النزوعات اللاواعية الأولى هي الطمع ورغبة الاستيلاء عليها وامتلاكها، وتشتد هذه الدوافع وتصبح أكثر إلحاحاً إذا ما قوبلت بفتور واقعي أو مصطنع من قبل المحبوب، ذلك أن المحب لا بد أن يشعر بشدة التعارض بين موقفه الانفعالي وموقف الموضوع.

إنه الآن يشعر بالتوتر القائم من قبل في داخله بمثابة توتر بينه وبين الموضوع. وأؤكد أن هذا التوتر هو واحد من الشروط السيكولوجية لتطور الغرام، فمن دونه قد تثير المحبوبة كثيراً من الإعجاب والود والتعاطف والرفقة والانسجام، لكنها لا تستطيع أن توقظ مشاعر الغرام. هذا التوتر الخلاق هو بمثابة شرط مسبق لازم للغرام، لدرجة أن تجدده ودوامه هو الذي يحفظ هذا الأخير. أما حين لا يوجد مثل هذا التوتر الخلاق فإن من الممكن أن يكون هناك حافز جنسي ولكن ليس ثمة حافز للحب. إن الحب هو محاولة "لتجسير" الفجوة بين شخصين بيد أن الحاجة للجسر تؤكد على وجود هذه الهوة.

إن الخطوة التي لا يمكن تفاديها في تقدم الحب هي التحول عن الحسد اللاواعي الذي يجد فيه الهوى واحداً من جذوره. فإذا لم يختف الحسد فإنه يؤدي إلى مشاعر العداء. وهذا النوع من الحسد هو مواصلة لشعور مستمد من فترة الطفولة التي يعبر عنها الأطفال بعبارة (أنا أيضا). وهكذا فإن الطور التالي من التطور اللاواعي يتسم بالعداء تجاه الشخص "المحبوب". والعداء أو الكراهية هو سلف لا واع للحب على الرغم بالطبع من أن العاطفة قد لا تعقبه بالضرورة، ولعل من المفيد أن نتذكر أن هذا المفهوم الذي يبدو فيه العداء بمثابة السلف اللاواعي بالضرورة للحب، يفترق بصورة حاسمة عن فكرة التجاذب الوجداني ambivalence في التحليل النفسي.

بضغط من الحسد تجري محاولة مركزة للحط من قيمة الشخص المحسود، والذي هو محط إعجاب للإقلال من شأنه في أفكار المرء. وفي بعض الأحيان قد تتكلل هذه الثورة الانفعالية ضد ديكتاتورية شخص واحد بالظفر، ولكنها غالباً ما تكون محاولة عقيمة للحفاظ على حرية الشخص واستقلاله. وأحياناً لا يكون هناك سوى ترقب صامت بين الاثنين، كل منهما يُناور من أجل احتلال موقع أفضل، ويُناوش تحقيقاً لمنفعة، ويمكن مقارنة كُرّهما وفَرّهما بحركة الثنائي الراقص، فعندما ينقل الرجل ساقاً إلى الأمام تُبعد المرأة ساقها إلى الخلف والعكس بالعكس.

غالباً ما تخفق محاولة صرف الصورة (image) من استيهام المرء لأن قوتها أصبحت شديدة جداً، وإذن فإن هذه هي اللحظة المناسبة للقيام بهجوم مضاد وبالطاقة القصوى من النزوعات المعاكسة. وفي بعض الأحيان حتى الخوف من الوقوع في الحب يأتي متأخراً جداً، أشبه بشخص في زنزانة ينتابه الذعر إذ يفكر أنه موقوف.

إن أثر الهجوم المضاد العنيف هو كَنس كل المشاعر السلبية وانتصار الحنان والعاطفة، وسرعان ما يزول كل أثر يدل على أن الحب لم يُحرز نصره إلا بعد معركة مريرة في العالم السفلي.

جوهر الغرام:

يبدو الغرام، في أوجه وفي اكتماله، وكأنه يطمس كل الأطوار السابقة، ويمحو كل المصاعب والعثرات الموجودة ضمن "الأنا". فالرغبة برقي الذات، وبذات أفضل وأنبل تكون قد اختفت أو بالأحرى تحققت في الشخص المحبوب. لقد أصبح "الأنا" أخصب وأرحب، ولم يعد ضرورياً للمرء أبداً أن يكون كاملاً بذاته فموضوع الحب يظهر بوصفه تشخيصا للكمال. وما من سبب بعد لعدم الرضا عن الذات، بل على العكس فإن المحب يعتقد أنه"شخص محظوظ". ألم يحظ بكنز لا يستحقه؟ إنه باكتساب ذات أفضل، يمثلها الموضوع، يبدو المحب متفوقاً على نفسه. ويشعر أن بداخله ذخيرة عظيمة من القوة والطاقة لم ينتفع بها من قبل.

والسؤال الذي يهمنا هنا هو: هل يحل الغرام الإشكالية التي نغّصت حياة الفرد بصورة لا واعية؟ إن كان يفعل، فإننا ندرك أي إسهام عظيم هو إسهام الحب في السعادة البشرية. ولكن لو نظرنا أعمق إلى ما تحت السطح النفسي، فسوف نلمس أن انفعالات التملك والانتزاع قد غمرت ولكنها لم تطرد. فأهداف الحب يتم بلوغها بطريقة حاذقة من خلال نوع من التسوية السيكولوجية. ولقد قلت من قبل: إن عدم الرضا الداخلي عن الذات يتلاشى لأن المحبوب شغل مكان الذات الأفضل المرغوبة. وتم إشباع الرغبة بامتلاك الموضوع بواسطة الشكل اللطيف للغرام. كما بلغت نزوة الانتزاع هدفها. وعن طريق التفاف لا واع تحققت الرغبة في جعل الشخص المحسود والمثير للإعجاب ملكية خاصة. وفي هذا الوقت يتم الانسجام الصارخ لدرجة أن العاشقين يؤكدان أنهما ليسا شخصين اثنين أبداً وإنما شخص واحد وحيد. وفي هذا الاندماج النفسي تتكلل بالظفر النزوعات الخفية على الرغم من أنها الآن مغمورة. فهذه النزوات المهزومة تواصل وجودها على نحو خفي وتشكل حركة سرية بينما يحكم الحب. وهي مستعدة دوماً للظهور إذا ما ضعفت هذه الحكومة. وتتجلى قوتها حين يفشل الغرام، وحين يعاود الشخص عدم الرضا، عن المحبوب في البداية، ومن ثم عن نفسه.

علق الكاتب الفرنسي (بول جيرالدي) مرة أن قصة علاقة الحب "هي دراما معركتها مع الزمن" ويبدو أن الزمن يقف عادة في صف النزوعات المكبوتة وأن الغرام لا بد أن يفسد. وفي بعض الأحيان يبقى الحب على قيد الحياة بينما يتبخر الهوى. ويحدث تحول إلى الرفقة والصداقة، قد تبقى فيه من الغرام السابق أشد السمات نفاسة. وعند هذا الحد، فإن التوتر الخلاق، الذي انبثق منه الحب، يتضاءل إلى حده الأصغر. وبدلا من الشعور المشبوب فإن الثنائي الآن يرعى أحدهما الآخر، وهذا انفعال من نوع مختلف أكثر رسوخاً ودواماً.

إن ترافق الحب في معظم الحالات مع الرغبة الجنسية ليس له علاقة بطبيعة الحب ذاته، والكيميائي الذي يدرس التحام مادتين سوف لن يؤكد أنهما المادة ذاتها أو أن لهما نفس الخواص، فألفتهما لا يعني أنهما متطابقتين أو أن لهما الصيغة ذاتها. والحكم الخاطئ على الحب بأنه جنس مكفوف الهدف بناء على هذا الترافق الحميمي كان واحداً من الأخطاء القاتلة في التحليل النفسي، وسوف تكون مهمتنا هي أن نجد كيف حصل التحام الحب والجنس وما الذي سبقه، وما هي النتائج.

ويبدو لي أن ما وجدناه حول منشأ الحب وتطوره لا يترك مجالاً للشك فيما يتعلق بالاستنتاجين التاليين: ليس الحب متأصلاً في الحوافز الجنسية، وإنما هو نتاج لتطور الفرد، وخاصة للرقي بالذات واكتمالها.

الحب ارتكاس انفعالي على اشتداد الشعور اللاواعي بالحسد والجشع وما ينتج عنهما من نزوعات عدوانية وتملكيّة تجاه الموضوع. ومن الملائم أن نميز الحب الرومانسي بمثابته رغبة بالانتزاع أو حافزاً للتملك مكفوف الهدف.

سوف نهتم باثنين فقط من الأسئلة التي تستحق اهتمام السيكولوجيين. إن الترافق الصميمي للحب والجنس واضح جداً، ولقد وضع الجنس ويوضع على نحو ثابت في المقدمة من قبل المحلّلين والأطباء النفسانيين، بحيث غفلوا زمناً طويلاً عن

أن منشأ الحب هو التربة الداكنة لدوافع "الأنا". فقدوم الحب إلى الوجود كارتكاس لإرادة الانتزاع والهيمنة، اللتين يثيرهما الحسد والجشع سوف يسم طابعه إلى الأبد. والانتصار على قوى السلب هذه لا يعني أن هذه النزوات الجبارة قد هزمت وإلى الأبد. إنها تمضي تحت الأرض، ولكنها لا تكف عن عملها السري، ولابد من إرضائها وتسكينها من وقت لآخر. لا بد من عقد تسوية معها. وهكذا نجد خلائط عجيبة من الحنان والهيمنة، من الحب والقسوة، التحامات وتحالفات غريبة بين هذين الدافعين المتعاكسين، فهذان العَدوّان القديمان يتوصلان في بعض الأحيان إلى تفاهم على حساب موضوع الحب.

أما الإشكالية الأخرى فتتعلق بما للغرام من طابع هروبي، فلا ننسى أن في جذر الغرام كان ثمة هروب ناجم عن انعدام الأمن الداخلي وعدم الرضا، وأن الحب لم يصبح ممكناً إلا بالتغلب على هذا التنافر العميق. فالشخص لا يستطيع أن يحب ما لم يستعد شجاعته إلى حد معين. والحب يعيد الطمأنينة ويبني "الأنا" لكن الأمن المستحصل ليس أمناً دائماً.

قوة جديدة تدخل ميدان الجنس:

كيف دخل الحب ميدان الدافع الجنسي الخام؟ نحن نعلم أنه قدم من بلاد أخرى وأنه ليس من مواطني هذه الأرض. ليس جنساً مموهاً كما يؤكد غربيو التحليل النفسي، كما أنه لم يفد كضيف مُحتفَى به، وإنما عومل في البدء بمثابة متطفل بغيض. وبعض الأشخاص يرونه هكذا إلى الآن.

لا يمكن للحب أن يتطور في حياة الفرد إلا بعد بلوغ طور يتم فيه ليس تمييز الفروق الشخصية بين الأشخاص وحسب، بل وتقييمها أيضا. وهذا التقييم يقتضي حالة ذهنية متطورة. فالطفل الذي بلغ الطور الذي يقارن فيه نفسه مع غيره ويشعر بأنه أدنى منه ويحسده (أليست هذه هي شروط الحب الأساسية؟) لا يمكن أن يكون في مرحلة الطفولة الأولى. والجنس، الذي لا يميز القيمة الشخصية، يمكن أن

يستيقظ باكراً، أما الحب فلا. وغالباً ما يعلن المحللون النفسانيون أن التطور الجنسي الباكر علامة على توقد ذهني باكر. ولكنني أخالفهم الرأي، كما فعلت غالبا من قبل. فهنا، كما في كل مكان آخر، ينزع المحللون إلى خلط الحب والجنس. إن الاهتمام والنشاط الجنسيين الباكرين يعبران عن حالة الطفل التكوينية أو يمكن أن يكونا نتيجة للتنبيه الخارجي المفرط. ومن جهة أخرى، فإن الاستعداد الباكر للشعور بالعاطفة يثبت حقاً أن الطفل موهوب على نحو استثنائي، فهو يعني أن الطفل قد خبر باكراً وأدرك الفروق والقيم الفردية.

ما هي موضوعات الحب الأولى لدى الأطفال؟ غالبا ما تم تقديم الجواب بخفة وتسرع: الأشخاص الراشدون، الأهل، المربيات، المعلمون. لكن هذا الجواب هو واحد من تلك الأقوال الارتجالية التي لا تحتوي من الصدق سوى مقدار زهيد. وبالطبع فإن الأطفال يتعلمون التعاطف مع الراشدين الذين يحيطون بهم ويرعونهم. لكن عاطفتهم الحقيقية تتجه نحو أطفال آخرين.

أول موضوع حقيقي للحب لدى الطفل هو طفل آخر، يثير إعجابه وحسده وكراهيته، طفل واضح التفوق تماماً على الرغم – بالطبع – من عدم الإقرار بهذا التفوق عن طيب خاطر. وهذا الاكتشاف، بأن موضوع هذا الحب الباكر هو عادة من الجنس ذاته، لن يدهش المحللين النفسانيين الذين طالما أكدوا أن الجنسية المثلية هي واحدة من السمات المنحرفة العديدة للحياة الجنسية الطفلية. وعلى أية حال فإن وجهة نظرنا لن تريحهم كثيراً، ذلك أننا لا نشير إلى الجنسية المثلية، بل إلى العاطفة تجاه الجنس المماثل والتي هي ظاهرة مختلفة تماماً.

ومن السهل أن نفهم لماذا يتم اختيار موضوعات الحب الأولى من بين أطفال الجنس ذاته. فهنالك، بالطبع، التآلف في الطبع والمزاج بين الأولاد. إن لهم نفس الاهتمامات، ويشعرون بنفس المطامح ويلعبون نفس الألعاب. إنهم يتباهون بأنفسهم على المواهب ذاتها ويقدرون نفس الإمكانيات والبراعات والمهارات. أما

مع البنات في هذا السن فليس لدى الأولاد أي اهتمام مشترك معهن، بل يسخر الأولاد من الذي يلعب مع البنات ويدعونه مُخنثاً. ومن الإعجاب والحسد والتملك الذي يبديه ولد تجاه آخر، غالباً ما يتطور الحب الأول الخجول نوعا ما. ففي تغلبه على المشاعر السلبية الأصلية، يولع الولد الصغير بولد آخر أقوى منه أو أذكى أو أشد براعة. وهذه العلاقة ليس لها علاقة بالنشاط الجنسي، فالدافع الجنسي يمضي في طريقه الخاص، ومن الممكن تماماً أن يشعر ولد محدد بالعاطفة تجاه ولد آخر يثير إعجابه، وعلى هذا النحو يبدو الجنس والعاطفة منفصلين باكراً.

إذن كيف يظهر حب الجنس الآخر؟ هذا السؤال لايبدو وكأنه إشكالية بالنسبة لأولئك الذين يعتبرون الحب جنساً مكفوف الهدف، فهم يعتبرون أن الدافع الجنسي المكفوف يحيد باتجاه العاطفة. ولكن ذلك هو إشكالية بالنسبة لنا نحن الذين نؤكد أن الحب أمر مختلف. وإذن كيف يمكن للأطفال من الجنس الآخر أن يصبحوا موضوعات للحب؟ أليس ثمة فجوة بين الجنسين؟ ألا يفضل الصبيان رفقة الصبيان والبنات رفقة البنات؟

إن هذه الفجوة موجودة، والجهد السيكولوجي المبذول لتجاوزها هو حدث جديد في حياة الولد. ومن الواضح أن هنالك عاملين يتضافران في تأثيرهما. إن تغيرات البلوغ الانفعالية تزيد من قلق الولد. فهي تعمق عدم الرضا عن الذات وتعزز الرغبة في إشباع "الأنا" المضطرب، فضلاً عن تعزيزها الرغبة في تجاوز الذات. كما نجد في الوقت نفسه لدى الولد شعوراً بأن رفقة الأولاد الآخرين لم تعد تشبعه تماماً. لعلّهم يذكّرونه بنفسه إلى حد بعيد. ونحن نجد هذا التطور الانفعالي ذاته لدى البنات مع بعض فوارق قائمة على الميّزات الجنسية المتباينة. وهكذا فإن العامل الأول هو التوق إلى التخلص من الذات ومن الآخرين الذين يشبهونها كثيراً. ولهذا العامل طبيعة الإبعاد والدفع. وبعبارة أخرى، إنه نوع من النفور اللاواعي من الذات ومن العصابة القديمة.

أما من جهة ثانية فثمة جذب وشد، فالدافع الجنسي يدل على الطريق الذي يؤدي إلى موضوعات جديدة. وهكذا يتعاون عدم رضا الولد عن ذاته وعن أقرانه من نفس الجنس مع حاجات البلوغ المتزايدة ويغيران الاتجاه التي تتبعه العاطفة.

ما أشير إليه لا يعني إلا أن انقلاب العاطفة باتجاه الجنس الآخر يفسره جزئياً التأثير الذي يمارسه الحافز الجنسي المشتد عند البلوغ. أما منشأ الحب وطابعه فليس مشروطين أبداً بهذا التطور المتأخر. ذلك أن الرغبة العاطفية كانت موجودة قبل ذلك.

ما هي الخصال التي يعجب بها الولد لدى البنت؟ ما الذي يثير حسده؟ ما الذي يعجب البنت لديه ويجعلها "محبة غيورة"؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة لا بد أن تقدم لنا معلومات هامة جداً فيما يتعلق بتطور الغرام في تظاهراته الأولى. وأنا أقترح ما يلي: في الأصل: إن ما لدى البنت ويثير الإعجاب هو الجمال، أما لدى الصبي فهو القوة. أم أنه بالأحرى تضافر القوة والشجاعة هو ما يجذب البنت؟ إن الخصال التي تثير الإعجاب والحسد في البداية هي خصال فيزيائية، تتعلق بجسد الموضوع. ورويداً رويداً تحل محلها خصال أخرى. وعندها فإن الجمال لا يعود القيمة الوحيدة. ثمة رشاقة الحركة واللطافة والرقة وغيرها من الخصال التي تعبر عن شخصية الفتاة ويتم تقديرها حق قدرها. ويمكن تلخيص هذا التغير بالقول: إن الولد ينجذب في البداية إلى ما لدى البنت من أنوثة ومن ثم ما لديها من نسوية. وبالطبع فإن قوى الجذب من النوع الأول تواصل عملها بينما تتطور القوى الأخرى. والبنات اللواتي لا يثير إعجابهن في البداية سوى قوة الأولاد وشجاعتهم يبدأن بتقدير ما لدى الأولاد من عزم وذكاء، وتدهشهن قدرتهم الذهنية ونشاطهم وتثير حسدهن (ما الذي لا يفكر به ذلك الرجل؟ إنه يعرف كل شيء!) وهكذا فإن الشكل الجديد من الإعجاب والذي يتطور انطلاقاً من الإعجاب القديم هو انتقال من الانجذاب الناجم عن المظهر إلى انجذاب ناجم عن تقدير الشخصية.

أول البارحة:

آلاف عديدة من الكتب والمقالات كتبت حول تاريخ الحب. انتروبولوجيون ومؤرخون، سيكولوجيون وفلاسفة وعلماء من كل الأمم انشغلوا بهذا الموضوع بكل دأب وعناء، ومن بينهم أسماء مشهورة تماماً: "سبنسر، وسترمارك، فرويد، مولـلرلاير، فان دي فيلد"، وكثيرون غيرهم. ونحن نثمن عالياً فضائل هؤلاء البحاثة، لكن قيمة بحثهم آذاها مفهومهم عن الحب. فالحب مغاير للجنس تماماً في منشئه وطابعه فضلاً عن كونه منبثقاً من جذور مختلفة تماماً.

يمكن تمثيل الفارق بين تاريخ الحب وتاريخ الجنس، كالفارق بين عمل الأركيولوجي والجيولوجي، فالأول هو جزء من تاريخ الحضارة أما الثاني فهو جزء من العلم الطبيعي رغم أن الموضوعين يتداخلان في كثير من النقاط. لكنهما ليسا الموضوع ذاته، وكثيراً ما يحتاج الأركيولوجي إلى عون الجيولوجي، لكن منهجيهما متباينان تباين موضوعيهما.

طوال عصور أقام البشر المتواجدون على ظهر البسيطة علاقاتهم الجنسية وعاشوا حيواتهم دون حب، والإنسان البدائي الذي حظي بالمأكل والمأوى والنساء بمثابتهن موضوعات جنسية، لم يشعر بأي حافز للحب. لم يكن الحب حاجة حيوية، واستطاع الإنسان البدائي أن يحيا على نحو مُريح دون أن ينتبه إلى ما يُدعى بالغرام.

إن تاريخ الحب ربما كان مجرد حدس خاص، ولكن ثمة شيء محقق ولا يقبل الجدل: الحب أحدث سناً من الجنس بكثير.

لا أعتقد أن العاطفة تنجم عن العلاقة بين الجنسين، وإنما هي التحمت مع الجنس لاحقاً. ونحن نعد الحب بمثابة نتيجة لارتكاس انفعالي ضد الحسد الأصلي والغيرة والتملك، وبمثابة تغلب على نزوات العداء والجشع. ومثل هذه المشاعر لم توجد بين الجنسين في المجتمع البدائي إلى أي حد معتبر. لكنها برزت إلى الوجود بين

أعضاء الجنس الواحد. فبين الرجل والرجل كان ثمة نزاع وحسد وغيرة، كان ثمة إعجاب وطموح أن يكون واحدهما مثل الآخر المتفوق، وحتى هذه المقدرة على تمييز القيم هي طور متأخر من الحضارة. وهكذا فإن حقلها الأول لم يكن ملتقى الرجل والمرأة، وإنما البقعة حيث يلتقي أعضاء القبيلة الواحدة، وليس المكان السري للقاء اثنين.

وبعد زمن طويل تحول الحب من هذا الإعجاب الأصلي برجل آخر إلى ميدان العلاقة الجنسية. ولم تصبح مثل هذه النقلة ممكنة إلا عندما نشأ توتر بين الجنسين، وعندما جعل النزاع الحلَّ ضرورياً. وعندما تحولت النساء من أدوات للإشباع الجنسي إلى موضوعات للحسد والإعجاب. وهذه التطورات المقترحة تتساوق عموماً مع تلك التي نلاحظها لدى الفرد الذي تظهر لديه العواطف الأولى بين الأخوة والأقران الذين كانوا منافسين له قبل أن يصبحوا أصدقاء.

كانت المرأة في البداية مجرد موضوع جنسي للرجل ومعاوناً له في العمل. ولم يكن الاتصال الجنسي في البداية مختلفاً عن الاغتصاب، فالرجل كان ينقض على المرأة بضراوة ويسيطر عليها بالقوة. كانت ولادة الإنسان امرأة تعني حياة مشقة ذليلة.

ليس لدينا أي فكرة حول كيفية تغيّر العلاقات الجنسية وتلطفها وفقدانها لعنصر القوة، وتحت تأثير ماذا. لاشك أن هذا التغيّر يدل على ثورة في التطور القبل - تاريخي للإنسان. ثورة لطّفت الطابع الوحشي للفعل الجنسي الذي كان تعدياً عنيفاً أكثر منه اتصالاً جنسياً. ولم يكن الارتياح الجسدي ليترافق مع الحنان. وما يزال شيء من الضراوة والهمجية متبقياً من هذا الاتصال الجنسي شبه الحيواني حتى يومنا هذا.

وحتى بعد أن حصل تغيّر أساسي فإن العلاقة الجنسية لم تكن سوى إرضاء للدافع الجنسي الفج. لم تكن علاقة شخصية، ولم يكن بين الاثنين ما هو مشترك

إلى جانب الإحساس الجسدي الذي يدوم دقائق معـدودات. والتغيّرات التي أدت إلى إنقاص العنف في الجنس لم تُسهم أي إسهام في تشكيل التشارك الانفعـالي بـين الجنسين.

ويبدو أن هذا التغير الأول في طابع العلاقة الجنسية كان من فعـل النسـاء، ومـن المؤكد أن هذا التغيّر لم يحصل فجأة، ولكنه كان انتصاراً أحرزته النساء.

البارحة:

حصلت الثورة الثانية مع دخول الحب إلى الحيـاة الجنسـية أو مـع ولادة الغـرام، كما نقول اليوم. وكان هذا تقدماً على طريق الإنسانية بمثل أهمية تحرير العبيد. أنـا أعترف صراحة أن الفرضية التي سأقدِّمها ليست قائمة إلاّ على عديد من التبصُّرات المستحصلة من التحليل النفساني لرجال ونساء زمننا. وإني لأزعـم أن هـذا التطـور من فعل النساء. فقد علّمن الرجال الحب مثلما عَمِلْنَ من قبل على تلطيف الهمجية في التعبير الجنسي الذكري. وإني لأتخيل أن معاملة النساء في الحيـاة اليوميـة كـانت خشنة، وعلى الأقل لا مبالية، وإن الرجال كانوا يفضلون رفقة الرجـال، وينظـرون إلى النساء نظرة دونية ويعتبرونهن بمثابـة موضوعـات جنسـية ومعاونـات في العمـل وحسب. كان الرجال ينالون إشباعهم بمجرد الامتلاك الجسدي للنساء، ولم تتغـير الحياة الجنسية إلا بدخول العاطفة.

مـع الحـب جـاء إلى العـالم شـيء جديـد، تمكـن مقارنته بظهـور الإنسـان بـين الثدييات البدائية. ولا بـد أن بعـض النسـاء قـد تمـردن على اعتبـارهن بمجـرد متـاع للرجل، ولا بد أن ذلك خلق وضعاً أفضل لتـبرعم الغـرام. وباعتقـادي أن قلـة مـن النساء المتفوقات أو مجموعة منهن، قد خَلقن جواً انفعاليـاً في موقفهـن مـن الرجـال أثار توتراً وحسداً وإعجاباً نافراً كان بمثابة عنصر جديـد في العلاقـة بـين الجنسـين. فالنساء اللواتي كُن في البدء مجـرد موضوعـات للإشباع الجنسـي أو مجـرد ضحايـا

لحافز الرجال غيّرن الوضع إلى وضع صرنَ فيه موضوعات للتوق، ولم يعد الرجال يرغبون بهن جنسياً وحسب بل ويغازلونهن أيضا.

لقد شرعت النساء بالتمرد على رجالهن، وما عدن يستسلمن بحماقة وعدم اكتراث لرغبات الرجال الشهوانية، وأدرك الرجال أن النساء لم يعدن أدوات طيعة يعبثون بهن، وإنما صرن يبدين مقاومة تجاه القوة ولا يستسلمن لها إلا كارهات.

كان ثمة أمام الرجل طريقان مفتوحان لملاقاة هذا الوضع الجديد. إما أن ينال بالقوة ما بدأ يفقده من الإشباع، أو أن يسعى خلف نساء أخريات أكثر استعداداً للإذعان لرغباته، ولا شك أنه جرّب كلتا الطريقين، ولقد ثبت أنهما غير مشبِعين في نهاية المطاف، حتى ولو عملا على تسكين حوافزه الجنسية لبعض الوقت. وهكذا بدا استيهامه ينشغل بامرأة واحدة تتمنّع عنه، أو تمنحه نفسها بسبب قوته الجسدية وحسب، بسبب عنفه. وعندئذٍ تعلمت النساء الطريقة لإشغال خيال الرجل. ولقد تعلمن أن يقدمن ويحجمن بحيث رسخت صورة المرأة الواحدة التي تتمنع وأثبتت أنها أقوى من واقع النساء الأخريات الخانعات. وكان على الرجال أن يتعلموا سلوك الطريق الصعب كي يتمكنوا من جني العسل لا مزيداً من الخل، لكن دربهم إلى الحب كان وعراً.

خلقت المرأة وضعاً يشتمل على كل الإمكانيات الانفعالية لولادة الغرام. عبق الجو بالتوتر، والعداء والحسد، وبرفضها منحها نفسها، اكتشفت المرأة الشرط اللازم لخلق التوق عند الرجل. ولا بد أنه شعر أن بمقدوره إعادتها إلى الخضوع والطاعة والتغلب على ممانعتها ومقاومتها إذا ما قام بما تريده. كان الرجل البدائي في وضع بائس. إنه يذكرنا بوضع كثير من الأزواج والعشاق الشباب الذين هم اليوم في وضع مشابه لوضعه. فهم وقد استعدوا للقيام بما يُطلب منهم، لا يعرفون ما يتوجب فعله حين لا يطلب منهم فتراهم وقد سيطر عليهم العجز لافتقارهم إلى الشعور والحس تجاه الرغبات الصامتة.

وفي النهاية أصبح رفض المرأة للاستسلام إلّا بمشيئتها ضماناً لها ضد الخزي والعداء، وضماناً أن الرجل سوف يعاملها معاملة حسنة، وأصبح الحب والتقدير والإعجاب والتقييم العالي هو المنطلق الضروري من أجل الاستسلام لرغبات الرجل الجنسية. وأصبح رفض إغواءاته الجنسية إن لم يكن قد تعلّم بعد أن يحبها باعتبارها شخصاً، جزءً أساسياً من تكتيكات المرأة في المعركة بين الجنسين. وهنا بذرة الانفعال المشبوب الذي نلحظه اليوم وأرومة ما ندعوه بالغرام، وأود أن أشير - بكل تهذيب، بكل تهذيب- أن الحب، سواء كان خيراً أم شراً، هو من ابتكار السيدات وليس الرجال.

وهكذا فإن النساء كن شجاعات بما فيه الكفاية بحيث جازفن بكل شيء ليكسبن كل شيء، ولا شك أن دخول الحب إلى الحياة الجنسية قد مارس تأثيراً عجائبياً على تاريخ النوع البشري، شأن تأثيره على حياة أي رجل. لقد جاء كعنصر جديد ومسكر كي يرافق الإشباع الجنسي مرافقة جعلت التجربة الجنسية أعمق وأغنى وأسمى.

ثانياً: الحب العاقل وقوانين الحب: (١٤)

المودّة هي عملية يسعى من خلالها شخصان لتحقيق نموها الشخصي في إطار علاقتهما. وهذه العملية بحاجة إلى الصبر والجهد والعناء من أجل إنجاح هذه العلاقات الزوجية.

ما هو الحب الحقيقي؟

هو أن تختار شريكك بالضبط كما هو، وأن تنحي غضبك جانباً أثناء خيارك، وتحاول إكساب هذه العلاقة مذاق السحر بدلاً من التنقيب عن أسباب عدم جدواها، والحب هو أيضاً دعم ومؤازرة شريكك في جميع خياراته وحثه على تحقيق رغباته وكل أحلامه التي يتمناها.

الحب الصادق هو تقدير صدق شريكك، وتمني الخير كل الخير له. ولكنه ليس تحكماً أو امتلاكاً بل احترام أسلوبه الفريد في الحياة والثقة فيه.. وهو الشجاعة على قول الحقيقة خاصة عندما تظن أنه لا يمكن التصريح بها لسواه.

ويُقصد بالحب الحقيقي معرفة حدود ما هو مسموح لك به واحترام حدود شريكك، والتخاطب بدلاً من فرض الرأي، وطرح التساؤلات بدلاً من الانتقال سريعاً إلى النتائج، وهو يعني أيضا الوصول إلى قرارات مشتركة بدلاً من الشجار، والشجار بدلاً من الانفصال والتغلب على الخلافات وجرح المشاعر والإحباطات مع العلم بأنه يمكن التئام أي جرح من خلال الالتزام، ويعني كذلك البقاء حالما تريد إنهاء العلاقة واحترام التزامك باتخاذ قراراتك مع من وقع عليه اختيارك.

والحب الحقيقي الصادق يعني التركيز على من تُكِن له الإعجاب وسبب امتنانك له والتركيز على الحلول بدلاً من المشكلات والتركيز أيضا على شريكك وإعطائه الفرصة لمعرفة كيف تهتم به كل يوم، أي تقدير من تحب أن تتعامل معه كأمر مسلَّم به أو كقدر.

ويعني العيش دون أحكام بُغية إيجاد نوع من الأمان للتصريح بالحقائق، وأن تعيش مع شريكك كل يوم وكأنه اليوم الأخير في حياتكما، والرغبة في أن تكون ذاتك وأن تعيشا في تناغم معاً.

كيف تبدو العلاقة الحقيقية الصادقة؟ إنها تبدو كحقيقة وواقع، فهي تزدهر بالإخلاص وتتألق بالحقيقة، وتتميز هذه العلاقة بالمرونة، فهي تنحني أمام الاحتياجات والتغيرات المتقلبة لدى كل شريك، وتطيح بأية صعاب قد تصادفهما، ويلتزم كلا الشريكين بالعمل على تحقيق النمو والازدهار لكليهما طوال حياتهما، فبشكل مجازي هذه العلاقة تشبه الماس فهو يتلألأ كالبريق ويشع طالما أن قلبه صلب متين، فهو المحتوى والمجال الذي سينمو فيه الحب.

وبالطبع فإن هذه هي الصورة المثالية للحب، وتكمن المتعة الحقيقية والفرصة في الوصول إلى هذه الرؤية، فالحب قوة عارمة من شأنها أن تطيح بالصواب والحكم الصائب بينما يُعد الشعور بالحب الجديد من مُتع الحياة هو أيضا تحدياً، حيث تتذكر الحقائق الخاصة بكيفية الارتباط وسط شعورك بالخفة والدعة.

القانون الأول: يجب أن تحب ذاتك في المقام الأول

صلب علاقتك كلها هو علاقتك بذاتك، فمن شروط إيجاد رابطة حب حقيقية ناجحة مع شخص آخر أن تحب ذاتك أولاً.

القانون الثاني: أن يكون لك شريك هو خيارك

أن يكون لك علاقة مع آخر هو أمر متروك لـك. فلديك القدرة على جذب شريكك والدخول معه في العلاقة التي ترغبها.

القانون الثالث: الحب عملية تتكون من خطوات

التحول من "أنا" إلى "نحن" يتطلب تغييراً في المفهوم والطاقة؛ فالتحول إلى ثنائي حقيقي يعد تقدماً في حد ذاته.

القانون الرابع: تبادل العلاقات سيُنَمِّي الشخصية

إن ما تقيمه من علاقات هو بمثابة "مدرسة للحياة" تتعلم فيها أشياء عن نفسك وكيف يمكن لشخصيتك أن تنمو وتنضج.

القانون الخامس: التواصل يُعد أمراً جوهرياً

التبادل الصريح للأفكار والمشاعر هو قوام الحياة في علاقتكما.

القانون السادس: التفاوض أمرٌ مطلوب

سيكون هناك أوقات يتعين عليك وعلى شريكك مناقشة العراقيل التي تعترض

طريقكما. إذا فعلت ذلك عن وعي واحترام، ستتعلم كيف تحصل على نتائج تعود بالنفع على كليكما.

القانون السابع: علاقتك العاطفية ستكون عرضة لتحدي التغيير

لا تسير الحياة في خط مستقيم، وكيفية تعاملك مع تقلبات الحياة هي التي تحدد مدى نجاح علاقتك.

القانون الثامن: عليك أن تغذي العلاقة لتزدهر

قدِّر من تحب وستزدهر علاقتكما.

القانون التاسع: التجديد هو سر طول العمر

السعادة الدائمة تعني القدرة على إبقاء العلاقة متجددة وحيوية.

القانون العاشر: سوف تنسى كل ذلك لحظة أن تقع في الحب

أنت على علم بكل هذه القوانين بصورة متأصلة، والتحدي هنا أن تتذكرها عندما تقع في الحب.

الفصل الحادي عشر

الحب والدين

في هذا الفصل سأعرض دراسة الأستاذ "محمد إبراهيم مبروك" التي قدمها عن الإسلام والحب في موقع (إسلام أون لاين.نت)، ثم أعرض رأيا آخر مشابها للأستاذ "عبدالحليم أبو شقة عن مشروعية الحب قبل الخطبة، مع التجاوز عن الرأي المتشدّد الذي يمنع حدوث الحب بين الخطيبين وذلك في الحالة التي لا يرى الرجل خطيبته إلا يوم تُزَفُّ إليه، فكأن العلاقة بين الزوجين هي كأي علاقة جسدية يمكن أن تنشأ بين أيّ ذكر وأنثى، وكأن الزواج ليس مسؤولية كبرى تحتاج تفاهماً نفسياً وتوافقاً طبعياً وتكافؤاً ثقافياً. هؤلاء المتشددون لا يفهمون توجيه رسول الله ﷺ لمن سأله عن النظر إلى خطيبته فقال: (**انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**) والمقصود أن تنشأ بين الخطيبين مودة ومحبة وتفاهم ليشجعهما كل ذلك على المضي قدماً في خطواتهما نحو الزواج، وقد وجب التنبيه إلى هذا الأمر لما رأينا من ازدياد حالات الطلاق في بعض البيئات في مجتمعاتنا العربية، إذ تعتمد التقاليد العائلية والعادات الموروثة أكثر مما تعتمد الدين الذي يلبّي الفطرة ويؤكد على النظرة الشخصية في الجمال ويتفق مع العقل وحق الفرد في الاستقلال، فكثيراً ما يحصل الطلاق نتيجة أن العروسين لا يعرفان عن بعضهما شيئاً إلا من خلال وجهات نظر الأهل التي تكون مختلفة تماماً عن وجهات نظر الأبناء.

أولاً: الإسلام والحب:

هناك مفهوم شائع - لا يخلو من غرض عند مُروِّجيه - يربط بين الدين والجهامة، وبين الطاعة لله والحرمان من متطلبات النوازع الإنسانية. وكانت قضية العلاقة بين الرجل والمرأة من المحاور التي تمّتْ على مسرحها معالجة وبناء هذه الصورة القاتمة عن الدين الإسلامي السمح وتعاليمه.

وبغير تفريط أو إفراط، وفي مواجهة هذه الصورة القائمة أنقل هذه الدراسة لنكشف من خلالها عن موقف الإسلام من قضية الحب بين الرجل والمرأة، بل النظريات الفلسفية لأئمة المسلمين في تفسير دوافع الحب.

وهدف هذه الدراسة هو بيان حدود قضية استعصت على محاولات ضبط الضابطين، ووعظ الدعاة، ونصح الأبوين. هذه القضية هي قضية حقيقة موقف الإسلام من الحب العذري العفيف. فهل هذه القضية من المحرمات؟ وهل الإسلام - كدين يراعي الفطرة - قد قام بمصادرة المشاعر المُنَزَّهة عن الأغراض الحِسّية المادية الدنيئة غير المقيدة بضوابط الشرع الحنيف؟ وهل حقاً أنه أهملها ولم يولِها اهتمامه، أم أنه اعتبرها ورعاها وهذّبها، حتى تصير دافعًا للإنسان قُدمًا، لا مؤخرةً إياه إذا ما استعصت في استفحالها على الضبط، وتمادت في تحلّيها لحد الفجور؟

القرآن والسنة والحب:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: (**يا رسول الله في حجري يتيمة قد خطبها رجل موسر ورجل معدم، فنحن نحب الموسر وهي تحب المعدم، فقال رسول الله ﷺ: لم نر للمتحابين غير النكاح**) (قال الألباني: الحديث أخرجه ابن ماجه والحاكم والبيهقي والطبراني وغيرهم، وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، صحيح السلسلة الصحيحة، ٦٢٤، صحيح ابن ماجه).

وقال عمرو بن العاص: (**بعثني رسول الله ﷺ على جيش وفيهم أبو بكر وعمر، فلما رجعت قلت: يا رسول الله من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة، قلت إنما أعني من الرجال، قال: أبوها**) (رواه البخاري ومسلم).

قالت عائشة رضي الله عنها: (**أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت النبي ﷺ، فدخلت وهو مضطجع معي في مرطي، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة (تقصد السيدة عائشة)، وأنا ساكتة، فقال رسول الله ﷺ: ألست تحبين ما أحب؟! قالت: بلى، قال: فأحبي هذه**) (رواه مسلم والنسائي).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (**كان رسول ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ويقول: اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**) (رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (**قال لي رسول الله ﷺ: أريتك في المنام يجيء بك الملك في سرقة من حرير، فقال لي: هذه امرأتك. فكشفت عن وجهك الثوب فإذا أنت هي، فقلت: إن يكن هذا من عند الله يمضه**) (رواه البخاري).

قال الزهري: (**أول حب كان في الإسلام حب النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، وكان مسروق يسميها حبيبة رسول الله ﷺ**) (روى ذلك الإمام ابن القيم).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (**كنت مع النبي ﷺ فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار، فقال رسول الله ﷺ: أنظرت إليها؟ قال: لا. قال: فانظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئًا**) (رواه مسلم والنسائي والطبراني).

وعنه ﷺ أنه قال: (**إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل**) (رواه أبو داود والطحاوي وأحمد وابن ماجه).

وعن سهل بن أبي حثمة أنه قال: (**رأيت محمد بن مسلمة يطارد بثينة بنت الضحاك فوق أجران لها ببصره طردًا شديدًا، فقلت: أتفعل هذا وأنت من أصحاب رسول الله ﷺ؟! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا أُلقيَ في قلب امرئٍ خطبة المرأة فلا بأس أن ينظر إليها**) (الحديث رواه أحمد وابن ماجه والطحاوي).

وفي الصحيح كان مغيث يمضي خلف زوجته بريرة بعد فراقها له، وقد صارت أجنبية عنه، ودموعه تسيل على خديه، فقال النبي ﷺ: (**يا ابن عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثًا، ثم قال لها لو راجعته، فقالت: أتأمرني؟ فقال: إنما أنا شافع، قالت: لا حاجة لي فيه**) (رواه البخاري).

وقد قال الإمام ابن حجر العسقلاني شارح البخاري تعليقًا على هذا الحديث:

(فيه إن فرط الحب يُذهِب الحياء لما ذكر من حال مغيث وغلبة الوَجد حتى لم يستطع كتمان حبها، وفي ترك النكير عليه بيان جواز قبول عذر مَن كان في مثل حاله ممن يقع ما لا يليق بمنصبه إذا وقع بغير اختياره) (فتح الباري، ج ٩)

وقال الإمام الصنعاني في تعليقه عليه أيضاً:" ومما ذكر في قصة بريرة أن زوجها كان يتبعها في سكة المدينة؛ ينحدر دمعه لفرط محبته لها. قالوا: "يقصد العلماء" فيُؤخذ منه أن الحب يُذهِب الحياء، وأنه يُعذر من كان كذلك إذا كان بغير اختيار منه" (سبل السلام، ج: ٣، ص: ٢٧٨).

وفي الحديث الشهير جدًّا الذي روى فيه الرسول ﷺ قصة الثلاثة الذي آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم؛ فدعا الأول بما يعني تفانيه في خدمة والديه ابتغاء وجه الله فانفرجت الصخرة شيئاً لا يستطيعون الخروج منه. ودعا الثالث بما يعني أنه استثمر أمانة عنده فربحت أموالاً هائلة وعلى الرغم من ذلك رد الأمانة وما ربحت من الأموال الهائلة لصاحبها ابتغاء وجه الله. والذي يهمنا من هذه القصة الشهيرة التي رواها الرسول نفسه ﷺ ما يتعلق بالرجل الثاني. فبماذا دعا الله تعالى بصالح أعماله؟ قال الرسول ﷺ: وقال الآخر: اللهم كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إليّ، وفي رواية كنت أحبها لما يحب الرجال النساء، فأردتها على نفسها (أي أراد مواقعتها) فامتنعت مني، حتى ألَمّت بها سَنة من السنين (أي ضاقت بها الظروف لمصيبة أصابتها)؛ فجاءتني، فاشترطتُ لمساعدتها أن أعطيها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها (أي تسلم له نفسها)، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، وفي رواية فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله، ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه (أي لا تزل غشاء البكارة إلا بعقد الزواج)، فانصرفت عنها؛ وهي أحب الناس إليّ، وتركت الذهب الذي أعرتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة (متفق عليه).

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: "يا أمير المؤمنين إني رأيت امرأة فعشقتها، فقال عمر :ذاك مما لا يملك" (رواه ابن حزم بسنده في طوق الحمامة).

وقال عمر بن الخطاب أيضًا: "لو أدركتُ عفراء وعروة لجْمعتُ بينهما" (رواه ابن الجوزي بسنده). وعروة عاشق عذري وَعده عمّه بالزواج من ابنته عفراء بعد عودته من سفر للتجارة، ثم زوجها لرجلٍ من الأثرياء.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: مات عاشق، فصلى عليه زيد بن ثابت، وهو أحد كُتّاب الوحي، وجامع القرآن الكريم، فقيل له في ذلك، فقال: "إني رحمته" (رواه ابن القيم في روضة المحبين ونزهة العاشقين).

ويروي ابن حزم في طوق الحمامة أنه قد جاء من فُتيا ابن عباس في العشق ما لا يُحتاج معه إلى غيره حين يقول: "هذا قتيل الهوى لا عقل ولا قَوَد".

الأحكام العامة المأخوذة من النصوص:

- إن الحب شيء لا يُملك، وإنما هو أمر بيد الله، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يحاسبنا الله سبحانه على أمر يملكه هو ولا نملكه نحن؟!
- ورد لفظ الحب كثيرًا على لسان الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة: أي إنه لم يكن شيئًا يُعاب الحديث عنه.
- إن الرسول ﷺ أحب السيدة عائشة حبّاً مختلفاً عن باقي أزواجه من أمهات المؤمنين وأخبر عن ذلك أنه شيء يملكه الله سبحانه ولا يملكه هو ﷺ. إذن فالحب في ذاته ليس حرامًا ولا عيبًا ولا مرضًا ولا ضعفًا من وجهة نظر الإسلام؛ لأنه لا يجوز أي شيء من ذلك على الرسول ﷺ.
- إن الرسول ﷺ وجّه أصحابه عند "انتوائهم" خطبة إحدى النساء أن ينظروا إليها، وأن المقصود بذلك النظر المتتابع؛ حتى ولو كانت لا تعلم ذلك، فكان من الصحابة من يطاردها طردًا شديدًا، وكان هناك من يختبئ لها وراء شجرة.

• ومما لا شك فيه أن ذلك النظر المتتابع قد يؤدي إلى الحب من الطرف الناظر، وقد لا تتم الخطبة لظروف ما غالباً ما تكون رفض أهل الطرف الآخر. وربما تتم الخطبة فتدعم الحب لدى الطرف الناظر. وهناك فروض أخرى لا داعي للاستطراد فيها تؤدي إلى ألاّ يتم الزواج وينقض الموضوع كله. فهل في هذه الحالة يكون شعور الطرف الأول بالحب، وهو أمر لا يملكه، حراماً مهما كان مصير الطرف الآخر؟ لا يمكن أن يجيب عاقل عن ذلك إلا بالنفي؛ لأن الله سبحانه لا يحاسبنا على ما لا نملك.

• حديث مغيث وبريرة يحسم أمورًا كثيرة:

أولاً: الرسول ﷺ تعاطف مع المحب ولم ينهه عن حبه.

ثانياً: الرسول ﷺ بلغ تعاطفه مع المحب أن تشفَّع له بنفسه عند من يحب، وهذا أمر تثقل دونه الجبال.

ثالثاً: الرسول ﷺ لم ينه مغيثًا عن حبه لبريرة حتى بعد أن رفضت بريرة الزواج منه. أي إنه لم يُحرِّم حبه لها. وكيف يُحرِّم هذا الأمر وهو يقول عنه إنه لا يملك؟!

رابعاً: إن مغيثًا كان يمشي وراءها ويبكي، وليس من المعقول أنه كان يمشي وراءها مغمض العينين. إذن هو كان ينظر إليها، ويراها، ولم ينهه الرسول ﷺ عن ذلك، وهو أمر لم يتركه ﷺ إلا مع هذا المحب، وهو أمر يرتبط بالمحب ارتباطاً لاإرادياً؛ فلا يستطيع المحب أن يمر من يحبه أمامه ولا ينظر إليه.

خامساً: إن قول الرسول ﷺ لابن عباس: (**ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثًا؟!**) قول لا يكاد يكون له مثيل. أفلا يكون ذلك مستندًا لنا في أن الحب أمر عجيب وسر من أسرار الله تعالى؟! وسنعود إلى هذا الحديث في أمور أخرى إن شاء الله.

- ولأن الرسول ﷺ يرى أنه ليس للمتحابين مثل الزواج؛ فإنه ليس فقط يفضل للفتاة المسلمة خطبة المُعدَم الذي تحبه على الموسر الذي يريده أهلها، على نحو ما رأينا في أحد الأحاديث النبوية الشريفة، ولكنه في حديث آخر يهدر نكاح الأب الذي زوّج ابنته لشخص هي كارهة له. وإهدار الرسول لهذا الزواج يعني أنه جعله كأن لم يكن، وزوّجها ممن تُحب. ولو قلنا نحن هذا الكلام بعد أربعة عشر قرنًا مما فعله الرسول ﷺ لو قلناه فقط باللسان ولم نفعل ما فعل - مع أننا مأمورون باتباعهم والاقتداء بهم أساساً في مواقفهم من هذه القضايا الكبرى التي تصنع مصائر البشر، وليس بمجرد الاقتداء بهم في الأمور الشكلية فقط- لاتهمنا اتهامات نحن منها براء.

- قول الرسول ﷺ: (**الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**) (رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم) يقرر حقيقة قامت عليها النظرية الإسلامية في الحب في التراث الإسلامي كله، وهي حقيقة أن الحب يقوم على المشابهة الروحية بين المحب والمحبوب على قدر من الخلاف بين أئمة المسلمين في تفسير هذه النظرية.

- تفسير بعض السلف قوله تعالى إخبارًا عن المؤمنين: ﴿رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦) بالعشق، كما أخبر بذلك ابن القيم في كتابه "روضة المحبين ونزهة المشتاقين"؛ لأن العشق مما لا طاقة للعبد به -كلام فيه نظر؛ لأننا لو دققنا في الأمر لوجدنا أن المقصود ليس الحب في ذاته، ولكن وجود الحب مع الحرمان من المحبوب؛ لأن الأحاديث -كما ذكرنا في البند الثاني- أثبتت أن الرسول ﷺ كان يحب فكيف يتفق ذلك مع دعوة المؤمنين لله بألاّ يُحَمِّلَهُم ما لا طاقة لهم به، ولم يكن الله سبحانه ليحمل الرسول ﷺ ما لا طاقة له به؟!

إذن المقصود هو ألا يحملهم الله تعالى الحب مع الحرمان من الحبيب؛ فذلك هو ما لا طاقة للإنسان به. فليس هناك من يدعو الله سبحانه بألا يحمله الحب مع

وجود المحبوب، ولكن ألا يحمله الحب مع الحرمان من المحبوب. ولم تكن هناك مشكلة لدى مغيث في حب بريرة وهو زوجها، ولكن المشكلة أتت مغيثاً من استمرار حبه لها، وهو أمر لا يملكه، في الوقت الذي كان قد فقدها فيه.

- حديث عائشة (أريتك في المنام) يعني أن الرسول ﷺ أحب عائشة قبل أن يتزوجها.
- ذكرت الأحاديث عن المرأة أنها تحب وتريد أن تتزوج ممن تحب، ولا عيب في ذلك. وكلنا نذكر تقدم السيدة خديجة لخطبة الرسول ﷺ.

الحب والعبودية وأحكام أخرى متعلقة بالحب:

الحكم فيمن قال لمحبوبه: "أعبدك" فقد كفر. أما من قال له: أنا عبدك فهو على نيته فإن كان يقصد من ذلك أنه بمثابة المملوك له لم يكفر، وإن كان ذلك لا يتفق وعزة النفس في الإسلام. أما إن كان يقصد من قوله ذلك أن محبوبه إله وأنه عبد لهذا الإله فقد كفر.

وإن أطاع محبوبه فيما يخالف شرع الله مع اعتقاده ببطلان ذلك فقد عصى، وإذا أطاع محبوبه فيما يخالف شرع الله وهو يعتقد بصحة ذلك، أي أنه مقتنع بصحة تقديم ما يريده محبوبه على ما يريده الله فقد كفر. وعلى القارئ أن يراجع العلاقة بين تقديم طاعة الغير على طاعة الله بالشرك والكفر في رسالة العبودية للإمام ابن تيمية على وجه الخصوص وكذلك كتب العقيدة الأخرى، مثل:

*معارج القبول: لحافظ بن أحمد حكمي.

*شرح العقيدة الطحاوية: للعز الحنفي.

*فتح المجيد: لآل الشيخ.

وللحب أنواع مختلفة. ولا تعارض بين هذه الأنواع؛ بحيث تؤدي شدة هذا النوع من الحب إلى ضعف ذاك. فلا تعارض بين حُب الله سبحانه وأنواع الحب

الأخرى مثل حب ذوي القربى، وحب الإخوة، وحب العلم، وحب الحبيبة، بحيث يقال إن شدة حب الحبيبة تؤدي إلى ضعف حب الله تعالى أو حب العلم مثلاً، بل إن كل هذه الأنواع من الحب باستثناء حب الله سبحانه فروع من شجرة الروحانية. أما حب الله سبحانه فيعتبر بمثابة النبع الذي يغذي كل أنواع الحب الأخرى.

نظرية الفقهاء المسلمين في الحب:

أ - نظرية الإمام محمد بن داود في الحب:

يقول الإمام محمد بن داود في كتابه الزهرة: قد ذكرنا من أقاويل الشعراء في الهوى أنه يقع ابتداؤه من النظر والسماع، ثم نحن إن شاء الله ذاكرون ما في ذلك الأمر الذي أوقعه السماع والنظر؟ ولماذا وقع؟ وكيف إذ قد صح كونه عند العامة وخفي سببه عند الخاصة "عن النبي ﷺ أنه قال: الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"؟

ويقول شعرًا:

حملت جبال الحب فيك وإنني لأعجز عن حمل القميص وأضعف

وما الحب من حسن ولا من سماحة ولكنه شيء به النفس تكلف

وهو يرى أن الحب الحقيقي هو الذي "لا يرى أن يتعطف إلى سواه، ولا يطلب الراحة إلا عند من ابتلاه".

ويقول: لو لم يصبر المحب على امتحان محبوبه (يشير إلى ما ذكره من معاناة المحبوب لما يعانيه محبه) لكان ذلك حظاً جزيلاً ودركاً جليلاً؛ فكيف وحال الصفاء إذا ابتدأت بين المتحابين بالمشاكلة الطبيعية (يقصد المشابهة الروحية)، ثم اتصلت بالحراسة عن الأخلاق الدينية (يقصد عفة العاشقين عما يدنس حبهما)، ثم عذبت بالرعايات الاختبارية، ثم بلغت بهما الحال إلى حيث انقطعت بهما دونه الآمال؟

ب) – نظرية الحب عند الإمام ابن حزم:

يقول الإمام ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة": الحب أعزّك الله أوّله هزل وآخره جد. دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة [لاحظ النظرية الفلسفية في ذلك القول فهو لا يفترض إدراك حقيقة الحب عند من لم يعانِه، ومن ثم لا يجوز له الحكم عليه].

وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع. وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال. والشكل دأباً يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكن (أي كل شيء يسكن إلى نظيره)، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، والتنافر في الأضداد، والموافقة في الأنداد [أي إن الوفاق يكون بين الأنداد، وهو يقصد بذلك أن الشبيه يتجاذب إلى شبيهه].

ثم يوضح أنه لا يقصد بذلك المشابهة في الشكل أو الأخلاق ولكن في ذات النفس، فيقول مشيرًا إلى كلامه السابق: كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان وزوجه؛ فيسكن إليها. والله عز وجل يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فجعل علة السكن أنها من خلقه [لاحظ جيدًا مدى ما يستحقه هذا النص القرآني من تأمل]. ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحب الأنقص من الصورة [أي لا يحب الإنسان الأقل منه جمالاً]. ونحن نجد كثيرًا ممن يؤثر الأدنى [يفضل الأقل جمالاً]، ويعلم فضل غيره، ولا نجد متحيدًا لقلبه عنه. ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه [أي من لا يتوافق معه في الأخلاق والطبع]، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس [أي المشابهة في الجوهر الداخلي لنفس الإنسان].

وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب وتلك تفنى بفناء سببها [أي تنتهي بانتهاء سببها]؛ فمن وده لأمر ولى مع انقضائه(أ هـ).

ويعدد ابن حزم بعض ضروب المحبة وعلاقتها بأسبابها: محبة القرابة، ومحبة الألفة، ومحبة الاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق التي لا علّة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس. فكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها، فاترة ببعدها [أي أن كل هذه الأنواع من الحب تنقضي بانقضاء السبب المتعلقة به، وتزيد مع زيادته وتنقص مع نقصانه]، حاشى محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس؛ فهي التي لا فناء لها إلا بالموت [أي أنه يستثني من ذلك العشق الصحيح المتمكن من النفس، وهو يرى -وانتبه لهذا القول- أنه لا يفنى إلا بالموت].

ثم يقول الإمام ابن حزم: فصحب ذلك أنه استحسان روحاني وامتزاج نفساني. فإن قال قائل: لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية؛ إذ الجزءان مشتركان في الاتصال وحظهما واحد [أي أن هناك اعتراضًا يقول بأن بعض المحبين لا تتساوى محبتهم مع محبة من يحبونهم]. وللجواب عن ذلك نقول: هذا لعمري معارضة صحيحة، ولكن نفس الذي لا يحب من يحبه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية [أي معزولة عن حقيقة جزئها الآخر بما يحيط بها من تعلقات أرضية]، فلم تحس بالجزء الذي كانت تتصل به قبل حلولها؛ حيث هي لو تخلصت لاستويا في الاتصال والمحبة، ونفس المحب متخلصة [أي غير محاطة بالمتعلقات الأرضية التي تحجبها عمن تحب] عاملة بمكان ما كان يشركها في المجاورة [يقصد ما كان يشركها في العالم العلوي]، طالبة له، قاصدة إليه، باحثة عنه، مشتهية لملاقاته، جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد.

ومن الدليل على هذا أيضًا أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق في الصفات الطبيعية [أي الصفات الداخلة في تكوينهما النفسي]؛ لا بد من هذا وإن قل. وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة، وتأكدت المودة [أي كلما زادت المشابهة بين صفاتهما النفسية زاد التقارب وتأكدت المودة بينهما]. فانظر هذا تراه عيانًا، وهناك قول رسول الله ﷺ: (**الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**) (سبق تخريجه).

ولو توقف الإمام ابن حزم في نظريته عند حدود تفسير تعلّق أرواح المحبين بسبب المشابهة في ذوات نفوسهم؛ لاستطاع أن يكسب الكثير من الاطمئنان إلى نظريته، ولكان بذلك شديد القرب من النصوص التي يُستدل بها. أما حكاية أن الجزء كان متصلاً بالآخر قبل حلوله في عالم الأرض؛ فهو أمر لم يقدم أدلة عليه سواءً كان بالنقل (وهذا أمر عقائدي يجب الاستدلال عليه بالنصوص)، أو بالعقل.

ثم يقول الإمام ابن حزم: أما العلة التي توقع الحب أبدًا في أكثر الأمر على الصورة الحسنة [أي أما حكاية أن الحب يقع دائمًا على الصورة الجميلة]. فالظاهر أن النفس الحسنة تُولع بكل شيء حسن، وتميل إلى التصاوير المتقنة؛ فهي إذا رأت بعضها تثبتت فيه [أي إذا رأت الجمال تعلقت به]، فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها [أي إذا رأت وراء هذا الجمال شيئاً يتشابه مع صفاتها النفسية] اتصلت به، وصحت المحبة الحقيقية. وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة، وذلك هو الشهوة [أي إذا لم تجد وراء الجمال شيئًا يتفق مع صفاتها لم تتجاوز حبها الجمال الخارجي إلى ما بداخل النفس من صفات روحية؛ ولذلك يكون تعلقها اشتهاءً جنسيًا وليس حبًا].

جـ) نظرية الإمام ابن الجوزي في الحب:

يرى الإمام ابن الجوزي في كتابه "ذم الهوى" أن العشق شدة ميل النفس إلى

صورة تلائم طبعها؛ فإذ قوي فكرها فيها تصورت حصولها، وتمنت ذلك؛ فيتجدد من شدة الفكر مرض.

وهو يذهب إلى ما ذهب إليه سابقوه بالنسبة لنظرية المُشاكلة؛ فيقول: ذكر بعض الحكماء أنه لا يقع العشق إلا لمجانس، وأنه يضعف ويقوى على قدر التشاكل، واستدل بقول النبي ﷺ: (**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**).

فإن قيل: إذا كان سبب العشق نوع موافقة بين الشخصين في الطباع؛ فكيف يحب أحدهما صاحبه والآخر لا يحبه؟! فالجواب: أنه يتفق في طبع المعشوق ما يوافق طبع العاشق، ولا يتفق في طبع العاشق ما يلائم طبع المعشوق.

وإذا كان سبب العشق اتفاقاً في الطباع بطل قول من قال: إن العشق لا يكون إلا للأشياء المستحسنة، وإنما يكون العشق لنوع مناسبة وملائمة. ثم قد يكون الشيء حسناً عند شخص، وغير حسن عند آخر.

ويتأكد العشق بإدمان النظر وكثرة اللقاء وطول الحديث، فإن انضم إلى ذلك معانقة أو تقبيل فقد تم استحكامه.

د) نظرية الحب عند الإمام ابن القيم:

يقول الإمام ابن القيم في كتابه "نزهة المشتاقين": الداعي إلى الحب قد يُراد به الشعور الذي تتبعه الإرادة والميل؛ فذلك قائم بالمحب. وقد يُراد به السبب الذي لأجله وُجدت المحبة وتعلقت به، وذلك قائم بالمحبوب. ونحن نريد بالداعي مجموع الأمرين وهو ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبته، وما قام بالمحب من الشعور بها، والموافقة التي بين المحب والمحبوب وهي الرابطة بينهما.

فهاهنا أمور: وصف المحبوب وجماله، وشعور المحب به، والمناسبة: وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحب والمحبوب؛ فمتى قويت الثلاثة وكملت قويت المحبة

واستحكمت. ويكون نقصان المحبة وضعفها بحسب ضعف هذه الثلاثة أو نقصها.. فمتى كان المحبوب في غاية الجمال وشعور المحب بجماله أتم شعور والمناسبة التي بين الزوجين قوية؛ فذلك الحب اللازم الدائم. وقد يكون الجمال في نفسه ناقصاً لكنه في عين المحب كامل؛ فتكون قوة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فإن حبك للشيء يُعمي ويصم، فلا يرى المحب أحداً أحسن من محبوبه.

وقد يكون الجمال موفورًا، لكنه ناقص الشعور به فتضعف محبته له [أي قد يكون أحدهما ناقص الشعور بجمال الآخر فتقل محبته له]. وإذا وُجد ذلك كله وانتفت المناسبة والعلاقة التي بينهما لم تستحكم المحبة، وربما لم تقع البتة. فإن التناسب الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة فكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه. وهذه المناسبة [أي الشيء الذي يقارب بينهما] إما أصلية: من أصل الخِلقة [أي أصيلة متعلقة بنفسه] أو عارضة بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمر من الأمور [أي غير متعلقة بالنفس وإنما هي أمر خارجي اشترك بينهما]. فأما التناسب الأصلي فهو اتفاق أخلاق، وتشاكل أرواح، وشوق كل نفس إلى مشاكلها. فإن شبيه الشيء ينجذب إليه بالطبع؛ فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلق؛ فتنجذب كل منهما إلى الأخرى بالطبع.

وقد يقع الانجذاب والميل بالخاصية [بخصوصية معينة] وهذا لا يُعلّل ولا يُعرف سببه كانجذاب الحديد إلى الحجر المغناطيس. ولاريب أن وقوع هذا القدر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات. وهذا الذي حمل بعض الناس على أن قال: "إن العشق لا يقف على الحسن والجمال، ولا يلزم من عدمه" [أي لا يلزم من يفقد الجمال ألا يُحب]، إنما هو تشاكل النفوس وتمازجها في الطباع المخلوقة[أي تشابه النفوس في طباعها، وهذا أهم تحديد في سبب الحب عند الإمام ابن القيم]. وقد قال بعضهم لمحبوبه: صادفت فيك جوهر نفسي، وشاكلتها في كل أحوالها؛ فانبعثت نفسي إليك، وكأنما هويت نفسي.

فإذا كانت المحبة بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكنت ولم يزلها إلا مانع أقوى من السبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة [التشابه بينهما في الصفات الداخلية] فإنما هي محبة لغرض من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحل. فمن أحبك لأمر ولّى عنك عند انقضائه، فداعي المحبة وباعثها إن كان غرضاً للمحب لم يكن لمحبته بقاء، وإن كان أمراً قائماً بالمحبوب سريع الزوال والانتقال زالت محبته بزواله، والمقصود أن المحبة تستدعي مشاكلة ومناسبة.

وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى- في مسنده من حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة كانت تدخل على قريش فتُضحكهم، فقدمت المدينة فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبي ﷺ: على من نزلت فلانة؟، فقالت: على فلانة المضحكة، فقال: (**الأرواح جنود مجندة.. ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**)، وأصل الحديث في الصحيح. وأنت إذا تأملت الوجود لا تكاد تجد اثنين يتحابان إلا بينهما مشاكلة أو اتفاق في فعل أو حال أو مقصد. فإذا اختلفت المقاصد والأوصاف والأفعال والطرائق لم يكن هناك إلا النُفرة والبعد بين القلوب.

وأما عن مصدر المشاكلة والاتفاق بين الزوجين فهذا لا يكون إلا من الجانبين ولا بد. فلو فتش المحب -المحبة الصادقة- قلب المحبوب لوجد عنده من محبته نظير ما عنده أو دونه أو فوقه (لاحظ مدى إصرار الإمام ابن القيم ومن قبله الإمام ابن حزم على مسألة حتمية حب المحبوب لمحبه).

ودواعي المحبة تجتمع معاً فمتى كان جميل الصورة جميل الأخلاق والشِّيم والأوصاف كان الداعي منه أقوى. وداعي الحب من المحب أربعة أشياء:

أولها: النظر. والنظر إما بالعين، وإما بالقلب إذا وُصف له. فكثير من الناس يحب غيره، وفني فيه محبةً وما رآه، لكن وُصف له. ولهذا نهى الرسول ﷺ المرأة أن تنعت لزوجها المرأة حتى كأنه ينظر إليها، والحديث في الصحيح.

ثانيها: الاستحسان. فإن لم يورث نظره استحساناً لم تقع المحبة.

ثالثها: الفكر في المنظور وحديث النفس به، فإن شغل عنه بغيره مما هو أهم عنده منه لم يعلق حبه بقلبه، وإن كان لا يعدم خطرات وسوائح [أي تبقى له من حبه خطرات وسوائح].

رابعها: الطمع في وصل هذا المحبوب.

فإذا وجد النظر والاستحسان والفكر والطمع؛ هاجت بلابله وأمكن من معشوقه مقاتله واستحكم داؤه، وعجز عن الأطباء دواؤه.

وفي سياق شرح الإمام ابن القيم لنظريته في الحب يورد مسألة أثر الجماع [والمقصود به هنا العملية الجنسية على وجه التحديد] في الحب هل يطفئه؟ أم يزيد من قوته؟

وبعد أن يورد الرأيين المتعارضين في ذلك يقول: الخطاب بين الفريقين أن الجماع الحرام يُفسد الحب، ولا بد أن تنتهي المحبة بينهما إلى المعاداة والتباغض والقلى، كما هو مُشاهد بالعيان. فكل محبة لغير الله سبحانه آخرها قلى وبغض؛ فكيف إذا قارنها ما هو من أكبر الكبائر، وهذه عداوة بين يدي العداوة الكبرى التي قال الله تعالى فيها: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

وأما الجماع المباح فإنه يزيد الحب إذا صادف مُراد المحب فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبةً أخرى لم تكن حاصلة قبل الذوق)).

هـ) ما نذهب إليه في نظرية الحب:

نعم، المشابهة هي علة الحب، ولكن المشابهة في أي شيء.. هذا هو السؤال؟ فالذي نذهب إليه أن هناك عدة مشابهات قد تكون هي علّة الحب بين نفسَي العاشقين. ولكن أهم هذه المشابهات هي المشابهة في قوة نفس المحبوبين لا من حيث نظر المجتمع ولكن من نظر المحبوب، وكذلك من حيث نظر محبوبه إلى

نفسه وإليه، سواء اتفقت هذه الرؤية مع رؤية الواقع الاجتماعي لها أو لم تتفق. أي إن الفيصل في تقرير هذه الحالة هما العاشقان فقط لا بدافع من بيئة تحيط بهما.

والقاعدة الأساسية أن النفس الأولى تجذب حولها النفس المماثلة لها في القوة، والنفوس الأقل منها قوة. وهذا هو تفسير أن النفس الواحدة قد تحبها عدة نفوس كما يحدث في الواقع، ولكن الطبيعي ألاّ تحب هي من بينها إلا نفساً واحدة.

هذه المشاهدة الواقعية هي التي تجعلنا ندفع تلك النظرية التي تقول إن المحبوب لا بد أن يكون محباً لمن يحبه. وفي الحقيقة فإن هذه النظرية ليست نظرية ابن حزم فقط ومن وافقه على ذلك من الإسلاميّين، ولكنها نظرية لها مؤداها في الفكر الإنساني بوجه عام. (فدوستويفسكي) وهو واحد من أهم الروائيين في تاريخ الإنسانية، و(كازانوفا) وهو واحد من أكثر الناس خبرة بالنساء يذهبان إلى أنه لا توجد امرأة في الوجود تستطيع أن تقاوم رجلاً يديم النظر إليها. فالناتج عن كون أن النفس الواحدة قد تكون محبوبة من أكثر من نفس بينما هي لا تحب من بينها إلا نفساً واحدة، وأن هناك من يُحِب ولا يُحَب في نفس الوقت.

والمحبوب بدوره يحب إمّا نفساً تماثله في القوة، وإمّا نفساً أقوى منها. فإذا وقع التماثل تحقّق السكن، وإلاّ فإن النفس الأقل قوة تسعى لتحقيق التماثل مع النفس الأولى، وإن كانت هي نفسها ترى أنها تماثلها في القوة. ومن هنا يأتي المعنى الذي قاله البعض بأن العاشق يحقق صورة نفسه؛ لأنه يسعى لتحقيق قوة ذاته كما يمكن أن تكون، وهو يرى أن هذه الصورة هي التي تماثل المعشوق في القوة، فيكون سعيه إلى التماثل مع قوة محبوبه هو في نفس الوقت سعيه إلى تحقيق صورة ذاته التي يرى إمكانية تحقيقها، وكلما اقترب التماثل تحقق السكن، فإذا تحقق التآلف والسكن تقاربت صفات المحبوبين، ويثور بينهما التساؤل: هل صفاته هي صفاته هو نفسه أم صفات محبوبه؛ لأن المزج جعل من ذاتيهما كينونة واحدة، وداخل هذه الكينونة الواحدة لا يعود أحدهما يدري الفرق بين صفاته وصفات محبوبه.

من الذي وضع هذا في طريق ذاك؟ ومن الذي وضع ذاك في طريق هذا؟ ومن الذي جعلهما يعتقدان أنهما متماثلان في قوة ذات كل منهما هذا التماثل مع أن ذلك أمر ذاتي وليس موضوعياً؟ الإجابة عن ذلك مستحيلة؛ لأن هذه الأمور أمور قدرية لا يعلمها إلا الله سبحانه.

وعملية اكتمال التماثل في الصفات الأخرى حتى يتحقق المزج بين نفسي العاشقين أمر عجيب، لأنه بعد حدوث التآلف بين المحبوبين فإن كل محب يكون منجذباً إلى أن تشابه صفاته صفات محبوبه؛ حتى يقتربا في كل صفة إلى نقاط التماس، ثم إلى المطابقة الجزئية، ثم إلى التطابق التام في كل الصفات.

فإن كان أحدهما شرساً والآخر موادعاً وجدتهما يلتقيان عند نقطة ما بين الشراسة والوداعة.

وإذا ثبت أحدهما على صفة من الصفات نتيجة اقتناع ما، وجدت الآخر ينتقل إليها ولو بعد عَنتٍ، خصوصاً إذا كانت أقرب إلى الروحية. بل الذي يحدث أن صدق الحب بينهما وتعمقه يؤديان بهما إلى حدوث طفرة روحية لهما معاً فتطهرهما وتسمو بهما إلى مدارج عليا من الإيمان. فإذا كان أحدهما متكبرًا والآخر متواضعاً؛ وجدت المتكبر يغدو متواضعاً والمتواضع يغدو أكثر ترفعاً، أو وجدت المتكبر غدا متواضعاً إذا ثبت الثاني على حاله، وربما انتقل الاثنان إلى درجات أكبر من التواضع.

والحكاية أظهر بالنسبة للانهماك على ماديات الدنيا. فإذا كان أحدهما متكالباً على ماديات الدنيا وبهرجها والآخر زاهداً وجدت الأول اقترب من الثاني وصار أكثر زهداً، ووجدت الثاني اقترب من الأول وصار أكثر تنعماً. فإذا ثبت الثاني على موقفه وجدت الأول انتقل إلى موقف الثاني، بل قد يرقيان معاً إلى درجات أكبر من الزهد والروحانية.

هذا التآلف بين المحبوبين يصنع هذه الدرجة الرائعة من التماثل في الصفات الروحية؛ حتى يحدث المزج التام بينهما؛ فلا تعلم ما هي الصفات الخاصة بهذا أو بذاك وبماذا يتشابه أحدهما بالآخر.

بل الأغرب من ذلك أن التشابه بينهما يكون أيضاً في حركة الأعضاء وعاداتها فتجدهما يتشابهان في طريقة السير والأكل والكلام والضحك بل في كل التصرفات والأفعال.

ولكن العجب العجاب هو تشابههما في الشكل أيضاً، وتفسير ذلك أن صفات النفس الداخلية للإنسان تنعكس على ملامحه إلى الدرجة التي يبلغ معها الأمر أن تترك آثارها المادية عليها؛ ولذلك فإنه عند حدوث العشق والتآلف والتماثل الداخلي بين روحي العاشقين، فإن هذا التماثل النفسي ينعكس على ملامحهما ويترك آثاره عليهما.

كيف أدرك أئمة المسلمين ظاهرة الحب؟

أ) نظرة الإمام محمد بن داود الظاهري:

ذكر أحد أتباع الإمام الظاهري أن الإمام محمد بن داود الظاهري كان يدخل الجامع دوماً من باب الوراقين، فعدل عن ذلك، وجعل دخوله من غيره، وكنت مجترئاً عليه فسألته عن ذلك، فقال: يا بني، السبب فيه أني في الجمعة الماضية أردت الدخول منه فصادفت عند الباب عاشقين يتحدثان فلما رأياني قالا: "أبو بكر قد جاء" فتفرقا فجعلتُ في نفسي ألاّ أدخل من باب فرقت فيه بين عاشقين.

وقال ابن القيم عنه في كتابه (الداء والدواء):((وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهري العالم المشهور في فنون العلم من الفقه والحديث والتفسير والأدب، وله قوله في الفقه وهو من أكابر العلماء، وعشقه مشهور)).

وقال نفطويه: "دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه فقلت: كيف تجدك؟ فقال:

حب من تعلم أورثني ما ترى، فقلت: وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ فقال: الاستمتاع على وجهين: أحدهما النظر المباح، وآخر اللذة المحظورة. فأما النظر المباح فهو الذي أورثني ما ترى، وأما اللذة المحظورة فقد منعني منها ما حدثني أبي، حدثنا أبو سويد بن سعيد، حدثنا مسهر عن أبي يحيى القتاب عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: "من عشق وكتم وعفّ وصبر غفر الله له وأدخله الجنة".

وجاءته يوماً فُتيا مضمونها ما يلي:

يا بن داود يا فقيه العراق ... أَفْتِنا في قواتل الأحداق

هل عليها بما أتت من جناح ... أم حلال لها دم العشاق؟

فكتب الجواب بخطه تحت البيتين:

عندي جواب مسائل العشاق ... فاسمعه من قرح الحشا مشتاق

لما سألت عن الهوى هيَّجتني ... وأرقتَ دمعاً لم يكن بمراق

إن كان معشوقاً يعذب عاشقاً ... كان المعذَّب أنعم العشاق

ب)- موقف الإمام ابن حزم:

يقول الإمام ابن حزم في (طوق الحمامة): الحب -أعزك الله- أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالها عن أن توصف فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة، وهو ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة؛ إذ القلوب بيد الله عز وجل. وقد أحب من الخلفاء المهديون والأئمة الراشدون وكثير من الصالحين والفقهاء في الدهور الماضية والأزمان القديمة من قد أستغني بأشعارهم عن ذكرهم. وقد ورد من خبر عبد الله بن عتبة بن مسعود، ومن شعره ما فيه الكفاية، وهو أحد فقهاء المدينة

السبعة وقد جاء من فتيا يقصد إفتاء ابن عباس رضي الله عنه مـا لا يحتـاج معـه إلى غيره حين يقول: "هذا قتيل الهوى لا عقل ولا قَود".

ويستدل الإمام ابن حزم على موقفه من الحب بما رواه بسنده في موضع آخر من كتابه (طوق الحمامة) من أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنـه: "يـا أمير المؤمنين، إني رأيت امرأة فعشقتها، فقال عمر: ذاك مما لا يملك".

ومن الواضح أن الإمام ابن حزم تعامل مع موضوع الحب كبديهـة لا تحتـاج إلى جدل كبير، ولذلك لم يهتم بحشد أكبر قدر من النصوص للدفاع عنـه والاسـتدلال عليه وإباحته.

ونحن لا نتفق مع الذين ذهبوا إلى اتهام الإمام ابـن حـزم بانتهـاك أحكـام الديـن بسبب ما أورده عن أفعال العشاق في كتابه (طوق الحمامة)؛ لأنـه كمـا نعلـم مـن قواعد الدين أن ناقل الكفر ليس بكافر. والإمام ابن حزم كتب هذا الكتـاب بـروح المفكر والأديب، كما كتبه بروح الفقه. والصفتان الأوليان تقتضيان عليه استقصاء الأمور في كل ما يتعلق بالعشق، أو ما يشتبه به من أمور أخـرى، سـواء كـان هـذا عفافاً أم فجورًا أم ضلالاً، وهذا ما فعله الإمام ابن حزم دون أن يعني ذلك موافقتـه على الأمور الخارجة عن أحكام الديـن فيمـا ذكـره، وإن كنـا نذهـب إلى أن روح التسامح بوجه عام كانت غالبة على الإمام ابن حزم في نظرته إلى الأحكـام المتعلقـة بالعشق، ونستشف ذلك بوجه خاص في موقفـه المتشـدد مـن الوشـاة. ولكـن علـى التوازي مع ذلك التسامح فقد شـدد الإمـام ابـن حـزم علـى إظهـار فضـل العفـاف والتشنيع من جريمة الزنى، فوازن بذلك بين التسامح مع العشق كحالة خاصة ترتبط أساساً بالعاطفة القلبية، وبين التشدد على ابتغاء الشهوات والسقوط في الفجور.

جـ) ـ موقف الإمام ابن الجوزي من الحب:

يقول الإمام ابن الجوزي في كتابه (ذم الهوى): اختلف الناس في العشق هل هـو ممدوح أو مذموم؟ فقال قوم: هو ممدوح؛ لأنه لا يكون إلا من لطافـة الطبـع، ورِقّـة

عند جامد الطبع حبيسة، ومن لم يجد منه شيئاً فذلك من غلظ طبعه. فهو يجلو العقول ويصفي الأذهان ما لم يفرط فإذا أفرط عاد سُمّاً قاتلاً. وقال آخرون: بل هو مذموم لأنه يستأثر العاشق ويجعله في مقام المستعبد.

قلت: وفصل الحكم في هذا الفصل أن نقول: أما المحبة والود والميل إلى الأشياء المستحسنة والملائمة فلا ينعم ولا يدعم ذلك إلا الحبيس من الأشخاص.

فأما العشق الذي يزيد على حد الميل والمحبة؛ فيملك العقل، ويصرف صاحبه على غير مقتضى الحكمة فذلك مذموم ويتحاشى من مثله الحكماء.

وأما القسم الأول فقد وقع فيه خلق كثير من الأكابر ولم يكن عيباً في حقهم.

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنتَ وعير بالفلاة سواء

وقد روى أبو عبد الله المرزباني أن أبا نوفل سُئل عن خلوٍّ أحد من العشق؛ فقال: نعم، الجلف الجافي الذي ليس فيه فضل، وليس عنده فهم. وأما من في طبعه أدنى ظرف، أو معه دماثة أهل الحجاز، ورقة أهل العراق فهيهات.

قال اليمان بن عمرو مولى ذي الرياستين: كان ذو الرياستين يبعثني، وبعث أحداث أهله إلى شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور، وكان يقول لنا: تعلموا منه الحكمة فإنه حكيم. فكنا نأتيه. فإذا انصرفنا من عنده سألنا ذا الرياستين، واعترض ما حفظناه فيخبرونه. فقصدنا ذات يوم إلى الشيخ فقال: أنتم أدباء، وقد سمعتم، ولكم جِدات ونِعم، فهل فيكم عاشق؟ فقلنا: لا. فقال: اعشقوا؛ فإن العشق يطلق اللسان العي، ويفتح حيلة البليد والمختل، ويبعث على التنظيف وتحسين اللباس وتطييب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشرف الهمة، وإياكم والحرام. فانصرفنا من عنده إلى ذي الرياستين فسألنا عما أخذنا في يومنا ذلك؛ فهبنا أن نخبره؛ فعزم علينا؛ فقلنا إنه أمرنا بكذا وكذا، قال: صدق.

وأما القسم الثاني من العشق فمذموم لا شك فيه. وبيان ذلك أن الشيء إنما

يُعرف ممدوحاً أو مذموماً بتأمل ذاته وفائدته في العشق للنفس الناطقة، وإنما هو أثر غلبة النفس الشهوانية؛ لأنها لما قويت أحبت ما يليق بها.

د) – موقف الإمام ابن القيّم من الحب:

يقول الإمام ابن القيّم في كتابه (روضة المحبين ونزهة المشتاقين): "اختلف الناس في العشق: هل هو اختياري أو اضطراري خارج عن مقدور البشر؟ وفصل النزاع بين الفريقين أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلة تحت التكليف (أي أن الأسباب الأولى للعشق اختيارية). فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختياري فإذا أُتي بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره (أي أن النتيجة المترتبة على هذه الأسباب من وقوع المحبة غير اختيارية). ولهذا؛ إذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يُلَم عليه صاحبه (أي أنه لو كانت الأسباب الأولى للعشق مباحة فإن وقع العشق بعد ذلك لا يُلام عليه صاحبه) كمن كان يعشق امرأته". ويُقاس على نفس الأمر من خطب امرأة أو أراد خطبتها ونظر منها ما يشجعه على خطبتها كما قال الرسول ﷺ ثم فارقها وبقي عشقها غير مفارق له فهذا لا يُلام على ذلك كما في قصة بريرة ومغيث. وكذلك إذا نظر نظرة فاجأته (أي النظرة الأولى) ثم صرف بصره وقد تَمكّن العشق من قلبه بغير اختياره. ومن الواضح أن عليه مدافعته وصرفه عن قلبه بضده، فإذا جاء أمر يغلبه فهناك لا يلام بعد بذل الجهد في دفعه".

ويقول في موضع آخر: العشق لا يُحمد مطلقاً ولا يُذم مطلقاً، وإنما يحمد ويذم باعتبار متعلقه؛ فإن الإرادة تابعة لمرادها، والحب تابع للمحبوب. فمتىٰ كان المحبوب مما يُحبُّ لذاته، أو وسيلة توصله إلى ما يُحبُّ لذاته، لم تذم المبالغة في محبته، بل وتُحمد. وصلاح حال المحب كذلك بحسب قوة محبته.

والعشق إذا تعلق بما يحبه الله ورسوله كان عشقاً ممدوحاً مثاباً عليه. وذلك

أنواع أحدها محبة القرآن، وكذلك محبة ذكره سبحانه وتعالى، وكذلك عشق العلم النافع، وعشق أوصاف الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر وسائر مكارم الأخلاق.

بقيت هاهنا أوصاف قسم آخر وهو عشق محمود يترتب عليه مفارقة المعشوق؛ كمن يعشق امرأته فيفارقها بموت أو غيره، فيذهب المعشوق ويبقى العشق كما هو، فهذا نوع من الابتلاء؛ إن صبر صاحبه واحتسب نال ثواب الصابرين، وإن سخط وجزع فاته معشوقه كما فاته ثوابه. وإن قابل هذا البلوى بالرضا والتسليم فدرجته فوق درجة الصبر.

تعليق على موقف الإمام ابن القيم من الحب:

من يتابع الإمام ابن القيم في كتبه يجد أنه قد اهتم بالحب اهتماماً عظيماً حتى إنك لا تكاد تجد له كتاباً من كتبه الشهيرة إلا وقد تناول فيه هذا الموضوع، ومنها: (زاد المعاد)، و(إغاثة اللهفان)، و(الداء والدواء)، و(أخبار النساء)، حتى توج ذلك بأن أفرد لهذا الموضوع مجلداً كبيراً هو كتابه: (نزهة المشتاقين وروضة المحبين). ومع أن ابن القيم يدافع عن الحب دفاعاً عظيماً، إلا أن البعض يجدون في كتبه أيضاً مادة عظيمة يستندون عليها في اتهاماتهم للعشاق بأشنع التهم التي قد تصل إلى حد الكفر.

ومردُّ ذلك هو تعميمهم ما خص به الإمام ابن القيم أنواعاً معينة من العشق بهذا الهجوم الشديد. فالعشق -كما يقول الإمام ابن القيم - لا يُمدح مطلقاً ولا يُذم مطلقاً، وإنما هو بحسب متعلقه من حيث الحِل والحَرمة. فإذا هاجم ابن القيم الأقسام المذمومة في العشق أخذوا هجومه الضاري هذا وهاجموا به الحب بوجه عام.

وإذا تحدثنا عما جاء في كتبه من آراء في هذا الموضوع قلنا إنه في كتابه (زاد المعاد) أدرج الموضوع في باب الأمراض، ومن ثم فقد تناوله من ذلك الجانب من حيث التحذير من المخاطر التي تنجم عنه، وكذلك من حيث محاولة علاجه أو التخفيف من آثاره.

أما في كتابه (إغاثة اللهفان) فقد شن هجومه الضاري على العشق، ولكن مع ذلك فقد كان الواضح لمن يبحث عن الحقائق في تناول الأمور أن هجومه هذا انصب على مدى شناعة الأمور التي عناها بهذا الهجوم، وهي كما أوردها:

أ – شيوع ذلك الفعل الشنيع من عشق المردان (الصبيان)، ومحاولة البعض التحايل على الشريعة؛ وادعاء إباحته. وقد أكد الإمام ابن القيم على أن الفعل نفسه من أكبر الفواحش، أما ادعاء إباحته فهو كفر صريح.

ب – أن يكون متعلق العاشق من المعشوق هو فعل الفاحشة فيه. وفي الحقيقة فإن هذا النوع من العشق لا علاقة له بالموضوع الذي نتناوله في هذا الكتاب؛ لأن به هذا التعلق الحسي والجرأة على فعل الفاحشة لا يحتاج إلى أن يُفرَد له كتاب.

جـ – أن يتحول الأمر إلى عبودية إلى الدرجة التي يصرخ فيها العاشق لمن يعشقه أني أعبدك، وهذا أمر تالله عظيم، ويخرج بالإنسان من دائرة الإيمان والتوحيد إلى دائرة الكفر والشرك.

ثانيا: الحب قبل الخطبة هل هو مشروع؟

إن من فطرة الله التي فطر الناس عليها ميل الرجل إلى المرأة ورغبته في صحبتها وسَكَنه إليها، كذلك ميل المرأة إلى الرجل ورغبتها في صحبته واتخاذه سنداً لها. وقد شرع الله لتحقيق ذلك طريقاً قويماً هو الزواج. ومن مقدمات الزواج تقدم الرجل لخطبة المرأة وهذا ما يقع غالباً، أو تقدم المرأة لخطبة الرجل وهذا ما يقع نادراً، وكلا الأمرين مشروع. ويمكن أن تكون الرغبة بمجرد حرص على التزوج من أسرة طيبة، دون معرفة سابقة بالزوجة، ويمكن أن تكون نتيجة إعجاب وتقدير. وقد يقع أحيانا ميل قلبي وهوى نفسي، والله وحده يعلم ما يجول في عقول الناس. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَنْ

تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾. [البقرة: ٢٣٥]

ضوابط لمشروعية الحب قبل الخطبة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ بعث سرية فغنموا، وفيهم رجل فقال: إني لست منهم عشقتُ امرأةً فلحقتها، فدعوني أنظر إليها ثم اصنعوا بي ما بدا لكم، فأتي امرأة طويلة أدماء (شديدة السمرة) فقال لها: أسلمي حبيش قبل نفاذ العيش.

أرأيت لو تبعتكم فلحقتكم   بحلية أو ألفيتكم بالخوانق

أما كان حقاً أن ينول عاشق   تكلف إدلاج السرى والودائق

قالت: نعم فديتك، فقدموه فضربوا عنقه، فجاءت المرأة فوقعت عليه فشهقت شهقة أو شهقتين ثم ماتت. فلما قدموا على رسول الله ﷺ، أخبروه الخبر. فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: **أما كان فيكم رجل رحيم؟**

والحديث يفيد أن مشاعر الحب- إذا لم تؤد إلى مفسدة- لا جرم فيها، انظر حرص الصحابة على إخبار الرسول عليه الصلاة والسلام بقصة العاشقين، وانظر كيف استمع الرسول عليه الصلاة والسلام للقصة كاملة، ثم أبدى تعاطفه مع العاشقين، وأنكر على أصحابهم فعلهم، وذلك في قوله: **أما كان فيكم رجلٌ رحيم؟**

إن حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل شعور إنساني ينبع من أصل فطري خَلَقه الله في أعماق الإنسان وهو الميل إلى الجنس الآخر عند بلوغ درجة من النضج العقلي والبدني. وهذا الميل وما يتبعه من حب ليس أمراً خبيثاً في أصله، إنما الخبث والطهر يتعلقان بالإطار الذي ينطلق فيه هذا الميل. فهناك إطار طاهر حلال وهناك إطار خبيث حرام. أي أن الحب عاطفة نبيلة بنبل غايتها، فإن كانت غايتها الزواج أي يتخذ أحدهما الآخر رفيق طريق وشريك حياة فما أنبلها من غاية.

إن الميل الفطري الجنسي وما يتبعه من إعجاب بالجمال البدني والمظهر الحسن، هو أحد مقومات الحب الغامر الكبير، على أن تسانده مقومات أخرى عديدة من أخلاق كريمة وأسرة طيبة ومستوى ثقافي واجتماعي مناسب مع مهنة حسنة. ولكن فرق كبير بين أن يكون هذا هو أحد مقومات الحب وبين أن يكون هو محور الإعجاب، والمكون الأساسي لمشاعر الحب ولا شيء غيره. عندها نقول مطمئنين إن هذا ليس حباً كبيراً إنما هو نزوة جنسية طاغية سرعان ما تنقضي.

ليس كل حب غامر قبل الزواج استمر بعده، فكثيرا ما يفتر الحب لأنه لم يجد غذاءً متجدداً يحفظه وينميه، غذاء تُثمّره العشرة الطيبة والتعاون على مواجهة الصعاب، وقد يتبع فتور الحب إخفاق الزواج ويكون فراق.

ليس كل زواج تم مع حياد عاطفي استمر على الحياد فكثيراً ما تؤدي العشرة الطيبة وأخلاق الوفاء والعطاء إلى نمو مشاعر الحب، حب هادئ أحياناً وغامر أحياناً. وقد يدوم هذا الحب ويطول مداه إلى نهاية العمر.

مخطئون أولئك الذين يَدّعون أن رباط الزوجية يُفسد الحب – إن كان حباً صادقاً– فالحب ليس أُلهية إنما هو مشاعر سامية يزيدها رباط الزوجية توثقاً وتزيده العشرة الطيبة سمواً. ومفترون كذلك الذين يَدّعون أن إنجاب الأطفال يُفسد الحب– إن كان حباً صادقاً– فالأطفال مثل الماء يسقي شجرة الحب وهم في نفس الوقت أزهار الحب وثماره.

وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حيث يقول في تعليل حبه لخديجة رضي الله عنها: **(إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد).**

خلاصة:

الحب شعور انفعالي، وليس فعلاً اختيارياً؛ ولذا لا تتعلق به الأحكام الشرعية من حرمة أو وجوب أو كراهية.. ومن المعلوم أن الأحكام التكليفية إنما تتعلق بما

هو داخل في وسع الإنسان لقوله عز وجـل: ﴿لا يُكَلِّـفُ اللَّـهُ نَفْسـاً إلاّ وُسْعَها﴾. فالشـارع – جـل جلالـه- لا يقـول لـك: لا تحـب، ولكـن يقـول إذا أحببـت فـلا تنحرف. ولا يقول لك: لا تكره، ولكنه يقول: إذا كرهت فـلا تظلـم، ولا يقـول: لا تجع، ولكنه يقول: إذا جعت فلا تسرق. ومـن هنـا نـدرك أن علـى الإنسـان إذا أحب أن لا يستسـلم لدوافـع حبـه في نطـاق السـلوكية والتصرفـات الاختياريـة إلا ضمن حدود الشريعة وأحكامها التكليفية المعروفة.

إذن من المهم أن نعرف أنّ الحب ليس عيبًا ولا حرامًا؛ بل هو شـعور قسـري لا يتعلق به تكليف ولا يدخل في نطاق الأحكـام أو المحظـورات، فالإسـلام ليـس لـه انتقاد على الحب، ولكنه ينتقد الانحرافات التي يقود إليها هذا الحب. وقد صحَّ عـن رسول الله ﷺ قوله: **(إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به نفسها ما لـم تقـل أو تفعـل)**، غير أن مشاعر الحب شـيء، وتعريـض الإنسـان نفسـه لهـذه المشـاعر شـيء آخـر؛ أولهما انفعال قسري لا اختيار فيه، وثانيهما فعل اختياري يتحمـل صاحبـه نتائجـه من خير وشر.

وقد أدى الخلط بين الحب والجنس – الذي سببه نظريات (فرويد) الخاطئة كمـا أسلفنا- إلى سخافات شائعة بين الشباب والفتيات باسم الحب والحب منها بـريء، فكما يُساء استعمال الدين، والقانون، والأدب، والطـب، وغيرهـا، فكذلـك يُسـاء استعمال الحب، وهو ما أدى إلى رفض مفهوم الحـب عنـد الكثيـرين مـن الملـتزمين واعتباره حراماً أو قلّة أدب، أما الحقيقة فإن ديننا الإسلام هو الثوب السابغ للفطـرة الإنسانية، لا ينكـر أشـواق الـروح ولا يهمـل مطـالب الجسـد، بـل يعـترف بـالميل العاطفي والغريزي بين الجنسين؛ لأنه الأساس الذي تقوم عليه الحياة والنسل.

الفصل الثاني عشر

الجنس والدين

ما ضرورة التربية الجنسية؟ ما هي منطلقاتها وما هي غاياتها؟

لا يصح أن ننكر ما وقعنا فيه من جهل بديننا وتأخر في دنيانا، فالتغيير والتطور لا يبدأ إلا بآليات النقد الذاتي، وجانب كبير من حياتنا يقوم على فهم خاطئ لتعاليم الدين والخلط بينها وبين تقاليد المجتمع، وأصبح من واجب كل مخلص وناصح أن يلفت النظر إلى الخطأ الذي وقع به أسلافنا في عصر الانحطاط من تشدّد أدى إلى رفض الدين واستبداله بدعوات أصحاب الهوى إلى الخروج من الدين والتقاليد على حد سواء وفرض أنظمة غربية اجتماعية لا تناسب بيئتنا ولا تتفق مع ثقافتنا، فكلا الأمرين مرفوضان، ولا بد من العودة إلى الدين الذي لا ينكر على الإنسان غرائزه بل يحميه منها بتهذيبها أو تأجيلها لوضعها في إطارها الصحيح الذي يبني ولا يهدم ويصلح ولا يفسد.

الإعلام الجنسي للولد واجب شرعي وضرورة نفسية:

ذكر الدكتور عبد الله ناصح علوان في كتابه (تربية الأولاد في الإسلام) ما يلي:

(يجوز للمربي أن يصارح ابنه أو ابنته في القضايا التي تتعلق بالجنس وترتبط بالغريزة بل أحيانا تكون المصارحة واجبة إذا ترتّب عليها حكم شرعي) ويستدل على رأيه بالأدلة التالية:

١- الكم الكثير من الآيات القرآنية التي تتحدث بصراحة عن الجنس.

٢- ضرورة تعليم الأبناء أحكام المراهقة والبلوغ قبل أن يصلوا إلى هذه المرحلة.

٣- ضرورة تزويد الفرد بأحكام الزواج وأصول الاتصال الجنسي.

وورود الجنس صراحة في القرآن إذ نربطه بالأحكام التي تفرض على المسلمين قراءة آياته وتدبر معانيها، دون أن تخصص عمراً معيناً، يعني - من ضمن ما يعنيه - إشاعة الفهم الجنسي الصحيح في المجتمع الإسلامي على اختلاف أعمار أفراده.

لكن هناك مرحلة قبل هذه المرحلة وهي مرحلة فهم الأبوين للمعنى الإنساني الكريم للجنس عندما يكون ضمن إطار الزواج، إذ ينبغي على الوالدين أن يتمتعا بثقافة جنسية واعية قبل أن يقوما بشرح أي منها لأولادهم.

لقد استدل العلماء على وجوب مصارحة الولد جنساً إذا ترتب عليها حكم شرعي كما يبين قول العلامة عبد الله ناصح علوان رحمه الله، وقد استشهدوا على ذلك بكثرة الآيات الواردة في القرآن والتي تتحدث عن الاتصال الجنسي بين الزوجين سواء الحلال أو الحرام منه، وعن الفاحشة سواء الزنى أو اللواط، وعن تكوين النطفة وتَوضُّع البيضة الملقحة في الرحم إلى آخر ذلك من المعاني التي ترتبط بالجنس وتتصل بالغريزة، فكيف يفهم الناشئ هذه المعاني وهو في سن التمييز إذا لم يوضحها له المربي بشكل قريب من إدراكه العقلي وعمره الفعلي؟

إن طمس معاني هذه الآيات القرآنية يتنافى مع التربية الإسلامية القويمة ويتناقض مع شمولية الإسلام وعظمته ومراعاته للفطرة، أما إذا تم شرحها للناشئ بأسلوب قريب لفهمه وإدراكه، وملامس لحياته في فطرته فإن هذه الثقافة الجنسية لها ثمرات كريمة بأن تعلي من شأن دينه وصلاحيته لكل زمان ومكان، وتجعله يعرف الحلال من الحرام، ويزيد من غراس التقوى في قلبه.

ويمكن القول: إن هذه المصارحة ليست واجبة فقط إذا ترتب عليها حكم شرعي، بل إنها واجبة لنمو نفسي سليم وهي ضرورية لتثبيت دعائم ثقة الطفل والمراهق بأبويه؛ وهي فريضة بأن يأخذ الناشئ معلوماته في الناحية الجنسية من

مصدر آمن بدل أن يأخذه من الشغالة والسائق أو أصدقاء الشارع وزملاء الدراسة أو من القنوات الفضائية ومواقع الإنترنت الإباحية.

(إن عدم توعية الولد لنموه الجسدي وتطوره وخاصة عندما يصل لمرحلة البلوغ قد يجعله فريسة للمعلومات الخاطئة المشوشة التي قد يسمعها من الآخرين أو الخرافات والأوهام، وقد يعرضه أيضاً لاستغلال من يتعرض له بالأذى أو الاعتداء. ويجب أن يساعد الولد على تقبل نفسه وجسده ونموه الجنسي كجزء "طبيعي" من حياته كإنسان. جزء طبيعي ينظم من خلال سلوك أخلاقي اجتماعي وديني مقبول. جزء منظم إلا أن يبقى مصدراً للمتعة التي خلقها الله سبحانه في هذا الإنسان. وكما جاء في الحديث النبوي: (**وفي بضع أحدكم صدقة**).[٤]

إذن فالإعلام الجنسي للناشئ هو جزء من منظومة قيمية أوسع تضمها التربية الجنسية التي تتضمن مفهوماً أخلاقياً واجتماعياً ونفسياً ودينياً.

وهذا ما يؤكد عليه د. حامد زهران أستاذ الصحة النفسية بأن علينا كمربين أن نعرف أن الأطفال يصلهم معلومات من زملائهم في المدرسة والشارع.. وقد يقرؤون كتباً بها أفكار مشوهة، وقد يطلعون في عصرنا الحالي على مصادر سيئة في الإنترنت، وهناك أيضا القنوات الفضائية، وعلينا أن نُعلّم أطفالنا آداب السلوك الجنسي. إن أقرب العلوم للتربية الجنسية هي التربية الدينية، لأن الدين يعترف تماما بالغريزة الجنسية وينظم السلوك الجنسي تماما من الناحية الدينية قبل أي شيء آخر، ولهذا فالمفروض أن نهتم بتعليم أحكام الدين.. وحدود الله فيما يتعلق بالسلوك الجنسي والحلال والحرام فيه.. ومن هنا سنجد أن الإطار الذي نتحدث عنه سوف يؤدي إلى نتائج أفضل من إهماله..

ثقافة المناعة لا المنع:

يجب أن يصبح النشء محميا من الغزو الثقافي في هذه الناحية تحديداً، فإدمان الجنس بأي طريقة كانت سواء عادة سرية أو تصفح المواقع الشائنة أو الركض وراء

العبث الجنسي ليس بأقل أثراً وضرراً من إدمان المخدرات والكحول، ولذلك وجب التنبيه على هذه الناحية بأن من ضرورات التربية إفهام المراهق أو الذي وصل إلى أعتاب المراهقة سبب وضع هذه الغريزة القوية في بني البشر، وأنها بالدرجة الأولى من أجل إعمار الكون بالنسل لتحقيق خلافة الله في الأرض، وبالدرجة الثانية من أجل إمتاع الإنسان في هذه الحياة الدنيا بأن يكون له شريك يربطه به رباط الزواج المقدس الذي هو عبارة عن مسؤولية منوطة بقدر المتعة، ومن هنا يمكن أن يفرق المراهق بين معنى الفتاة الصديقة (girlfriend) سواء كانت صداقة دائمة أو مؤقتة كما هو الحال في الغرب ومعنى الزوجة كما هي في الإسلام.

إننا أمام تحدّ كبير للفطرة الإنسانية قبل أن يكون تحدياً للإسلام كدين، فلا يخفى على أي قارئ في أحوال الغرب أن سبب الانحراف عن الفطرة في الغرب المتمثل بالشذوذ الجنسي ليس فقط هو عضوي المنشأ أو نفسي السبب أو دماغي العلّة، بل هو أن النفس البشرية تميل للتنويع، وإذا لم تُهذّب هذه الفطرة فإن النفس لا يُشبعها شيء من الرغبات؛ وقد سبّبت الإباحية في الغرب أمواجاً شديدة من الانفلات، وهذه الحرية الجنسية وتعدد الشركاء الجنسيين للرجل والمرأة على السواء كانت أول سكين في قلب الفطرة البشرية، فانقلبت بعض النفوس إلى الشذوذ حباً في التنويع واستغراقاً في المعرفة حتى لو كانت هذه المعرفة هي الجهل بحد ذاته.

(إننا نعيش في مجتمعات معقدة تجعل التعامل مع الأمور الجنسية أمراً صعباً وحرجاً، فالمجتمعات الإباحية التي تُدخل الجنس في كل شيء وحتى في الإعلانات والدعايات، فإنها تُطلق العنان لثورة الجنس بين الناس. وكذلك مشكلات المجتمعات التي تحاول كبت التعامل الصريح وحتى منع نقاش المشكلات الاجتماعية والنفسية والجنسية لأن هذا الموضوع يجب أن يبقى في دائرة الظلام واللامُتَحَدَّث فيه. وفي الحالتين يحرم المجتمع من النظرة البسيطة للموضوع وهي أن الجنس مجرد جانب واحد من جوانب الحياة البشرية له دوره وله ضوابطه،

كالكهرباء مثلاً والتي إن لم تنظم وتضبط سببت الهلاك والأذى. وأن الجنس هو أحد الدوافع التي تربط بين الرجل والمرأة كزوج وزوجة في علاقة محبة ومودة، فهذه العلاقة من آيات الله العظيمة: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾(٤).

لم يعد هناك أي مكان في وقتنا الحاضر للتحفّظ على نقل المفاهيم الجنسية الصحيحة لأولادنا، لأننا إذا لم نقم بذلك، فهناك أسئلة مُلحة في عقولهم يجب أن يُجاب عليها، وهناك مساحات واسعة في نفوسهم يجب أن يُملأ فضولها، فلتكن تربيتنا بعيدة عن الفراغات متجنبة للثغرات قدر المستطاع وإلا حلّت المفاهيم الخاطئة في العقول واستعمرت النفوس وترسخت في الصدور مما يجعل اقتلاعها فيما بعد مهمة صعبة جدا؛ لذلك فإن من الواجب أن نبتعد بأولادنا عن الهزات والبراكين التي قد يتعرضوا لها إذا لم نبنِ معلوماتهم في كل نواحي الحياة على أساس راسخ من العلم والإيمان، ومن المناسب هنا الأخذ بمقولة (تيودور رايك): (كم من الأفضل أن نكون يافعين ونتعلم من أن نكون كهولاً ونعرف).

يقول الأخصائي التربوي الأستاذ عبد الواحد علواني في كتابه (تنشئة الطفل وثقافة التنشئة) في مبحث التربية الجنسية:

(إن التربية الجنسية كفيلة بغربلة أكثر من نصف أمراضنا المعاصرة، لذلك يجب علينا أن نتحرر من أوهامنا في هذا الصدد، فالتعامل مع الواقع بواقعية وعمق أفضل وسيلة لتصحيحه ومن ثم بنائه بناءً سليماً. ولا شك أن مجتمعاتنا تخلو من ثقافة جنسية صريحة، وبالتالي فإنها تخلو من تربية جنسية صريحة. وما تحفل به بعض مناهجنا الدينية أو العلمية أو الأدبية من دراسات ونصوص حول الجنس، لا تشكل تربية جنسية بمعنى الكلمة، إنما هي آليات الجنس والتناسل والوراثة في الجانب العلمي، وتشريعات الزواج والبلوغ في الجانب الديني، وبعض الجماليات المقننة في الجانب الأدبي. أما الغرب فهو منذ بداية القرن العشرين يطور مناهج خاصة في هذا

المجال، ولا أحد يدعو إلى تطبيق هذه المناهج إنما نود أن نبين ضرورة أن يكون قرارنا في هذا الصدد علمياً وواقعياً. فمع هذا الاهتمام المتخصص في الغرب، فإن للأمر مثالبه الجمة التي نشأت بسبب تطبيق التربية الجنسية، منها تفشي العلاقات الجنسية الحرة بين طلبة المدارس في أعمار مبكرة جدا. لذلك فإن التربية الجنسية بقدر ما هي ضرورية بقدر ما هي دقيقة وخطيرة أيضاً) (١٥).

قيمة الغريزة الجنسية في الإسلام:

أعلى الإسلام من قيمة الجنس عندما جعله وسيلة لهدف سام هو إعمار الأرض؛ وإن الاستفاضة بالشرح للطفل منذ بواكير أيامه بالمهمة التي خلقه الله سبحانه لأجلها، ألا وهي بناء الحضارة على وجه الأرض، وترابط هذه المهمة بشكل أكيد بعلاقته بأخيه الإنسان والكون من حوله، توجب علينا أن نشرح لأبنائنا طبيعة الاختلافات بين ثقافتنا وثقافة الغرب، دون أن نجعله كارهاً للغرب بشكل عام.

(تقف تعاليم ديننا موقفاً وسطاً بين الإباحية بلا ضابط وبين الكبت المعاكس للطبيعة البشرية. ولكل من هذين الموقعين مضاره ومضاعفاته، وما يُعرف بالجنس ليس بالضرورة أمراً قذراً أو رديئاً، فالجنس في الحياة الإسلامية غريزة ودافع بشري وصفة إنسانية غريزة تحكمها الأخلاق ويوازنها البعد الاجتماعي في التمو والتكيف) (٤).

تنحصر مهمتنا هنا في خلق أسلوب النقد والمحاكمة لدى الناشئ لما يراه ويسمعه ويتعرض له من مؤثرات؛ ومنها - في ما يخص موضوعنا - العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى، فهي علاقة قائمة في الإسلام على المسؤولية التامة عن الفعل؛ فالفعل الجنسي لا يجوز أن ينشأ إلا ضمن إطار العلاقة الحلال، لأسباب عدة:

١- أن الغريزة الجنسية بحد ذاتها هي أمانة من الأمانات المودعة في الإنسان وأنه مسؤول عنها كأي أمانة أخرى بما فيها السمع والبصر والفؤاد: ﴿إِنَّ السَّمْعَ

وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾، وهـذا يـؤدي إلى تقوية علاقة المراهق بربه سبحانه وتثبيت مفهوم التقـوى ومراقبة الله في قلبه وهـو المفهوم الوحيد المؤكد على أن الإنسان لا يمنعه من إتيان الخطيئة إلا تقوى الله سبحانه.

٢- أن هذه الغريزة هـي كـالنهر المتدفق والـذي مهمته الأساسية إرواء الأراضـي وتخصيبها، لكن هذا النهـر قـد تـزداد قـوة تدفقه فتـؤدي إلى فيضانـات تهلـك الحرث والنسل، وهنا لا بد من وضع سدوذ حولـه لتنظيـم مجراه ومنعه مـن أن يسبب كوارث إذا ترك يجري على هواه.

٣- ترك الإنسان لغرائزه أن تتحكم بـه يـؤدي إلى تحويلـه مـن إنسـان إلى حيـوان، ويجب على الإنسان العاقل أن يستفيد من أخطاء غيره، فهـذه الإباحيـة الجنسـية في الغرب قد أدت إلى تهدم صرح الأسرة وعزوف الشباب عن الـزواج وزيـادة عدد اللقطاء وتكرر ظاهرة الأمهـات العازبـات وتحـول المـرأة مـن قيمـة معنويـة كبرى في حياة الرجل إلى قيمة دنيا يستمتع بها كما يشاء ويرميها خلف ظهـره متى يشاء.

التربية الجنسية مستمدة من القرآن:

تحفل آيات القرآن الكريم بكلمات تحمل معاني ودلالات جنسية، وبمـا أنـه مـن المستحب تعليم القرآن لأطفالنا في سن مبكرة، فلماذا لا نضـع أنفسـنا أمـام حقيقـة أننا قد نتعرض لأي تساؤل منهم بهذا الخصوص؟ ألا يمكـن أن يلحـظ الطفـل هـذه العبارات: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسائِكُمْ﴾ ﴿نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً﴾؟ ألا يمكن أن يتسـاءل الطفـل: مـا معنـى الزنا؟ لماذا والدته لا تصلي؟ ما حكاية النبـي لـوط وقومـه؟ مـا قصـة يوسـف عليـه السلام وامرأة العزيز؟

من المُفترض أن يتوقع الآباء أي أسئلة بخصوص هـذه المواضيـع ويجـب أن يلقـى

الناشئ الترحيب بأسئلته بدل أن يكون جوابه الصمت المقترن بالخجل المذموم أو الحياء المَرَضي، وإلا فإن هذا يؤدي إلى خلل في فهمه الشمولي للإسلام، فكيف يقول الأب لولده مثلا: إن الإسلام هو الدين الصالح لكل زمان ومكان، وفي نفس الوقت يوحي له بطريقة مباشرة أو غير مباشرة أن هناك أمور يجب عدم الخوض فيها رغم أنها موجودة في كتاب المسلمين المقدس؟!

ينبغي مقاربة هذه الموضوعات حسب إمكانيات الطفل العقلية وحسب المرحلة العمرية التي يمر بها وحسب الأسئلة التي يوجهها، فليس من المحبذ مثلا أن نكون نحن من يثير في نفسه التساؤلات، لكن علينا إذا سُئلنا أن نجيب بصراحة ووضوح ولا بد من الحياء الذي هو خُلُق الإسلام كما قال عليه الصلاة والسلام: (**ألا إن لكل دين خُلُقا، وخُلُق الإسلام الحياء**)، ولكن الحياء المحمود ليس هو الخجل المذموم، وليس الحرام مرادفاً لكلمة العيب، والتي إن كانت خلاف المتعارف عليه من الآداب، لكنها يجب أن لا تكون موجودة في قاموس إجاباتنا لأسئلة الطفل البريئة أو المعرفية.

(ومن الخطأ أن يُربّى الولد وهو يعتقد بأن قطعة من جسده عبارة عن شيء قبيح أو كريه أو مرذول. والأولى أن يُعلّم قبول جسده ونفسه، ولكن في نفس الوقت التحلّي بالحشمة وضبط النفس والعفة وما يوجهه إليه الدين والُخُلق)(٤).

إذن ثقافة الحياء يجب أن تُغرس في الطفل منذ الصغر، وبنفس الوقت يجب أن نكون متأكدين أن الحياء لا يمنع من التفقّه في علوم الدين ولا من الفهم في أمور الدنيا، والسؤال كيف نغرس الحياء في الطفل سؤال وارد ومشروع ولا بد من الإجابة عليه قبل التطرق لموضوع هام كالجنس في حياة الأطفال والناشئة.

كيف نغرس الحياء في الطفل؟

يمكن هنا المرور عبر بضع محطات:

أولها: مفهوم العورة؛ إذ يجب أن يفهم الطفل أن أعضاءه الجنسية مختلفة عن

أعضائه الأخرى، فهذه يجب أن يُؤمر بتغطيتها منذ أن يبلغ سن التذكر وهي في عرف أكثر الأطباء والمهتمين في نهاية السنة الثالثة من العمر، فإذا كان بعض الفقهاء يقولون أنه لا عورة للصغير قبل عمر أربع سنوات فهذا لا يعني أن تُترك ليراها كل من هب ودب، وأن يجري الولد في البيت أو في الشارع كما يريد بحجة أنه ولد، بينما يحرص الأهل على أن البنت هي التي يجب أن تغطي عورتها منذ نعومة أظفارها، فكلا المنظرين مؤذ للبصر ولذلك سميت عورة، ومن هنا وجب تنبيه الطفل بلُطفٍ وحزمٍ إلى هذا الموضوع دون أن يترك تنبيهنا شعوراً بداخله يدفعه إلى فضول ليتعرف على عورات الآخرين، ودون أن نخلق في نفسه عقدة من هذا الموضوع بالذات، وكما نقول دائما: إن أكثر ما يؤثّر في أطفالنا ليس أفعالنا إنما ردود أفعالنا تجاه تصرفاتهم، فلنكن حذرين من هذه الناحية، فلا إفراط ولا تفريط.

(مع تعلم الولد الحشمة ومفهوم العورة يتعلم أن هناك أعضاء من الجسم لا يعرضها الإنسان لينظر الناس إليها إلا في حالات خاصة كالوالدين والطبيب، ولكن في نفس الوقت يشرح له أنه ليس في جسده ما يعيب أو يُخجل. وإذا كان الولد يبالغ في تغطية جسده حتى وهو في المنزل فيشار إليه أنه لا يجب أن يغطي كامل جسده طول الوقت، وإذا كان ممن يخلع ملابسه أمام الزوار والضيوف فعندها يقال له: إن الناس لا يعتادون رؤية الآخرين دون ملابس، وأن هناك من الجسد ما يستره الإنسان عن الآخرين احتراما لهم وتكريما لنفسه) (٤).

ثانيها: الاستحمام؛ لا يستغني الصغير عن أحد يساعده في حمامه قبل سن العاشرة تقريبا، سواء كان والده أو والدته، وهنا لا يُنصح أبداً بالتعري أمام الطفل في أي سن كان، ولا يجوز ترك الأخوة في الحمام عراة مع بعضهم بعد سن الثالثة حتى لو كانوا من جنس واحد، فالحياء فطرة في النفس البشرية يجب تعميقها، وأكبر مثال هو قصة آدم وحواء عليهما السلام، فلم يكن قد نزل عليهما أي دين

أو أي نوع من التعاليم، ومع ذلك نرى أنهما قاما بتغطية سوآتهما فور انكشافها، وتنمية فطرة الحياء هي أحد الفروق الأساسية بين ثقافتنا وثقافة الغرب.

وربّ قائل يقول: لكن الطفل إذا لم يعلمه أحد تغطية العورة فسينشأ وقد اعتاد على العري، فكيف نقول إن ستر العورة من الفطرة؟ والجواب: إن في داخل الإنسان فطرة موروثة بالكروموزومات الإنسانية مثل الأنانية وحب النفس وغريزة البقاء، وفطرة أخرى موجودة لكن هي بحاجة إلى إعلاء وإنماء، مثلها مثل الواقع تحت التخدير فهو ليس نائماً وليس يقظاناً، ونحن من نقوم بعملية الإنعاش ليصحو من أثر المخدر، وإذا شئنا تركناه وقد يستيقظ لوحده وقد لا يستيقظ، فإذا تركنا الطفل بدون أن نعوده ستر عورته غاب مفهوم الحياء عنه بدون شك، ولكننا بذلك نكون كمن فضل أن يُبقي مريضه تحت التخدير أطول فترة ممكنة، وخلال هذه الفترة إذا لم يكن يراقبه جيداً فإنه يأتي بأفعال أو يتفوه بكلمات تحت وطأة المخدر قد لا تمت إلى إنسانية الإنسان بصلة، فهذا مثله مثل من رغب أهله بأن تبقى فطرة الحياء لديه غائبة عن الوعي مما يجعله يقوم بأفعال تأنف منها الفطرة السليمة. وهذا موجود في بعض العائلات الغربية حيث كل أفراد العائلة سواء الآباء أو الأبناء ينكشفون أمام بعضهم بعضا، ولكن الآباء لا يعلمون أنهم جنوا على أبنائهم إذ يعانون في مستقبلهم من الشذوذ الجنسي، وربما لا يشكل هذا مشكلة كبيرة لدى أمثال هؤلاء الآباء.

ثالثها: الاستئذان؛ وهو وارد في القرآن الكريم، وذلك كي لا ينكشف للطفل ما لا يجب انكشافه من أسرار مخدع الزوجية، مما يكون له تأثير سلبي في شخصيته مستقبلًا، وهذا ما يجب التأكيد عليه خاصة أن بعض الآباء والأمهات الجهلاء يقومون بالفعل الجنسي أمام أطفالهم بحجة أنهم لا يفهمون ما يحصل، وكم أدى هذا التصرف الأخرق إلى تشوهات في نفوس بعض الأطفال ظهرت بشكل عُقد نفسية عميقة الأثر عند بلوغهم سن المراهقة أو الشباب، وقد تتظاهر بشكل فشل جنسي ذريع في ليلة الزفاف سواء عند الرجل أو المرأة.

رابعها: التفريق بين الأولاد في المضاجع بمجرد دخولهم سن التمييز، ومن المفضل طبعاً أن يتم فصل الإناث عن الذكور في الغرف إذا كان ذلك ممكناً، وإلا فمن الممكن زيادة الحرص دون أن يتحول الأب والأم إلى أمين شرطة أو جاسوس على كل حركات الأولاد، فهذا ما يقلل في ثقتهم بأنفسهم بشكلٍ عام؛ وإنه لأسلوب غير حكيم أن ينبّه الأب أو الأم الأولاد إلى شيءٍ غائب عن أذهانهم كلّياً.

وقد أشار الأخصائي النفسي بديع القشاعلة في مقال له بعنوان "نظريات في علم النفس والحديث الشريف" إلى حكمة التربية في قوله عليه الصلاة والسلام: **(مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرِّقوا بينهم في المضاجع)**:

((يحدد محمد ﷺ في هذا الحديث فترات زمنية للتعامل مع الطفل.... أما الجزء الأخير من الحديث وهو "فرقوا بينهم في المضاجع" فنابعٌ من تطور النمو الجنسي في هذه المرحلة والتي تعد نقطة تحول من الكمون الجنسي إلى حالة النشاط الجنسي والذي يبدأ مع مرحلة البلوغ، حيث نجد أن الأطفال حينما يصلون إلى سن العاشرة يكثر لديهم حب الاستطلاع عن النواحي الجنسية والفيزيولوجية كما وأن الانتباه في هذه المرحلة يزداد وتزداد دقته، الأمر الذي يساعده على إدراك الاختلاف بين الأشياء وإدراك الشَبَه أيضاً بينها. نتيجة لهذا فإنه يستطيع أن يقدم تفسيراً بسيطاً للأمور، وهذه صورة راقية من التفكير لم نكن نلحظها في المراحل السابقة من النمو. إن هذه الفترة هي فترة ميل إلى الأمور الجنسية والتعرف عليها والعبث بها وهذا جعله الله تعالى ليكون تمهيداً لمرحلة البلوغ والتي يمكن أن تحدث فيها عملية الزواج)).

خامسها: قد يتداول الأطفال بعض الكلمات البذيئة التي تعلموها من المدرسة أو الشارع دون أن يعلموا معناها، فيجب أن يُشرح للطفل مدى قبحها، وأن يُعوّد من صغره أن لا يكون فاحشاً ولا متفحشاً.

(إن الأحـاديث التـي يتداولهـا الطفـل مـع أقرانـه – الجغرافيـين خاصـة كأبنــاء الجيران– غالباً ما تكون معبأة بتلميحات أو شتائم جنسية تكـوّن الأرضيـة المرضيـة لشخصيته، وهو لا يجد غضاضة في استخدام الألفاظ النابية!! هذه الأحاديث تكون مصدراً من مصادر القيم الجنسية عند الطفل، بل إنها تُشكّل مفاهيم ترسخ بداخلـه أكثر من كل المواعظ والإرشادات الجافة لأهل يُهملـون تجنيبه قيـم الشـارع. وقـد تبدو المشكلة هنا عسيرة، فعـزل الطفـل عـن أقرانـه لـه آثـار خطـيرة علـى تكويـن شخصيته، منها أنه سيكون اجتماعياً غير قادر على التكيـف، بـل ربمـا يكـون هـذا العزل سبباً لتشكيل قيم جنسية بديلة، تكون حاجزاً بينه وبين ممارسة حياة صحيحة في المستقبل، لذلك فإن القيام بواجب التربية الجنسية مُناط بالأسرة بالدرجة الأولى، ولعل تساؤلنا الآتي يؤكّد أهمية هذا الأمر: أمام واقع نجد فيه الطفل في سن العاشرة – على أبعد تقدير – يكون على دراية كبيرة بالتفاصيل الجنسية، أيهمـا أفضـل: أن تكون معلوماته مما قدمه الشارع له أم مما قدمته الأسرة والمدرسة؟! لعل الوقـت قـد أزف لنتحرر من وهم ادعاءاتنا المتكررة بأن طفلنا محمي! إذ يُثبت الواقع بأن الطفل لا يكون محمياً إلا من خلال تعرضه لتربية جنسية صحيحة) (١٥).

سادسها: تنمية الحياء عند الفتـاة؛ يجـب أن لا يُفهـم أن معنـاه الخجـل أو نقـص ثقتها بنفسها، فإذا كانت الفتاة بفطرتها أكثر حياءً من الفتى، وإذا كان الحيـاء مـن أجمـل فضائلهـا، فـلا يعنـي هـذا أن الحيـاء يمنعهـا مـن إبـداء الـرأي أو الانخـراط في المجتمع؛ لكن في نفس الوقت يجب تنمية هذه الفضيلة في الفتاة منــذ صغرهـا، دون أن نُعلي الذكر على الأنثى، فالاعتراف بوجود خصـائص مختلفـة في كـل منهمـا لا يعني أن لهما قيمتان مختلفتان، أو أن أحدهما أرفع مـن الآخـر، فكلاهمـا لـه قيمـة شخصية تنبع مما يقدّمه للمجتمع ومن استغلاله لإمكانياته وخصائصـه علـى أفضـل وجه. وهنا يجب التأكيد على أهمية الفصل بين الجنسين بشكل معتدل، وقد يكـون الاختلاط بين الجنسين ضرورة في الفصول الدراسية في بعض البلدان؛ كما أننا يجب

أن نكون صريحين فنقول بأن حياتنا الحالية تفرض قدراً لا بأس به من الاختلاط الذي لا يمنع الشرع منه ما دام يتم بآدابه وضوابطه، فهنا يجب أن يكون الاختلاط منظّماً تحت مراقبة الأهل والمدرسة، وإذا كنا لا نُشجّع على الاختلاط كيفما اتفق خاصة في سن المراهقة حيث تكون الرغبات في أوجها، فلا أقل من أن يتعلم الطفل السباحة في هذا البحر وبشكل تدريجي قبل أن يغرق في أخطائه عندما يكبر نتيجة عدم تدربه على كيفية التعامل مع الجنس الآخر منذ الصغر. وعلى كل حال فمهما كانت الضرورات التي تفرض هذا الاختلاط بين الجنسين في مرحلة الطفولة، فلا بد من التأكيد على تهيئة كل من الذكر والأنثى بأن تكون شخصيته مناسبة للمجتمع الذي يعيش به، وليس من المستحب أبداً أن تكون الفتاة مسترجلة أو أن يكون الفتى مخنثاً، حتى لو كانا يعيشان في مجتمعات غربية؛ وترتفع قيمة الأهل فعلاً عندما يوجهون الطفلة لتلعب مع مثيلاتها دون أن يُخلق في نفسها عقدة من الجنس الآخر. ومثل هذا ما يحدث عندما يُنبه الصبي أن لا يأتي بحركات الإناث أو لا يرتدي ملابس نسائية، لأن ذلك إذا لم يتم مراعاته منذ الطفولة فسيُساهم في خلق جنس ثالث، بعيد عن فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها.

المبالغة في الحياء أو الحياء المَرضي:

في الوقت الذي نُحبذ أن تُنمى فطرة الحياء في الإنسان منذ طفولته لا بد أن نلفت النظر إلى كم هائل من المتوارثات الشعبية والعادات الخاطئة التي تجعل الحديث عن موضوع كالجنس أمراً من المحرمات، فالمتعارف عليه أن التعرض للجنس لا يصح أن يصدر من إنسان مهذّب، سواء كان سؤالاً يدور في رأسه حول هذا الأمر الهام أو جواباً يجب عليه أن يضطلع به بحكم قيمته الاجتماعية أو الدينية؛ وغالباً ما يُنظر إلى من يتناول موضوع الجنس على أنه رجل إباحي أو امرأة قليلة الحياء، فهناك حُجُب كثيفة أقامتها مجتمعاتنا بتقاليدها الخاطئة والبعيدة عن الدين، يحول دون اختراقها شوك القتاد!

فحديث الجنس برأي المجتمع لا يمكن إلاّ أن يكون من الوقاحة بمكان، مع أن هذا مُخالِف في الحقيقة لشرع الله الحكيم، وهدي نبينا الكريم وسيرة أصحابه الأطهار، فكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تناولت هذا الموضوع، والفكرة بحد ذاتها من صميم الدين الإسلامي، ولكن ما يُعاب حقاً هو الأسلوب الذي يجب أن تُقدّم فيه المعلومات الجنسية، وهذا ليس خاصاً بالجنس وحده بل إن من سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يُخاطِبَ الناس بما تعارفوا عليه وعلى قدر عقولهم، دون أن يكون هذا مانعاً للتغيير أو تصحيح المفاهيم الخاطئة.

يقول الأستاذ عبد الحليم أبو شقة في كتابه (تحرير المرأة في عصر الرسالة) في الجزء السادس منه:

((إذا فرضنا أن تجرَّأ أحد الكبار (والد أو مدرس) وفتح حديثاً يقصد به تقديم نصيحة في أمر من أمور الجنس فإنك ترى المستمعين قد استقبلوه بامتعاض، وقالوا لأنفسهم: ليتهُ سكت، وربما انصرفوا بعيداً أو حاولوا توجيه الحديث وجهة أخرى، وإذا حوصروا واضطُروا للإنصات ظلوا على مضض وكأن آذانهم ونفوسهم لا تطيق احتمال سماع مثل هذا الكلام الثقيل!! وإذا كان لا بد من حديث الجأت إليه ضرورة ملحة فلا بد أن يكون همسًا وبين جدران مغلقة بل محكمة الإغلاق، وكأنهم يأتون أمرًا خبيثًا منكرًا، ينبغي إخفاؤه عن أعين الناس وعن آذانهم، ثم لابد أن يمهّدوا للحديث تمهيدًا طويلاً ثم يلجون في الموضوع على استحياء وفي حرجٍ بالغ، ولا يكادون معه يُفصحون عما يريدون إلا بعد عناءٍ شديد ومجاهدة مضنية، وإذا عرضت للشاب أو الشابة مشكلة تتصل بالأمور الجنسية أو الأعضاء الجنسية حار في التماس التصرف الملائم، والجهة التي يمكن أن يقصدها بحثاً عن حل أو علاج، هل يتحدث مع الوالد أو الوالدة أم مع الخادم أو الخادمة، مع المدرس أو المدرسة، أم مع الزميل أو الزميلة، وغالباً ما يكون الحديث مع الخادمة أو الخادم، ومع الزميل أو الزميلة أهون منه مع الوالد أو الوالدة ومع المدرس أو المدرسة،

والسبب هو الحاجز الذي أقامه هؤلاء الكبار بينهم وبين أبنائهم وتلاميذهم، أقاموه بصورة غير مباشرة بِصَمْتِهم عن كل ما يتعلق بالأمور الجنسية سنوات طوال، وبصدهم للصغار حين يثيرون أسئلتهم الساذجة البريئة في مجال الجنس. وهذا مما ألقى في روع الأبناء منذ الصغر أن كل ماله صلة بالأمور الجنسية يُعتبر عيباً لا يجوز الخوض فيه، وأمر يحسن من باب الحياء أو الواجب البعد عنه بعد المشرقين، وهكذا صار من شأن المهذبين أن يُفضّلوا الصمت، ويتحملوا آثاره مهما كانت مزعجة مؤلمة، على معاناة الحديث، مع أن الحديث يمكن أن يُسهِم في علاج المشكلات، بل قد يكون فيه البلسم لجراح نفسية عميقة، وخلاصة الأمر أن ذلك الحياء المسرف ما هو إلا وضع نفسي نشأ ونما وتمكّن منّا، حتى ليستعصي علاجه إذا حاولنا العلاج، وذلك نتيجة أوهام وتقاليد بالية ما أنزل الله بها من سلطان لكننا توارثناها جيلاً بعد جيل، وكأنها دين نستمسك به ونلقى الله عليه، وما درينا أننا أسرفنا على أنفسنا، واتبعنا أهواءنا، وخالفنا شرع الله الحكيم، وهدي نبينا الكريم وسيرة أصحابه الأطهار)) (١٦).

الحياء في القرآن والسنة:

لقد وردت أحاديث كثيرة تساهم في إعلاء شأن الحياء، فقد أوصى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أصحابه قائلا: (**استحيوا من الله حق الحياء**) قالوا: إنا نستحيي من الله يا رسول الله والحمد لله، قال: (**ليس ذلك، الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة وآثر الآخرة على الأولى، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء**).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ مر أنه على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال رسول الله ﷺ: (**دعه فإن الحياء من الإيمان**) رواه البخاري ومسلم.

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: **(إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت)** رواه البخاري ومسلم.

وعن عمران بن حصين قال: قال النبي ﷺ: **(الحياء لا يأتي إلا بخير)**، فقال بشير بن كعب: مكتوب في الحكمة، إن من الحياء وقارًا، وإن من الحياء سكينة، فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفتك!. رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ ابن حجر: قوله: "والحياء شعبة من الإيمان" الحياء في اللغة تغيّر وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به، وفي الشرع خُلُق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، لهذا جاء في الحديث الآخر: "الحياء خير كله" ولكن استعماله وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب علم ونية، فهو من الإيمان لهذا، ولكونه باعثًا على فعل الطاعة، وحاجزًا عن فعل المعصية، ولا يقال: رُب حياء يمنع عن القول الحق أو فعل الخير، لأن ذلك ليس شرعيًّا".

وقال الحافظ أيضًا: "قال عياض وغيره: إنما جُعل الحياء من الإيمان وإن كان غريزة، لأن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى قصد واكتساب علم، وأما كونه خيرًا كله ولا يأتي إلا بخير فأشكل حمله على العموم، لأنه قد يصد صاحبه عن مواجهة من يرتكب المنكرات ويحمله على الإخلال ببعض الحقوق. والجواب أن المراد بالحياء في هذه الأحاديث ما يكون شرعيّاً، والحياء الذي ينشأ عنه الإخلال بالحقوق ليس شرعيّاً بل هو عجز ومهانة. وقد يكون موضوع قول الحق أو عمل المعروف له علاقة بالجنس الآخر، أو أن يكون الموضوع نفسه له صلة بالثقافة الجنسية أو ما إلى ذلك من ملابسات ضئيلة الشأن في ميزان الحق والواجب. فإذا حدث أي من هذه الملابسات فينبغي أن نسميه ضعفًا عن فعل الواجب، أو جبناً عن قول الحق، وهكذا نسمي الأشياء بأسمائها، ونُميّز الحياء الشرعي عن الخجل المرضي.

ولننظر الآن كيف صحّح أنس رضي الله عنه فهم ابنته للحياء الشرعي: فعن ثابت البناني قال: "كنت عند أنس وعنده ابنة له. قال أنس: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تعرض عليه نفسها، قالت: يا رسول الله، ألك بي حاجة؟ فقالت بنت أنس: ما أقل حياءها!! واسوأتاه.. واسوأتاه. قال: هي خير منك، رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها". رواه البخاري.

(ولدينا في القرآن والسنة نماذج ترسم لنا كيف لا يمنع الحياء من قول الحق أو فعل الخير، وإن كان الحق والمعروف لهما صلة بالأمور الجنسية أو بالجنس الآخر، صحيح أنه يمكن أن يحدث داخل النفس نوع من التوتر يصاحب القول أو الفعل، وهذا أمر محمود، وكثيرًا ما يلازم الحياء السوي. فقد وصف القرآن ابنة النبي شعيب عليه السلام: ﴿فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا﴾ [سورة القصص الآية: ٢٥]. فهنا فتاة تخرج للقاء رجل غريب، ومن الطبيعي بل ومن المحمود أن يصيبها قدر من الحياء، لكن أن يبلغ بها الحياء درجة تمنعها من الخروج لهذا اللقاء وتحقيق مصلحة واجبة أو مندوبة فهذا هو المرفوض المذموم).

تناول الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه للأمور الجنسية:

تمتلئ السنة المطهرة بالأمثلة على أن الحياء لم يكن يمنع الصحابة ولا الصحابيات من السؤال والاستفسار عن أدق الأمور، وهذه أمثلة على ذلك:

أولاً: روى أبو داوود والنسائي أن رسول الله عليه الصلاة والسلام طاف ذات يوم على نسائه يغتسل عند هذه وعند هذه، فقال له أحد الصحابة: يا رسول الله، ألا تجعله غسلا واحدا؟ قال: (**هذا أزكى وأطيب وأطهر**)؛ ولم يعنفه الرسول عليه الصلاة والسلام أو يخجل من الرد لأن الأمر طبيعي ليس فيه خنا ولا فُحش.

ثانياً: عن عائشة أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسل المحيض، فقال: **تأخذ إحداكن**

ماءها وسدرتها فتطهَّر فتحسن الطهور، ثم يصب على رأسها فتدلكه دلكاً شديدًا حتى تبلغ شئون رأسها، ثم تصب عليه الماء ثم تأخذ فرصة مُمَسَّكة فتطهَّر بها، فقالت: وكيف تُطهَّر بها؟ قال: سبحان الله تطهرين بها، فقالت عائشة –كأنها تخفي ذلك–: تتبعين أثر الدم، وسألته عن غسل الجنابة، فقال: تأخذ ماء فتطهَّر فتحسن الطهور أو تبلغ الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شئون رأسها ثم تفيض عليها الماء. فقالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين. رواه البخاري ومسلم.

ثالثاً: قد يستحيب المؤمن لما يصيبه من حياء سوي، فلا يواجه الموقف بنفسه، ويلجأ إلى وسيلة أخرى تحقق المصلحة دون مواجهة، وهذا ما يفعله صحابي جليل: فعن علي بن أبي طالب قال: "كنت رجلاً مذَّاء فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ (وفي رواية: لمكان ابنته) فأمرت المقداد بن الأسود فسأله فقال: **فيه الوضوء.** رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية عن أبي داود عن علي قال: "كنت رجلاً مذاءً، فجعلت أغتسل حتى تشقق ظهري" وفي رواية لابن حبان: عن المقداد بن الأسود أن علي بن أبي طالب أمره أن يسأل رسول الله ﷺ عن الرجل إذا دنا من أهله فخرج منه المذي ماذا عليه؟ فإن عندي ابنته، وأنا أستحيي أن أسأله. قال المقداد: فسألت رسول الله ﷺ فقال: **(إذا وجد ذلك أحدكم فلينضح فرجه، وليتوضأ وضوءه للصلاة).**

رابعاً: عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال النبي ﷺ: إذا رأت الماء. فغطت أم سلمة تعني وجهها وقالت: يا رسول الله.. أو تحتلم المرأة؟ **قال: نعم، تَرِبت يمينك. فبم يشبهها ولدها؟** رواه البخاري ومسلم.

خامساً: عن أبي موسى قال: اختلف رهط من المهاجرين والأنصار فقال الأنصار: لا يجب الغسل إلا من الدفق أو من الماء، وقال المهاجرون: بل إذا خالط فقد وجب الغسل، قال أبو موسى: فأنا أشفيكم من ذلك، فقمت فاستأذنت على

عائشة فأُذن لي، فقلت لها: يا أماه إني أريد أن أسألك عن شيء وإني أستحييك، فقالت: لا تستحيي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أمك التي ولدتك، فإنما أنا أمك، قلت: فما يوجب الغسل؟ قالت: على الخبير سقطت، قال رسول الله ﷺ: **إذا جلس بين شعبها الأربع ومس الختان الختان، فقد وجب الغسل**. رواه مسلم.

ولننظر هنا كيف يظن رجل أن طلب العلم من امرأة في أمر من الأمور الجنسية، يعتبر من الرَفَث، الذي ينبغي أن ينأى عنه الرجل الحيّي، فترد عليه عائشة في صراحة ووضوح، دونما حرج، بأن يدفع ذاك الظن الخاطئ.

على أن هناك مجالين لهما علاقة بالأمور الجنسية يفرض الحياء السوي الصمت الكامل فيهما:

المجال الأول: هو مجال أسرار المباشرة الزوجية، فيحرم على الزوجين التحدث بما مارسا من عملية الوقاع إشارةً أو كلاماً لما روى مسلم وأبو داوود عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: (**شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه ثم ينشر سرها**)

والمجال الثاني: هو مجال العبث واللهو والتندر بأمور تتعلق بالمتعة الجنسية، مما يزيح عنها رداء الصون والعفاف ويعرضها للابتذال، هذا فضلاً عما قد يثيره من الشهوة، لا سيما عند غير المتزوجين.

(بعد كل هذا نستنتج أنه لا حياء في تقديم الثقافة الجنسية المشروعة أو طلبها بل ينبغي أن نكون على ذكر من أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أنزل في كتابهِ الكريم من أمور الجنس شيئا كثيرًا، وفيه شواهد تطبيقية على أن ذكر الأمور الجنسية في مناسبتها لا يتعارض مع الحياء بوجه من الوجوه، وقد أنزل الله كتابه نورًا لعباده، ويَسَّره لهم ليتلوه جميعا ويتدبره الرجل والمرأة والشاب والشيخ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر الآية: ٤٠] كما ينبغي أن نكون على ذكر أيضا من أنه

ورد في السنة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (**كان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها**). رواه البخاري ومسلم. ولم يمنع هذا الحياء الجم- بل البالغ أقصى درجات الكمال، لم يمنع رسول الله ﷺ من أن يُعلّم الناس أمور الجنس، ويستمع إلى أسئلتهم وشكاواهم المتعلقة بالجنس في سماحة ويُسر، حتى وإن كانت بعض تلك الأسئلة والشكاوي صارخة التعبير. ونؤكد أنه ينبغي أن تكون لنا القدوة الحسنة في آيات كتاب الله العزيز وفي سنة رسوله الأمين فنتعلّم منهما النهج السوي في الحديث عن أمور الجنس نهجاً يتسّم بسموٍ في التعبير- مما يتوافق مع الحياء السوي، كاستعمال الكناية والمجاز، حيث يغنيان عن الحقيقة، والإشارة حيث تغني عن العبارة، والتلميح حيث يغني عن التصريح، والإجمال حيث يغني عن التفصيل، على أن الحياء السوي لا يتعارض مع نوع من التصريح أحيانا، أو مع شيء من التفصيل أحيانا، حتى يكون البيان أكمل بيان)[١٦].

لقد عالج القرآن الكريم في أدب كثيرًا من القضايا التي لها علاقة بالأعضاء التناسلية أو بالمتعة الجنسية، فقدَّم بذلك للمؤمنين والمؤمنات ثقافة جنسية رصينة، وكذلك فقد تأسَّى رسولنا ﷺ بالقرآن العظيم، وكذلك صحابته الكرام في بعده، فعالجوا جميع تلك القضايا في وضوح، وهم على أتم الحياء وأكمله في الوقت نفسه، فبدافع من الحياء كانوا يقفون من الحديث عند قدر الحاجة لا يتجاوزونها، وكانوا يتحرون الجد ويجتنبون الهزل وكانوا يقصدون المصلحة لا المفسدة، رائدهم دائماً العفاف والطهر لا المجون ولا الفجور.

(إن أعضاء البدن كله تشمله الطهارة والكرامة سواء كانت ضمن الجهاز التنفسي أو الجهاز الهضمي أو الجهاز التناسلي، وكذلك أعمال الإنسان كلها تشمل الطهارة والكرامة، إذا تَمّت وفق شرع الله، سواء أكانت أعمال التجارة، أو أعمال القتال أو أعمال المباشرة الجنسية، لذا كان من الطبيعي أن تُذكر أعضاء التناسل، وأعمال المباشرة الجنسية، وما يؤدي إليها وما ينتج عنها عندما تأتي

المناسبة، كما تُذكر أعضاء الأكل والشرب أو أعمال القتال عندما تـأتي مناسـبتها. وكما أنه لا حرج في ذكر اليدين والفم أو في ذكر الدم والدمع، فلا حرج في ذكـر السوأتين والفرج أو في ذكـر النطفـة والمني، وكمـا أنـه لا حـرج في ذكـر الجـوع والظمأ، أو في ذكر أكل الطعام وشرب الماء، فكذلـك لا حـرج في ذكـر المحيـض والطهر وفي ذكـر الرفـث إلى النسـاء ومـسّ النسـاء، مـا دامـت المناسبة مشـروعة، والأسلوب راقياً، والهدف هو مصلحة المؤمنين والمؤمنات في دينهم ودنياهم) (١٦).

ولعل الفهم الخاطئ لكلمة الحياء وكذلك أخطاء التربية في الطفولة كلها تـؤدي إلى تحريم كلمة الجنس بحيث إذا سمعها البعض يستنكر ويعترض ويصف المتحـدث بقلة الأدب وقلة الحياء رغم أن الرسول عليـه الصـلاة والسـلام وصحابتـه الأكـارم تكلموا في ذلك، فها هو عليه الصلاة والسلام، يُعلّم الصحابة أنه لا ينبغي للإنسـان أن يأتي امرأته دون مقدمات: (**لا يرتمي أحدكم على امرأته كما ترتمي البهيمة، اجعلوا بينكم وبين الجماع رسولاً) قالوا: وما هو الرسول يا رسول الله، قـال:(القبلـة والكـلام)**، وهي الممهدات حتى تُسـتثار المـرأة التـي قـد لا تكـون حـاضرة الشـهوة كـالرجل، والقرآن الكريم ذكر في مقام آخر طريقة الآداب نفسـها: ﴿نِسَـاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُـمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ﴾.

وسبب نزول الآية أن اليهود كانوا يقولون: إذا أتى الرجل زوجته من الخلف في القُبُل فإن الولد يأتي أحول، فكان الأنصار مثلهم، أما المهاجرون من قريش فكـانوا يستمتعون بالنساء مقبلات ومدبرات ومستلقيات، على أي شكل، فلما تزوج أحد المهاجرين امرأة من الأنصار وأرادها على هذا الأمر، قالت له: هذا لا ينبغي عندنـا، وبلغ الأمر إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآيـة، فـالقرآن الكريـم هـذا الدسـتور الإلهـي العظيم يقول: لا حرج عليكم مقبلة أو مدبـرة مـا دام في موضـع الحـرث. كمـا أن لنزولها سبب آخر وهو أن عمر بن الخطاب قال لرسول الله عليه الصلاة والسـلام: هلكتُ يا رسول الله، وفسر ذلك بقوله: غيرت رحلي الليلة، فسكت عليه الصـلاة

والسلام، فنزلت الآية السابقة. ومن هنا نفهم أمراً مهماً أيضاً أن قضية الجنس يُمكن أن تناقش لكن ضمن أسلوب رفيع من الحياء المحمود، وليس بأسلوب سوقي منحط.

بل لقد وردت في السيرة النبوية المطهرة بعض أحاديث صريحة وكيف كان الصحابة بل الصحابيات يعرضون أمورهم الجنسية على رسول الله ﷺ من أجل فتوى أو حكم، دون أن ينهرهم أو يُوبخهم، فكانوا يتكلمون بفطرية وبدون تكلف ودون أن يتجاوزوا الحياء المطلوب وهذه بعض أمثلة:

ما رواه البخاري ومسلم عن عكرمة أن رفاعة طلّق امرأته فتزوجها عبد الرحمن بن الزبير القرظي، قالت عائشة: وعليها خمار أخضر، فشكت إليها وأرتها خضرة بجلدها، فلما جاء رسول الله عليه الصلاة والسلام – والنساء ينصر بعضهن بعضا – قالت عائشة: ما رأيت مثل ما يلقى المؤمنات! لجلدها أشد خضرة من ثوبها. قال: وسمع زوجها أنها قد أتت إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ومعه ابنان له من غيرها، قالت: والله مالي إليه من ذنب إلا أن ما معه ليس بأغنى عني من هذه، وأخذت هدبة من ثوبها (وفي رواية: لم يقربني إلا هنة واحدة، لم يصل مني إلى شيء). (وفي رواية: فسمع خالد بن سعيد قولها وهو بالباب لم يؤذن له، فقال خالد: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به عند رسول الله ﷺ؟ فلا والله ما يزيد رسول الله عليه الصلاة والسلام عن التبسم) فقال زوجها: كَذَبَتْ والله يا رسول الله، إني لأنفضها نفض الأديم ولكنها ناشز وتريد رفاعة، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: **فإن كان ذلك لم تحلي له أو لم تصلحي له حتى يذوق عسيلتك –كناية عن لذة الجماع –** قال: وأبصر معه ابنين له، فقال: بنوك هؤلاء؟ قال: نعم، قال: هذا الذي تزعمين ما تزعمين، فوالله لهم أشبه به من الغراب بالغراب.

فهذه امرأة تشكو ضعف زوجها الجنسي، وزوجها يردّ عليها، والرسول عليه الصلاة والسلام يبتسم من كلامهما، ويحكم للرجل ويُنهي القضية بطرفة، ومن هنا

نستنتج أن المرأة تشكو ضياع حق من حقوقها – حسب ظنها– وأن الرجل يتباهى بقوته الجنسية، ولولا أن المقام يستدعي ذلك لما سكت الرسول عليه الصلاة والسلام، فالأمر يجب أن يبقى سراً بين الزوجين، لكن عندما يبدأ ليكون مثار خلاف بينهما فإنهما لا يدعانه يستفحل، بل يشكوان حالهما لإنهاء القضية، والمُلفت بالقصة أن الحديث كان أمام ولدين، فهذه ثقافة جنسية للأولاد مباحة، وإلا فقد كان بإمكان الرسول عليه الصلاة والسلام أن يطلب خروج الولدين، ولكنه لم يفعل من أجل نمو نفسي وجنسي سليم للولدين، ولا يمكن التنبؤ بأبعاد مثل هذه المصارحة أمام الأولاد في عصرنا لأن الزواج كان من السهولة بمكان في عصرهم، فما إن يبلغ الفتى حتى يجد سكناً وقراراً بالزواج عكس ما نحن عليه الآن.

وهناك كثير من الأمثلة الأخرى من العهد النبوي منها عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي عليه الصلاة والسلام وقد ظاهر من امرأته، فوقع عليها فقال: يا رسول الله إني قد ظاهرت من زوجتي فوقعت عليها قبل أن أُكفِّر، فقال: ما حملك على ذلك يرحمك الله؟ قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر، قال: فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله.

وعن عكرمة قال: كان عبد الله بن رواحة مضطجعا إلى جنب امرأته فقام إلى جاريته، فذكر القصة في رؤيتها إياه مع الجارية وجحده ذلك، والتماسها منه أن يقرأ القرآن لأن الجُنُب لا يقرأه، فقال هذه الأبيات:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فقالت: آمنت بالله وكذبت بصري. فأُعلم النبي عليه الصلاة والسلام فضحك حتى بدت نواجذه.

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: خرجنا محرمين فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: **من كان معه هدي فلُيقم على إحرامه ومن لم يكن معه هدي فليحلل. فلم يكن معي هدي فحللت، وكان مع الزبير هدي فلم يحلل. قالت: فلبست ثيابي ثم خرجت فجلست إلى الزبير فقال: قومي عني، فقلت: أتخشى أن أثب عليك؟!**

فهاهي أسماء ذات النطاقين رضي الله عنها تنقل القصة بتمامها وحذافيرها وتختمها بما كان من طرفة بينها وبين زوجها، وكان بإمكانها أن تخفي هذا الجزء الأخير، كي لا تُتّهم بقلة الحياء لكن السمو والصراحة والصدق الذي كانوا يتعاملون به يجعلها تخبر بكل شيء لِتُعَلِّم من بعدها أن الجنس ليس معيباً ولا حراماً وإنما هو جزء مهم من حياة الإنسان الطبيعي.

وورد عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت ابن أخيها عما إذا كان يُقَبِّل زوجته وهو صائم، وأعلمته أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفعل هذا، وإذا كنّا لا نحبذ أن يتبادل الزوجان القُبل والغزل أمام الآخرين، فليس هذا مبرراً للتعقيد الذي تعيشه مجتمعاتنا في هذا الأمر، بحيث يصبح حديث الجنس من "التابو" وما نرمي إليه فقط هو إعلاء شأن الفطرة، وكما أن الحياء فطرة يجب إعلاؤها فكذلك الجنس غريزة يجب عدم إنكارها.

وتجدر الإشارة إلى أن تعقد الحياة الحالية واختلاف المؤثرات وتنوع الثقافات يجعلنا نفهم هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بمفهوم شمولي أوسع، فالجنس لا يبدأ في غرفة النوم فقط، بل لا بد من تفاهم الزوجين خارجها ولا يمكن أن يتم حوار الأجساد داخلها بشكل يقوم فيه بمؤداه ومغزاه الإنساني إذا لم يكن ثمة حوار وتفاهم قبل ذلك؛ كما يجب التنبيه إلى المفاهيم المغلوطة المنتشرة في كثير من البيئات المحافظة والتي تمنع الفتاة من التعبير عن أبسط رغباتها في الطفولة مما يجعلها عاجزة عن التعبير عن حبها لزوجها ورغبتها في اللقاء الجنسي معه، وهذا الأمر ليس عيباً ولا حراماً بدليل أنه وصف الله سبحانه للحور العين في الجنة ﴿عُرُباً أَتْرَاباً﴾ والعروب هي المتحببة لزوجها بالكلام وما شابه، وحسن التبعل للزوج فيه أجر كبير.

أهداف الجنس في الإسلام:

انطلاقاً من عبارة (إن التربية الجنسية الصريحة لا بد لها من ثقافة جنسية صريحة) يجب أن نعيد النظر في المفاهيم الخاطئة إذا كانت راسخة لدينا قبل أن نحاول نقلها لأبنائنا، فلسنا حيوانات تجري وراء غرائزها بدون ضابط من عقل أو وازع من دين، وفي نفس الوقت يجب أن نعترف أننا لسنا ملائكة لننكر الغرائز التي وضعها الله فينا لحكم بالغة وبين لنا طريق ممارستها ضمن إطار الزواج المقدس الذي من أهدافه ما يلي:

أولاً: استمرار النوع الإنساني من خلال عملية التناسل، فغريزة حب البقاء في الإنسان موجودة، وإلا لما رغب آدم وحواء بالأكل من الشجرة المحرمة عندما وسوس لهما الشيطان أنها شجرة الخلد والمُلك الذي لا يبلى، والغريزة الجنسية وإن كانت مفصولة عن هذه الغريزة في حب البقاء، لكنها تؤدي مؤداها الطبيعي، فالولد هو استمرار للوالد؛ هذا من الناحية النفسية، أما من الناحية الاجتماعية فالزواج هو الوسيلة لتحقيق الغاية من خلق آدم ألا وهي خلافة الله في الأرض وإعمارها بالذرية والنسل، فالجنس هو وسيلة للتكاثر والتناسل، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، ﴿يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً﴾.

ثانياً: إشباع الغريزة الجنسية بحد ذاته يحقق متعة للإنسان قد تفوق أي متعة أخرى، وكما بينا أن الدين الإسلامي هو الدين الذي يُطلَق عليه بحق الدين الإنساني لأنه لا يُنكر على الإنسان غرائزه، وإنما يُنظمها ويُهذبها ضمن إطار المتعة الحلال؛ أما في الأديان الأخرى السماوية فحالة الرهبانية في المسيحية تمثل حالة الإنسان المثالي الذي يقهر جسده لإعلاء قوة الروح، وهذا المفهوم موجود في تعاليم الأديان غير السماوية مثل البوذية والهندوسية. بينما نعلم أنه حينما طلب بعض

الصحابة من النبي ﷺ أن يَخْتصوا أو يتبتَّلوا لم يـأذَن لهـم بهـذا، كمـا أنكـر علـى بعض الصحابة ابتعادهم عن النساء، وقال: (**من كان موسـراً لأن ينكـح ثـم لـم ينكـح فليس مني**) رواه الطبراني والبيهقي، وأعلن عليه الصلاة والسلام حبه للنساء والعطر – وهذا قمة الذوق الإنساني– ولكنه بيّن أن ذلك لم يكن ليشغله عـن الأحـب إلى قلبه فقال: (**حُبب إلى من دنياكم: العطر والنساء، وجُعِلت قرة عيني في الصلاة**).

ثالثاً: أوضح القرآن الكريم أن من أهم أهداف الـزواج هـو السـكينة، فقـال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، فهذه المودة والرحمة هـي مقصـد مـن مقـاصد الـزواج وركـن مـن أركان السـعادة الزوجيـة، لكـن مفهـوم السـكينة لا يكـون إلا بالإشبـاع العـاطفي المترافق مع الإشباع الجسدي، فعندما تلتقي النفـوس المُحبـة عـبر جسـور الأجسـاد تسكن النفس إلى الأخرى بعلاقة حميمية لا توجد إلا بين الزوجين، ولذلـك كـانت هذه العلاقة آية من آيات الله لأنه يصعب فك أسرارها واكتشاف كنهها.

رابعاً: المحافظة على الأنساب وحماية المجتمع من الانحلال الخلقـي؛ فبـالزواج يفتخر الأبناء بانتسابهم إلى آبائهم، وهـذا الانتسـاب مهـم لتحقيـق الأمـن النفسـي والانتماء الاجتماعي للفرد، كمـا أن الـزواج حصـن حصـين ضـد أوبـاء اجتماعيـة ذميمة وأمراض جنسية رهيبة، وفيما ذكره التاريخ عن اليهود أنهم كانوا يُعلون مـن قيمة الزواج لدرجة أنهم كانوا يمنعون من لم يـتزوج مـن تَسلُّم منـاصب مهمـة أو مسؤوليات جسمية، والحق يقال إن الزواج هـو ارتقـاء في سلّم الكمـال الإنسـاني وتجربة فريدة لا تتحقق إلا في هذا النوع من الرابطة الحميمة.

خامساً: زيادة عُرى التواصل بين أفراد المجتمع بخلق علاقات جديدة بـين الأسـر بعضها بعضاً عن طريق المصاهرة وقرابة النسب، وهنا ندخـل في مفهـوم صلـة الرحـم التي هي من أهـم المبادئ في ديننـا والتـي ضـاعت منّـا في زحمـة الحيـاة الدنيـا ومشـاغلها ومطالبها التي لا ترحم أو تاهت في خضم ملذّاتنا ومُتعنا الأنانية التي لا تنتهي، فبدل أن

يُعتبر الصهر ابناً والكنة بنتاً كما هي حكمة الشرع من الزواج تجد الاستعلاء حتى بين الزوجين أحدهما على الآخر، ومن هنا فإن الثغرات الاجتماعية أكثر من أن تسد.

ومن هنا أيضاً نجد أنه قلما يُنظر إلى الزواج من هذه النواحي الخمسة، وإلا فإن من السهل عندها أن نعرف لماذا كان للجنس قيمة عليا قدسها الإسلام حين قال عليه الصلاة والسلام: (**وفي بضع أحدكم صدقة**) أي رغم أنه شهوة ومتعة لكنه قربى إلى الله لما فيه من معاني الصلة والرحمة والتواد والسكن، وهذا ما تؤديه الآية الكريمة من معاني: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ﴾ وهذا تعبير كريم آخر يدل على مدى حميمية هذه العلاقة فهي جنسية جسدية أولا لأن الرفث هو الجانب الجنسي من الجماع، لكنها عاطفية روحية ثانيا فليس أستر ولا ألصق ولا أزين للإنسان من اللباس، فهذا التعبير القرآني يحمل إيحاء بهذه المعاني ليقدس هذه العلاقة التي ينظر إليها بعض المسلمون للأسف على أنها علاقة منحطة وحيوانية بينما هي في الحقيقة رفعت من قيمة الإنسان درجات إذا علم مغزاها وطبقها كما أراد الله سبحانه.

ويجدر التنبيه هنا ألا يجعل من مفهوم (**وفي بضع أحدكم صدقة**) ميلاً كلياً إلى إشباع الشهوة وقضاء الوطر بحيث يقعد المسلم عن مهماته التي خُلق لها، وخاصة نشر الدين وإعلاء كلمة الله بالطرق الدعوية المتاحة، فديننا دين التوازن الذي يؤدي لكلٍّ ذي حق حقه، وإذا تعارض الواجب الجهادي أو الدعوي مع مصلحة الزوجة والأولاد والمعاش فينبغي على المسلم تقديم ما يحب الله ورسوله على هواه الشخصي، وصدق الله القائل: ﴿قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾.

الفصل الثالث عشر

التربية الجنسية في الأسرة

يقول الكاتب (كوستي بندلي) في مقدمة كتابه" كيف نواجه أسئلة أولادنا عن الجنس":

" الإعلام الجنسي لا يحتاج فقط إلى توافر المعلومات اللازمة عن الجنس بكافة نواحيه من تشريحية وفسيولوجية ونفسية فحسب، مضافة إليها معلومات عن تدرج الحاجة إلى المعرفة الجنسية لدى الولد، وعن الأسلوب التربوي الصحيح لإشباع هذه الحاجة لديه، وفقًا للمراحل التي يمر بها، إنما يحتاج علاوة على ذلك إلى مراجعة الأهل لمواقفهم العميقة من الجنس، ومحاولة تصحيح ما اعوج منها، وهو ما يعني ضرورة مراجعة مواقفهم المعاشة وتطويرها نحو الأفضل، فالتربية عملية تبادلية، والوالدان لا يربيان أولادهما فحسب، بل يتلقيان منهم بالمقابل تربية تقودهم إلى مزيد من الاكتمال والنضج".

هذه المقولة تطرح سؤالين هامين:

أولاً: ما مدى المعرفة الجنسية التي يجب أن يتحلى بها الآباء والأمهات ليستطيعوا مناقشة هذه المواضيع الحساسة مع أبنائهم وبناتهم؟

ثانياً: ما هي المعلومات اللازم إيصالها إلى الأبناء وما هو العمر المناسب لكل معلومة؟

وللإجابة عنهما خاصة السؤال الأول نؤكد أن على الزوجين أن يتمتعا بالثقافة الجنسية المناسبة، وقد بينت في الفصل السابق (التربية الجنسية والدين) على ضرورة فهم الزوجين لمعنى الجنس الإنساني في حياتهما الزوجية؛ إذ إنه قد آن الأوان أن تكف مجتمعاتنا العربية عن النظر إلى الجنس من خلال إحدى زاويتين متناقضتين: إما نظرة

مقتبسة من الثقافات الأخرى التي دخلت على الدين الإسلامي نتيجة احتكاكه بها إبان عصور الانحطاط، والتي أعطت الأهمية للقيم الروحية على حسب رغبات الجسد فنظرت للجنس على أنه قذارة وعيب ودنس؛ أو نظرة معاكسة مُستمدة تماماً من المفاهيم الغربية العصرية التي أعلت الجسد على الروح بحيث تصبح المتعة الجسدية الآنية هي الغاية من الجنس سواء تم بطريق شرعي أو غير شرعي.

ورُبّ سائل يسأل: ما ضرورة الثقافة الجنسية للزوجين؟ وإذا كانت الحيوانات والنباتات تتكاثر بالطبيعة والخلقة، فلماذا يكون الإنسان مختلفاً؟ ولماذا كان أجدادنا يتناسلون ويتكاثرون بدون أي ثقافة جنسية؟

والحقيقة أن الإنسان يختلف عن الحيوان والنبات بشعوره الإنساني ورغبته بالتواصل وبأن يكون محباً ومحبوباً في الوقت نفسه، وحتى خبراء علم نفس الحيوان – وهي تقليعة غربية – أضحوا يفسرون التصرفات الغريبة للحيوانات المدللة كالكلاب والقطط بإرجاعها إلى الحاجة إلى الرِفق والحب، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فأجدادنا الأوائل كانوا على الفطرة وقد فهموا الإسلام على أنه الثوب السابغ للفطرة الإنسانية لا ينكر أشواق الروح ولا يلغي حاجات الجسد. وعلى سبيل المثال هناك فرق كبير بين ثقافتنا الحالية التي تنظر إلى المرأة الراغبة بزوجها على أنها امرأة غير سوية وبين نظرة ديننا كما فهمه أجدادنا السابقون، وهذا المثال من العهد العمري أكبر دليل على ذلك:

بينما كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتفقّد رعيته ليلاً، سمع صوت امرأة تُنشد في الليل شعراً فتقول:

تطاول هذا الليل واخضلّ جانبه ... وأرّقني ألا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله لا ربّ غيره ... لحرّك من هذا السرير جوانبه

مخافة ربي والحياء يصدني ... وأكرم بعلي أن تنال مراكبه

فضرب الباب عليها ورفع صوته لتعرفه، فلما أكثر عليها فتحت له، فسألها عن زوجها فقالت له: إنه غائب في بعث كذا وكذا، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرِّح فلان بن فلان، فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك، ثم دخل عمر على ابنته أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها وسألها: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: شهرًا واثنين وثلاثة، وفي الرابع ينفد الصبر، فجعل ذلك أجلاً للبعث؛ أي منع أن يغيب الرجل عن أهله أكثر من أربعة أشهر، حتى لو كان لأمرٍ مهمٍ كالجهاد؛ فهذا أمير المؤمنين منذ ١٤ قرناً، بدل أن يعيب على هذه المرأة ويطلب منها الصمت تَبنّى مشكلتها فلبّى كل النساء المتحرقات شوقاً لأزواجهن، وذلك لأنه فَقِه أن الإسلام هو دين الفطرة الصافية وليس تقاليداً بالية.

ما هي التربية الجنسية وما أهميتها ومن يقوم بها؟

يُقصد بالتربية الجنسية تلك المعلومات والحقائق العلمية المتعلقة بالنمو الجنسي والفرق بين الذكر والأنثى ومظاهر البلوغ وحقائق التكاثر وكل ما له علاقة بهذا الموضوع الحيوي من الناحية البيولوجية والنفسية والاجتماعية، على أن تُقدَّم للناشئ بشكل يتفق مع قيم الدين الحنيف ويتماشى مع الضوابط الاجتماعية والأنماط الثقافية السائدة شرط أن لا تخرج هذه الضوابط والأنماط عن إطار المصلحة العامة والفردية، وحيثما وجدت المصلحة فثَمَّ شرع الله.

وتنبع أهمية التربية الجنسية من أن الرغبة الجنسية وسيلة لغايات مهمة كما بيَّنتُ في الفصل السابق فلا بد من إيصال هذه المفاهيم للناشئين، وإذا لم نوفر لهم معلومات صحيحة ومن مصادر آمنة سوف نجدهم مدفوعين للتقصي بطرائقهم الخاصة، وتكون مصادرهم في هذه الحالة إما الكتب الرخيصة أو أفلام الجنس الإباحية أو الصور الفاضحة أو شلّة أصدقاء السوء. إن طريقة منع المعلومات السليمة وحجزها يجعل الناشئ يطبق قاعدة كل ممنوع مرغوب، فإذا لم يصل إلى معلومات بطريق آمنة سوية فسيبحث في دهاليز الأسرار، وعالم الإنسان منذ نعومة

أطفاره هو الفضول والاكتشاف، فلا بد من إرواء هذه النزعة بشكلٍ سليم متناسب مع المرحلة العمرية والظروف المحيطة. ويجب أن تُقدَّم هذه المعلومات في النور كي لا يترسخ في ذهن الناشئ أن الجنس إثمٌ وعيب، وكي يتمكن من فهم وظيفة الجنس الصحيحة ودوره المهم في حياة الإنسان.

(من الطبيعي أن يتعامل الولد مع موضوع الجنس بعفوية ومن دون تعقيدات عالم الكبار. فمن خلال حبه للاستطلاع والمعرفة يبدأ الولد اهتمامه بجسده وبما يشعر به، وهذا يعني أن الاهتمام بالجنس لا يبدأ عادة بشكل فجائي وإنما بشكل متدرج وبطيء. ومن البداية الحسنة أن يجيب الأهل على تساؤلات ولدهم عن الجنس والأعضاء الجنسية منذ المرحلة التي يبدأ فيها طرح مثل هذه الأسئلة. ويعين هذا البدء المُبكّر الولد كما يعين الأهل الذين يشعرون بحرج شديد عندما يُؤخّرون الإجابة "حتى يكبر الولد". فإجابة ولد في الثالثة من عمره بأسلوب بسيط يفهمه أسهل من الحديث معه وهو في الثالثة عشرة من عمره. حاول أن تساعد الولد على اكتساب المعلومات الصحيحة ولكن وفق طبيعة عمره ومرحلة نموه. وساعده كذلك على تقبل هذه المعلومات كما يتلقى منك معلومات عن الأمور الحياتية الأخرى، وبذلك يتعلم الولد أيضا الصراحة والانفتاح مع والديه) (٤)

إذن من المهم التأكيد على أن التربية الجنسية لا تبدأ من المراهقة ومن سن البلوغ، لأن اهتمام الطفل بهذه الأمور يبدأ من سن مبكرة حيث يكون مهتماً بمعرفة الفروق بين جنسه والجنس الآخر، فدور الأسرة ضروري في هذه الناحية، وتتابع المدرسة هذا الدور بمجرد أن تصبح مسؤولة عن الناشئ. والحقيقة أن التربية الجنسية ليست مهمة فردية بل هي مهمة كل أفراد المجتمع الناضجين لأنها جزء من التربية العامة، وهذه لا تقتصر مهمتها على فرد دون الآخر، بل إن الوالدين والمربين وعلماء الدين والأخصائيين الاجتماعيين والأطباء النفسيين يجب أن يُساهموا في هذه العملية، كلٌّ بحسب مستوى ثقافته واطلاعه وتخصّصه، ولوليّ

الأمر دور كبير هنا، فلا يجوز ترك الأمر على عواهنه يخوض فيه كل من هب ودب، فنحن نريد للجيل أن يكون متحرر الذهن من الوصاية والتقليد والآبائية ولكن بنفس الوقت لا يجوز أن نأخذ التجارب الغربية على أنها خيرٌ محض، وهذا ما سنناقشه في الفصل القادم إن شاء الله.

ومن الواجب أن نُدرك أن التربية الجنسية عملية مستمرة وممتدة وشاملة ومسؤول عنها الأب والأم والأستاذ والداعية والأخصائي الاجتماعي، وينبغي أن لا نسأل متى نبدأ التربية الجنسية لأولادنا بل أن يكون السؤال كالتالي: كيف تتم التربية الجنسية بشكل يتناسب مع الأعمار المختلفة؟

إن مشاهدة تلقيح الأزهار قد يفيد في مرحلة ما، وتربية حيوانات أو طيور قد يفيد في سنة تالية، وولادة طفل في العائلة فرصة لشرح معاني الأبوة والأمومة في وقتها المناسب، وسماع خبر من التلفاز عن الاستنساخ أو التوائم السيامية والسؤال حول ذلك يشكل فرصة مختلفة، وملاحظة التغيرات الهرمونية مناسبة لمرحلة أخرى؛ وبذلك يستطيع أولادنا معرفة حقيقة ذواتهم والتعرف على أجسادهم وتلافي المفاهيم المغلوطة الناجمة عن الكبت الموقِع في بحار اليأس والإحباط والاضطرابات السلوكية، وكذلك الوقاية من الأمراض الجنسية الناتجة عن الفهم الخاطئ لوظيفة الجنس وأهدافه الأساسية في حياة الإنسان.

أما طريقة تقديم المعلومات فتكون بشكل مُبسّط متفق مع عمر الناشئ وقدراته الذهنية ومتناسب مع السؤال، فالطفل في طفولته الباكرة يهتم بالفروق بينه وبين أخته مثلا فيسأل عنها وفي مرحلة أكبر يهتم بمعرفة عملية الإنجاب ولماذا لا يقوم بها الأب، فلذلك لا تقدم المعلومات الجنسية مرة واحدة لكن على حسب السؤال الذي يطرحه وحسب ما يكون مهيئاً لتقبل الإجابة، فقد تحمل الإجابات نفس الفكرة لكن يختلف الأسلوب باختلاف المرحلة العمرية والبيئة الاجتماعية، فطفل يتربى في مجتمع غربي ويحمل أصدقائه مفاهيم جنسية خطيرة لن تكون أسئلته

بمحدودية أسئلة طفل ينشأ في مجتمع محافظ، ومراهق في مدرسة وحيدة الجنس أو بيئته بعيدة عن الاختلاط لن يكون لديه نفس تساؤلات المراهق بمدرسة مختلطة، وقد يكون الجو المتشدد مرتعاً لتصرفات سيئة مختفية لا يسأل عنها أحد، وبالتالي فكل من هؤلاء يتقبل إجاباتنا حسب محيطه وبيئته وظروفه النفسية أيضا.

(حاول أن تكون إجاباتك بسيطة ومباشرة وصحيحة من غير أن تعقّده بتفصيلات علمية فوق فهمه وطاقته. وحاول أن لا تعطيه انطباعاً أن الأمور الجنسية أمر معيب بالضرورة أو تعطيه الانطباع أنك لا تسمح له بالحديث في مثل هذه المواضيع. وحاول أيضا من طرفك أن تتكلم معه بالطبيعة التي تتكلم معه فيها في قضايا الحياة الأخرى) (٤).

ماذا نقول لأولادنا عن الجنس:

لا بد من الصدق مع الطفل لأنه يستطيع قراءة تعابير الوجه وتفسير نبرات الصوت بسبب حساسيته، وبالطبع كلما كبر الطفل أكثر كلما أصبحت إمكانية فتح باب التساؤل والنقاش وحب المعرفة في هذا الجانب أكبر. والمشكلة تحصل عندما يتهرب الوالدان من الإجابة لأنهما أحيانا لا يملكان إجابة مناسبة أو لأنهما يعتبران أن إجابتهما قد تفتح المجال أمام مزيد من التساؤلات المحرجة وقد تمس حياتهما الزوجية الخاصة وعلاقتهما الجنسية الحميمة إضافة طبعاً لما ذكرته من ترسخ مفاهيم الحياء الخاطئة في أذهان البعض.

أما الحقيقة فهي أن الأمر قد لا يتعدى في ذهن الطفل الصغير أكثر من مجرد أسئلة تنبع من فضوله الفطري وحبه للمعرفة، ويجب على المربي أن يشبع هذه الناحية لأن التهرب من أسئلة الطفل أو تجاهلها قد يؤدي إلى أن يتخذ موقفاً خاطئاً من الجنس في حياته المستقبلية، أو أن يبحث عن إجابات لأسئلته من مصادر غير أمينة كالأصدقاء والخدم؛ فالخطوة الأولى هي أن يكون لدى المربي الاستعداد ليناقش هذا الأمر مع الطفل

ويجيب على تساؤلاته. وهذه العلاقة مع الطفل تعطيه الثقة بنفسه وتمنحه الثقة بوالديه أيضا، ليكونا له المرجع الآمن في طفولته ومراهقته وشبابه.

وفي هذا تقول الدكتورة ماري تيريز خير بدوي، الاختصاصية في علم النفس: (المشكلة أنه في ظل المناهج المطبقة حاليا ونمط التربية التقليدية السائدة، ننتظر حتى يبلغ الولد سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة لننقل إليه المعلومات المتعلقة بوظائف الأعضاء وهو في هذه السن يكون قد سبق له و"جمع" هذه المعلومات. وما يحتاجه هو الكلام عن الشق العاطفي لأنه بدأ يعي جسده ولديه قلق بالنسبة للأحاسيس والتغيرات الجسدية والهرمونية الكثيرة التي يختبرها والتي لن يتمكن من الكلام عنها إن لم يكن ثمة جو من التواصل والراحة والصراحة بينه وبين أهله وهو شرط ضروري ليستطيع الأهل القيام بمسؤولياتهم في ما يتعلق بالتربية الجنسية التي تبدأ في سن مبكّرة جداً عندما يدرك الطفل أن هنالك جنسين، في عمر السنتين والنصف، ويبدأ في طرح الأسئلة).

وهنا تشدد الدكتورة بدوي على ضرورة التزام الأهل في إجاباتهم بحدود السؤال آخذين بعين الاعتبار سن الطفل وقدرته على الاستيعاب وإمكانياته العاطفية والفكرية، وتشرح ذلك قائلة:(نتبع الطفل، إذا سأل نجيب، وإذا طلب المزيد نعطيه، وإذا توقف نتوقف؛ لأن ذلك معناه أنه اكتفى بالجواب، نجيبه فوراً عن أسئلته ولا نؤجلها إذ يجب أن يحس بأننا نملك إجابة عن تساؤلاته وذلك لأن أسئلته نابعة من قلقه، ومعرفته أن أهله يملكون الإجابة تُطمئنه، مما يعزز ثقته بهم ليستطيع أن يطرح أي سؤال يقلقه بدل أن يسأل أحد رفاقه الذي قد يشوه معلوماته حول الموضوع مما قد يخلق عنده قلقاً أكبر ويشعره بعدم الأمان، كما يجب الحرص على أن تكون الإجابات صحيحة وأن تُكمل بعضها فتكون إجاباتنا الأولى أساساً نبني عليه لاحقاً حتى يصل الطفل إلى عمر تكبر فيه أسئلته ويصبح مهتماً بالتفاصيل عندها نستطيع أن نُحضر له كتبا أو صورا حتى يصبح في العمر الذي يبتعد فيه عن أهله فيبدأ بتوجيه الأسئلة إلى أساتذته في المدرسة).

وتضيف: (الأهل حين يتجنبون الإجابة عن أسئلة أطفالهم إنما يفعلون ذلك لأنها تحرجهم، في حين أن الطفل الذي لا يملك أية فكرة مسبقة عن الموضوع يتلقى المعلومات ببساطة شديدة ولا أدري ما المحرج في إخبار الطفل من أين خرج؟ أنا مثلاً أفسر للأولاد أن هنالك مكان بين رجلي الماما مخصص لخروج الطفل هو في الأصل صغير جدا لكنه يتسع "كالمغيطة" ليسمح للطفل بالمرور ثم يعود بعدها لحجمه العادي. مع الإشارة إلى أن الطفل في عمر الثالثة وأحيانا أكبر يهمه من أين خرج وهو لا يسأل كيف دخل ولن يسأل قبل أن يصبح في السادسة أو السابعة وسؤاله يدل على استعداده لاستيعاب إجاباتنا شرط أن نلتزم بالحدود التي ذكرناها سابقا. يبقى أن نوضح أمراً مهماً جداً وهو أنه منذ الطفولة يجب أن نشرح للطفل أن هنالك أشياء "خاصة" به وحده وأشياء أخرى يستطيع أن يشارك بها غيره. مثلاً مسألة التعري ولمس الأعضاء الجنسية أمام الآخرين هذا الموضوع مهم جداً وهو يساعدنا على حمايته من التحرش به من قبل أشخاص شاذين جنسياً فعندما نعلمه أن جسده خاص وأن لا أحد يستطيع أن يلمسه في"أماكنه الخاصة" نكون قد شجعناه على الدفاع عن نفسه وعلى إخبارنا عما تعرَّض له. وما قيل عن الغير يطبق على الأهل فجسد الطفل ليس ملكاً لهم وبالتالي عليهم أن يمتنعوا عن مداعبة أعضاء أطفالهم من باب " التغنيج" وإلا وقع التناقض بين ما شرحوه لهم وما يفعلونه بهم).

ومن باب موافقة د. بدوي على ما أوردته هنا من كلامها، قد يفيد إخبار القارئ الكريم أني اتبعت مع أولادي نفس الأسلوب تقريبا، وأذكر أن ابني وكان بعمر ست سنوات رأى في عيادتي لولبا لمنع الحمل، فسألني عنه فأجبته أنه كي يمنع المرأة من أن تحمل من زوجها إذا لم يكونا يرغبان بالمزيد من الأطفال؛ فسألني عن كيفية حصول الحمل، فأجبته بطريقة قريبة إلى ذهنه وبرسم مبسط كيف أن خلية تأتي من الأب وخلية تأتي من الأم ويلتقيان داخل رحم الأم ليشكلا خلية واحدة

كبيرة ستتطور إلى الجنين فيما بعد. وفي عمر أكبر سألني وأخوه الأصغر عن كيفية الولادة وفيما إذا كنت أشق بطن الأم لاستخراج الجنين، فشرحت لهم أنه ليس كل الولادات تتم بعملية قيصرية بل إن أغلب الولادات تتم عن الطريق الطبيعي وهو أن للأم فتحة خاصة قريبة من مكان التبول تتسع بقدرة الخالق ليستطيع الجنين أن يمر عند الولادة وتعود لحجمها الطبيعي فيما بعد. وعندما بلغ الثانية عشر من العمر سألني عن معنى عبارة سن الحلم، فشرحت له ببساطة وبابتسامة أنها تعبر عن سن البلوغ أي عندما يبلغ الطفل مبلغ الرجال فيرى حلماً أنه يقبّل فتاة فيجب عليه الاغتسال بعد أن يستيقظ قبل أن يصلي، وأردفت قائلة: وأنت بعد سنتين يجب أن تفعل هذا إذا رأيت حلماً، فأجابني ببراءة: أنا لا أرى أحلاماً!

(وقد يسأل الولد هل وضع الأب للبذرة في بطن الأم مؤلم فيجاب بأنه غير مؤلم بل على العكس ممتع للوالدين. وإذا سأل السؤال المعهود: كيف يخرج الطفل من بطن أمه؟ فيمكن أن تشرح له ببساطة أن للأم- ككل النساء- فتحة طبيعية قريبة من فتحة البول، وكما أن للأب فتحة صغيرة حيث تخرج البذرة منها، وبذلك يخرج الطفل من فتحة الأم هذه في أسفل بطنها عندما يكبر ويصبح طفلاً كاملاً)[٤]

إذن ليس المقصود بالتربية الجنسية موضوع اللذة والمتعة بين الرجل والمرأة والذي قد يفهمه البعض بشكل خاطئ، إذ لا يجوز أن نفتح عيني الطفل على ما لا يعرفه من معنى اللذّة الحسية، ولا داعي لأن نتطرق إلى موضوع المتعة واللذة قبل الاقتراب من سن البلوغ، حيث يقوى الشعور بالجنس الآخر، أما العواطف والحب بين الأبوين فقد ذكرتُ في فصل سابق ضرورة أن يشعر الطفل منذ صغره بمحبة أحد الأبوين للآخر واحترامه له وتقديره، وهذا كله يجعله ينشأ في جو أسري دافئ وحميم مما يزيد في شعوره بالأمان داخل أسرته ويعلي من تقديره لذاته لأن كثيراً من الأطفال يُكوّنون انطباعاتهم عن أنفسهم من انطباعاتهم عن أبويهم. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشعور باللذة الجنسية لدى بعض الأطفال يكون أعلى من

بعضهم الآخر وقد يأتي بسن مبكرة جداً بمجرد أن يبدأ الطفل بالتعرف على أعضائه الجنسية، فهذا يجب أن لا يكون مدعاة للقلق عند الآباء والأمهات.

(ومن الطبيعي بين الثالثة والسادسة من العمر أن يبدأ الولد بلمس أعضائه التناسلية لأنه في مرحلة اكتشاف هذه الأجزاء من جسده، وقد يشعر ببعض المتعة من هذا اللمس. وقد نجده يمد يده تحت ملابسه ليلعب بنفسه. وفي كثير من الأحيان قد يفعل هذا من دون تركيز ولا انتباه بينما عقله منشغل في عمل آخر. ولا يدرك الولد في معظم الحالات طبيعة ما يفعل. ويتكرر هذا عند الذكور والإناث. ويغضب كثير من الآباء عندما يرون طفلهم يفعل هذا، والغالب أن يصرخوا في وجهه بأن يقف عن هذا العمل. وقد يصفعوا أحياناً يد الولد أو يسحبوها من تحت ملابسه، وهناك من الآباء من يهدد الولد بتعريضه للأذى وربما حرق أعضائه التناسلية إن لم يكف عن هذا. ولا شك أن الولد سيأخذ انطباعاً أن هناك أمراً كبيراً وخطيراً في هذه الموضوع بسبب ردة فعل والديه، أو أنه أمر مَعيب ومُقرف. والغالب أن يتابع الولد هذا العمل لأنه يشعر ببعض المتعة، وهو لا يفهم لماذا يصر الأهل على عدم القيام بذلك، وقد يفكر أنه يستطيع أن يلمس أنفه أو أذنه في أي وقت شاء، بينما عليه أن لا يلمس ما تحت ملابسه؟! وقد يأخذ الولد انطباعاً أنه غير نظيف لأنه يقوم بهذا اللمس. وإذا سأل الولد مزيداً من الإيضاح فقد لا يجد إلا التوبيخ والنهر أو " هذا عمل غير نظيف وغير حسن" بينما هو يعتبر أن هذا عمل حسن وممتع. ويفضل في بعض الحالات أن يتجاهل الأهل هذا العمل، فما هي إلا مرحلة يكتشف فيها الولد طبيعة جسده، وعما قريب سينمو ويتجاوز هذه المرحلة)(٤).

وقد يبدأ الطفل بممارسة العادة السرية منذ الصغر، وهو لا يفعلها بغاية الوصول إلى النشوة كما في المراهق أو الناضج، ولكن لأنها قد تحقق له شيئاً من اللذة التي لا يعرف سببها والتي قد تساعده على استرداد شيء من الأمان الذي يفتقده في محيطه، فهي بهذا الشكل تدخل ضمن العادات العُصابية الأخرى لدى الأطفال مثل

قضم الأظافر ونتف الشعر ومص الأصابع وغير ذلك من العادات والسلوكيات التي تدل على أن الطفل يعاني من مشكلة ما تتظاهر بهذه الأشكال غير السارة.

(ولا يعني هذا اللمس أن الولد "مفرط الجنس" أو أنه في بداية انحراف سلوكي أو أخلاقي. والأمر الذي يفيد الأهل الانتباه إليه أن الولد قد يعود لمثل هذا اللمس كوسيلة لتطمين نفسه عندما تواجهه صعوبة ما في حياته، أو عندما يغضب منه أهله لسبب من الأسباب. وقد يشير هذا إلى أن الولد يلجأ إلى هذا السلوك ليحل مثل هذه الصعوبات عن طريق لمس نفسه بدل أن يتيح له والديه طريقة أفضل للحديث، ومحاولة حل الإشكالات بطريقة مباشرة. وقد يشير هذا الأمر إلى أن الولد يحتاج إلى المزيد من العطف والرعاية النفسية والعاطفية والجسدية)[٤].

وقد يسأل الطفل عن هذه العلاقة بين الزوجين بدافع الفضول البريء مثلاً: لماذا تنامين أنت والبابا بغرفة واحدة؟ ولماذا لا أنام معكما؟ فيكفي شرح بسيط للطفل أنه كما تعبر الأم عن حبها لطفلها بالاحتضان والتقبيل فإن الأزواج يعبرون بطريقة أخرى عن حبهم لبعضهم بعضاً بالنوم في غرفة واحدة وفي سرير واحد؛ وقد يتعرض الأبوان وخاصة الأم – بسبب قربها من الطفل– لسؤال أشد خصوصية عما إذا كانت تمارس الجنس مع والدهما وهو سؤال أكثر وروداً في المجتمعات الغربية حيث يتم تناول هذه المواضيع في المدارس من باب الثقافة الجنسية، فالجواب الأسهل والأنسب هو الجواب الذي يحمل في طياته الصدق: نعم، نفعل هذا لأننا نحب بعضنا بعضاً وهذه الطريقة هي الأنسب للتعبير عن الحب بين الأزواج، وهي تعتبر من الحسنات ويكافأ عليها المرء إذا تمت ضمن إطار الزواج، أما خارجه فهي محرمة ويعاقب فاعلها. وفي مرحلة عمرية أكبر عندما يبدأ الشعور بالجنس الآخر يقوى ويشتد، فمن الواجب أن نوضح للناشئ أن هذا الميل للجنس الآخر طبيعي وأنه لا عيب فيه وليس حراماً إذا لم يؤدي إلى فعل حرام؛ بل ينبغي أن يشرح للمراهق أن هذا الفعل رغم أنه متعة فهو صدقة كما ورد في الحديث الشريف:

(أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)، وبذلك يتم إدراج البعد الديني في هذا العمل مما يجعل المراهق أكثر تقبلاً لدينه لأنه يفهم أنه دين يراعي الفطرة التي بدأ يشعر بها بين جنبيه. وقد رأينا كثيراً من الحالات الشذوذية ناجمة عن إنكار هذه الفطرة وكبتها فهنا قد تنزع نفس المراهق إلى الميول المثلية لنفس الجنس وقد تقف هذه الميول عند الحدود العاطفية، لكن أخطر ما يحدث هو عندما تتجه في المنحى الجنسي، وهذا الأمر تساعد البيئات المتشددة على ظهوره بنفس القدر الذي تلعب البيئات الإباحية الدور في نشوئه.

إذن من شروط الإجابة على أسئلة أولادنا الجنسية أن تكون متكاملة تحوي معنىً إنسانياً عاطفياً ومفهوماً دينياً أصيلاً وشرحاً فيزيولوجياً بسيطاً يتناسب مع عقل الناشئ والأسئلة التي تُثار بحسب الظروف المحيطة والمرحلة العمرية التي يمر بها، كما أنها يجب أن لا تُشكّل عبئاً على المربي بأيّ شكلٍ بل هي فرصة للاقتراب من الناشئ وفتح باب الحوار معه في مواضيع تُعلي من ثقته بنفسه وبمن يُربيه. وتنطلق الإجابات من تصورات الناشئ نفسها بحيث نجعل خبرته ومنطقه محورين أساسيين في التفكير والتحليل، وتبقى مهمتنا في تقديم ما يحتاجه من معلومات بصورة مبسطة متناسبة لاستيعابه الذهني دون تعقيد أو تهويل أو خجل، فيجب أن تكون نبرة الصوت عادية ولهجة الإعلام معتدلة كأننا نتكلم عن أي أمر آخر في حياة الإنسان بحيث يفهم الناشئ أن الجنس هو جزء من الحياة الطبيعية.

التساؤلات والإجابات في مرحلة الطفولة:

سبق وبيّنا أن هذه التساؤلات تختلف باختلاف المرحلة، كما أنها تختلف من طفل لآخر، فقد تكون الغريزة الجنسية نامية عند بعض الأطفال أكثر من بعضهم الآخر، وهذا يجب أن يعالج الموضوع بحكمة وبعيداً ما أمكن عن ردود الأفعال، ولنستعرض بعض الأسئلة والإجابات عليها حسب المرحلة العمرية:

- تبدأ التساؤلات من عمر ثلاث سنوات تقريبا وخاصة مع مجيء طفل آخر، فهنا يجب أن يتم تحضير الطفل نفسياً لهذا الأمر، بأن هناك من سيشاركه حياته لتلافي مواضيع الغيرة والعدوان على الوافد الجديد، وليست إجابة مناسبة أن نقول للطفل: أتينا بأخيك من السوبر ماركت أو من البقال أو وجدناه تحت السرير أو أمام المسجد، فهذه إجابات غير واقعية، وتحمل استهانة بذكاء الطفل الذي لا بد أنه لم ير أي طفل يباع في أي مكان، ولم يصادف أن لقي طفلاً صغيراً تحت أي سرير؛ لذلك فالأسهل أن نهيئه لمراقبة بطن الأم بالتدريج وكيف ينمو الجنين بداخله، حتى إذا وصل لنمو معين أصبح معه مُتمكّناً من العيش خارج جسم الأم فستتم ولادته، وهنا قد يسأل الطفل: أين كان قبل أن يدخل إلى بطن الأم؟ فبين سن ثلاث سنوات وست سنوات قد يكون لدى الطفل بعض الشكوك حول العلاقة الخاصة بين أبويه وإن كانت غير واضحة تماماً في ذهنه، فلا مانع أن يشرح له ببساطة أن هذه العلاقة هي السبب في دخول هذا المولود الجديد إلى بطن الأم وقد تكفي إجابة مثل: لقد كان عبارة عن جزء صغير جداً من الأب التحم بجزء صغير من الأم ودخل إلى بطن الماما ليخرج حالما يصبح إنساناً صغيراً. ويمكن تدعيم الشرح بواسطة بعض الصور عن مراحل التكون الجنيني من البيضة الملقحة إلى المضغة ثم تخلق الأعضاء وتكون الجنين الكامل. كما يمكن تعريف الطفل بقدرة الله سبحانه على الخلق ونفخ الروح وحماية هذا المخلوق.

السؤال الآخر الذي يبدأ في الظهور في هذه المرحلة هو عن الفارق بين الجنسين، واختلاف أعضاء الأنثى عن الذكر، فبعيداً عن العقدة التي "اخترعها" فرويد في الأنثى وهي عقدة الإخصاء وشعورها بالنقص عن الذكر، يجب إشعار الأنثى بأنها تحمل في داخلها ما لا يحمله الطفل الذكر وأنها قادرة على أن تحمل وتنجب وتصبح أماً في المستقبل، وهذه قدرة ميزها الله سبحانه بها لتكون الجنّة تحت أقدامها.

قد تتجلى هذه التساؤلات بنوع من الفضول الأقوى وحب الطفل أن يرى ما لدى الجنس الآخر من أعضاء، فهنا يجب أن يُنبَّه بلطف إلى ما ذكرناه عن موضوع

العورة، لكنه قد يسترق النظر إلى ما عند أخيه أو أخته أو أحد من أطفال الأقرباء فلا يصح معالجة الأمر بأنه خطيئة كبرى وفي هذا تقول د. بدوي:(في هذا المجال يجب أن نركز على عدم السماح لشخص أكبر منا بلمس "أشيائنا" الخاصة، "أكبر منا" حتى لا ينسحب الكلام على رفاق الطفل عندما يبدؤون باستكشاف أجساد بعضهم وهو جزء طبيعي من نموهم والجميع اختبروا هذه الاستكشافات)، وتقول الدكتورة بدوي:(نحن نتلقى في عياداتنا الكثيرين ممن يعانون من عقدة ذنب لاعتقادهم بأنهم شاذون جنسيا لأنهم في طفولتهم كانوا "يلعبون" مع بعضهم "إناثاً" و"ذكوراً". ولكن في حالة استكشاف الأخوة لأعضاء بعضهم يجب أن نشرح بطريقة بسيطة أن ذلك غير جائز لأنهم أخوة وفي كل الأحوال يجب ألا تكون ردة الفعل عنيفة).

وهنا أتفق بالرأي مع د. بدوي على أن لا يتلو اكتشاف الأهل لأي من هذا العبث الجنسي الطفولي أي نوع من ردود الفعل الخاطئة، ويُكتفى بتوجيه الطفل أن لا يُعيد ذلك مرة أخرى لأننا نريد أن نُنمّي فضيلة الحياء بشكلها الطبيعي وبدون إفراط أو تفريط؛ لكن يجب إفهام الطفل أن أعضاءه الخاصة يجب عدم السماح لأي كان سواء أكبر منا أو بعمرنا أو أصغر منا أن يلمسها أو يراها. والتفريق لدى د. بدوي بين عبث الأخوة مع بعضهم بعضاً بأنه غير جائز بينما هو جائز بين الرفاق أمر غير مبرر، لأننا لن نهيئ أولادنا لمفاهيم الصداقة بدل معاني الزواج كما في المجتمعات الغربية. فيجب أن يؤخذ الأمر على أنه غير مقبول سواء بين الإخوة أو بين الأصدقاء، خاصة أن الطفل في هذا العمر لا يعرف أنه لا يمكنه الزواج من أخته مثلاً، وكثيراً ما نسمع الطفل يقول أنه عندما يكبر سيتزوج أمه أو أخته، فمفهوم المحرمات غير نام لدى الطفل بهذا العمر، وكما هي مهمة الأهل تنمية هذه المفاهيم كذلك فإن من مهماتهم إنماء الإدراك عند الطفل فيما يخص المسموح والممنوع في التعرف على أجساد الآخرين مع التأكيد على أن يتم هذا كله بهدوء تام وبدون أي ردود فعل.

يقول د.مأمون مبيض: (كما أن الولد شغوف بالتعرف على جسده فإنه شغوف بالتعرف على أجساد غيره من الأولاد. وهو عندما يرى جسد ولد آخر فقد يشعر بالرغبة في مد يده ليلمس هذا الجسد الآخر. ولذلك نجد الأولاد يخترعون لُعباً كثيرة كلعبة الطبيب والمريض حيث يتعلمون من خلال التجربة أنه أمرٌ طبيعي للطبيب أن يفحص أجساد الآخرين. ومن النادر أن يبالغ الأولاد في مثل هذه اللعب. والغالب أن يملّوا بسرعة بعد أن يُشبعوا فضولهم وحبهم للتجربة والمعرفة. وقد وُجد أن مثل هذا اللعب يَقل في الأُسر التي تُقدِّم لأبنائها بعض التوجيه والتعليم في القضايا الجنسية، وكذلك الأُسر التي ترى جسد الإنسان على أنه ليس مدعاة للخجل أو العار رغم التحلي بالحشمة وتغطية العورة) [٤].

ويوصي د. مبيض الآباء إذا ما اكتشفوا هذا اللعب بألاّ يصابوا بالصدمة من خلال معرفتهم بمراحل النمو والتطور التي يمر بها الولد، وهناك من ينصح بأن لا يُعنّف الأولاد أو يشعروا بأن هذه الرغبة في الاستطلاع أمر معيب في حد ذاته، وإنما يمكن أن يُقال لهم بهدوء: بعد أن نظرتم لبعضكم، هيا انتهوا الآن ولنذهب لنقوم بالعمل الفلاني؛ وبذلك فأنت توقف هذا العمل بدون أن تخلق مشكلة كبيرة تدفعهم إلى إخفاء لعبهم هذا عنك، وفي ذات الوقت تعطيهم فرصة للتفكير في هذه الممنوعات والمحرمات.

(يظهر عند الطفل نوع من الفضول الجنسي، ويبدو ذلك في تطلعه إلى أجسام إخوته ورفاقه وملاحظته الفروق التشريحية بين جسم الولد وجسم البنت، وفي رغبته مشاهدة الكبار وهم يغيرون ملابسهم إذا أمكنه ذلك، وفي سؤاله عن الفروق بين الجنسين وسببها. وسؤاله عن كيفية ميلاده، وهذه الأسئلة تدل على زيادة وعيه وعلى إدراكه الفروق بين الناس ورغبته في معرفة ما يغمض عليه، وهو من مظاهر انفتاحه على العالم الخارجي. لذا يجب علينا أن لا نقابل هذا السلوك من جانب الطفل بالقسوة حيث أن دوافع الطفل لهذا العمل ودلالته تختلف عن دلالته لدينا

نحن الكبار. كما يجب علينا أن لا نتيح للأطفال فرصة التطلع إلى أجسام بعضهم بعضاً، وألا نتركهم فترات طويلة بمفردهم وأن ننهاهم عن خلع ملابسهم الداخلية(٢).

- بين سن السادسة والتاسعة تأخذ الأسئلة والأجوبة منحى آخر، وهذه نماذج:

١- من أين يأتي الطفل؟

مع ملاحظة أن هذا السؤال قد يتأخر حتى سن السادسة أو بعدها إذا تأخرت الأم بالحمل أو إذا كان الطفل أصغر الأبناء وولد طفل لبعض الأقرباء.

الجواب: يخرج الطفل من بطن أمه بعد أن تتم شهور حملها.

٢- كيف يأكل الطفل ويشرب وهو في بطن أمه؟

الجواب: الطفل في بطن أمه لا يأكل ولا يشرب ولكنه يتغذى مما تأكله وتشربه الأم، ويسير في دمها ليصل إلى الطفل خلال الحبل السري الذي يربط الطفل ببطن الأم.

٣- كيف تعرف الأم أنها حامل؟

الجواب: عندما تذهب إلى الطبيب فإنه يخبرها أنها حامل. وهنا تجدر الإشارة أنه في الأُسر التي تتّبع منهجاً إسلامياً معتدلاً يمكن شرح معنى الدورة الطمثية بشكل مبسط للطفل، فيمكن أن نقول أن الله سبحانه يعطي إجازة للأم من الصلاة بحكم أن جسمها يتعب أكثر بسبب الحمل والولادة، ويمكننا التوضيح أكثر إذا كنا نمتلك القدرة على إيصال كيفية حدوث الطمث نتيجة لعدم إلقاح البيضة، والأفضل دائما أن نضفي طابعاً علمياً على إجاباتنا مع البعد الديني كي يكتسب الطفل هذين السلاحين اللذين لا غنى لأحدهما عن الآخر ألا وهما الإيمان والعلم.

٤- لماذا يكون شكل رأس المولود غريبا عند ولادته؟

الجواب: لأن رأس المولود مكونة من عظام متفرقة بينها مسافات ولذلك فإنها

أثناء الولادة تقترب من بعضها حتى يمكنها أن تصغر من حجم الرأس، وبعد الولادة بأسبوع يصبح شكل عظام الرأس طبيعياً.

(في نهاية الكتاب هناك ملحق عن المنهاج الجنسي العلمي للمرحلة الإعدادية مُترجَم من إحدى الكتب الأجنبية المعتدلة في طريقتها بالإعلام الجنسي للمراهق، ولا مانع من الاستعانة ببعض الصور أو مجسمات لشكل الحوض ووضعية رأس الجنين وكيف يتسع المهبل ليمر منه الجنين).

٥- عند الولادة كيف نعرف أن المولود ولد أو بنت؟

الجواب: إذا نظرنا بين فخذي المولود ووجدنا أن لديه قضيبا وخصيتين(يمكن تسميتها بالعامية المقبولة) فهو ولد، أما إذالم يوجد فهو بنت؛ وقد يتخيل بعض الأطفال أن الأعضاء التناسلية تظهر بعد الولادة لأنهم لا يرون فرقا كبيرا بين المواليد الذكور والمواليد الإناث، فيتم تصحيح هذه المعلومة من قبل الأهل.

٦- لماذا لا يحمل الرجل ويلد مثل المرأة؟

الجواب: لأن الله سبحانه جعل الحمل والولادة من وظيفة المرأة وليست وظيفة الرجل.

٧- هل يكفي اللبن الموجود في ثدي الأم لإرضاع وإشباع الطفل؟ ولماذا لا يُرضع الأب وهو أيضا لديه ثدي؟

الجواب: اللبن يأتي إلى صدر الأم بعد الولادة وهو يكفي الطفل في شهوره الأولى ويُشبعه ويجعله ينمو ويكبر، وبعد فطام الطفل يجف اللبن من الثدي أي أن الله يضع اللبن في ثدي الأم بعد الولادة فقط. أما الأب فإن الله خلقه لوظيفة أخرى وهي رعاية الأسرة وحمايتها وكسب المال للإنفاق عليها ولذلك فإنه لا يصنع أي لبن في ثدييه فالرضاعة وظيفة الأم وحدها.

التساؤلات والإجابات في بداية المراهقة:

قد يبدأ الناشئ هنا بالإحساس الجنسي خاصة مع ما يفرضه المجتمع من تكتم حول هذا الموضوع، أو بسبب بعض الأجواء الإباحية من إعلام سيئ أو أبوين مراهقين؛ بينما في الحالة الطبيعية تأخذ الأسئلة منحى علمياً أكثر إذ تُستمد من وصول مفردات جديدة إلى سمع الطفل سواء من وسائل الإعلام أو الأسرة أو الأصدقاء، ويصبح الناشئ أكثر رغبة في المعرفة العلمية السليمة، وقد تثار في ما **بين العاشرة والثانية عشرة من العمر** نفس الأسئلة التي أثيرت سابقاً لكن الإجابات تكون عنها أشمل وأغنى كما توضح ذلك الأمثلة التالية:

١- من أين تأتي البويضة لدى الأم؟

الجواب: خلقها الله في بطن الأم منذ ولادتها إذ وضع في بطنها المبيض الذي يصنع بويضة كل شهر.

٢- كيف يتم تلقيح البويضة؟

الجواب: يحدث ذلك إذا تزوجت الفتاة فإن نطفة من الأب تتحد مع بويضة الأم لتكون الجنين. وهنا يمكن تقريب هذه المفاهيم بتذكير الطفل بما درسه من أطوار التكاثر عند النبات أو الحيوان إذا كانت المناهج العلمية تأتي على ذكر هذه الأمور الهامة، والتي يفترض أن تكون خلال المرحلة الابتدائية.

٣- من أين تأتي التوائم؟

الجواب: يحدث أن البويضة بعد الإلقاح تنقسم إلى قسمين ويتطور كل قسم وحده وبذلك يصبح في بطن الأم طفلين وهما هنا من نفس الجنس ولهما نفس الملامح والشكل، واسمهما التوائم المتطابقة أو المتشابهة، وقد يحدث التلقيح لأكثر من بويضة في نفس الوقت وهنا سيحدث الحمل في توائم ولكنها غير متشابهة أي قد يكون أحدهما ولداً والآخر بنتاً كما أن الشكل يكون مختلفاً بعض الشيء.

٤- ما هي الدورة الشهرية؟

الجواب: البويضة تخرج من المبيض وتذهب إلى الرحم في انتظار أن يتم تلقيحها وتظل كذلك لمدة ثلاثة أسابيع تقريبا فإذا لم يحدث تلقيح فإنها تذبل وتموت ويطردها الرحم مع بعض الدم الذي ينزل من الفتاة لمدة خمسة إلى سبعة أيام، وبما أنه يحدث بانتظام فإنه يسمى الدورة الشهرية، أما إذا حدث تلقيح للبويضة فإن الرحم يبدأ باحتوائها وتغذيتها حتى تكبر وتصبح جنيناً وحتى فترة الولادة فإن السيدة لا تأتيها الدورة الشهرية لأن الرحم موجود بداخله الجنين وبذلك فإنه لا يطرد بويضات ولا ينزل منه الدم.

٥- متى تحدث الدورة الشهرية؟

الجواب: تحدث عند بلوغ البنت، وهذا يحدث عند سن تسع سنوات إلى خمسة عشر عاماً.

٦- هل تحدث الدورة الشهرية للأولاد؟

الجواب: لا، لأن الأولاد ليس لديهم رحم ولا مبايض.

٧- نقرأ في الجرائد عن حوادث الاغتصاب، ما هو؟

الجواب: بعض الناس الأشرار لا يستطيعون العيش الحلال فكما أن هناك من يعمل ليكسب هناك من لا يعمل ويكتفي بالفشل والسرقة. أيضاً خلق الله الزواج بين الرجل والمرأة ليعيشا معاً ولينجبا أطفالاً، ولكن بعض الأشرار بدلاً من الزواج يهاجم الفتيات ويعتدي عليهن غصباً وبالتهديد، وهذا شرٌ كبير وجزاؤه في المحاكم السجن المؤبد وأحياناً الإعدام وجزاؤه عند الله هو عذابٌ أليم. ولذلك فنحن ننصح البنات أن لا يضعن أنفسهن في مواقف تسهل تعرضهن لهذه الجريمة. فالخروج مساء يجب أن يكون مع الأهل أو الأصدقاء ويجب تجنب السير في

الأماكن البعيدة والمهجورة والاستغاثة لدى أي اشتباه في نوايا شخص مجهول يتقدم نحوها بأي حجة.

٨- ما هو الشذوذ الجنسي؟

الجواب: خلق الله الرجل وخلق الله المرأة ليتزوجا وينجبا أطفالاً ولكن هناك أناس تنحرف رغباتهم الجنسية فنجد أن الرجل يرغب في ممارسة الجنس مع أولاد وليس مع امرأته أو نجد امرأة ترغب في ممارسة الجنس مع فتاة مثلها ولا ترغب في الزواج. ومثل هذه الأخلاق الشاذة تمثل انحرافاً عن الطريق القويم ومكروهة من الله والمجتمع. ولذلك فنحن ننصح أي ولد أو بنت بالابتعاد عن أي صديق أو صديقة يحاول إغراءه بمثل هذه الانحرافات وبعدم الانقياد لأي شخص كبير لا نعرفه إذا حاول التقرب منا بأي حجة من الحجج.

٩- ما هو طفل الأنابيب؟

الجواب: طفل الأنابيب لا يوضع في أنبوبة كما يتصور بعض الأطفال. ولكن يحدث أن الأب والأم أحيانا بسبب بعض الأمراض لا يستطيعان إنجاب أطفال. وعند ذهابهما إلى الطبيب فإنه بعد إجراء أبحاث وفحوصات كثيرة عليهما يقرر أنه يمكنهما إنجاب طفل، ولذلك فإنه يأخذ بويضات من الأم ويضيف إليها نطاف من الأب ويضعهما معا في أنبوبة وبعد فترة ينقل البويضة الملقحة التي يظهر له أنها بدأت بالنمو ويضعها في رحم الأم حتى تصبح طفلاً وتلده الأم بالطريقة العادية. أي أن الطفل لا ينمو داخل الأنبوبة ولكن يبدأ حياته فقط في الأنبوبة ثم يستكمل النمو في بطن الأم.

أما إذا وصل الطفل لمرحلة البلوغ ١٢ إلى ١٤ سنة، فإن الأسئلة والأجوبة يمكن أن تكون أكثر صراحةً وأكثر شمولاً في الرد عليها، مع ملاحظة أن أسئلة الطفل أو المراهق مُستمدّة أيضا من بيته ومحيطه ومدرسته، فليس بالضروري أن يطرح جميع الأولاد أو البنات نفس الأسئلة.

١- من أين تأتي البويضة لدى الأم؟

الجواب: خلقها الله في بطن الأم منذ ولادتها إذ وضع في بطنها المبيض الذي يصنع بويضة كل شهر. ولكن البويضات لا تكون جاهزة للتلقيح وتكوين أجنة إلا بعد أن تنضج الطفلة وتصبح شابة بالغة وعلامة ذلك هو الدورة الشهرية التي تحدث لها.

٢- كيف يتم تلقيح البويضة؟

الجواب: يحدث ذلك إذا تزوجت الفتاة فإن النطاف من زوجها تتحد مع البويضة ليتكون الجنين. ويحدث ذلك عند تزاوج الزوج وزوجته فيتحد الحيوان المنوي مع البويضة. والواقع أن الحمل يحدث إذا حدث لقاء جنسي بين فتى بالغ وبين فتاة بالغة فإن الحيوانات المنوية تعود لتصل أحدها إلى البويضة في الرحم ويتم تلقيحها وتصبح جنينا. واللقاء الجنسي الذي يحدث منه الحمل يكون بين الرجل وزوجته وهو حلال وليس فيه ما يعيب. أما إذا كان بين اثنين غير متزوجين فهذا حرام ويسمى شرعاً (زنا)، وهو مُحرّم في كل الشرائع والأديان، وإذا حدث حمل فهو مشكلة للفتاة والفتى ولأهليهما لأن الطفل يُسمّى هنا طفل غير شرعي أي مولود لاثنين غير متزوجين.

٣- كيف يعرف الولد وصوله إلى سن البلوغ؟

الجواب: قبل البلوغ يحدث أحيانا انتصاب لدى الأولاد عند حبس الرغبة في التبول أو عند الهرش بقليل، ولكن عند البلوغ يبدأ جسد الفتى في إنتاج حيوانات منوية وعندما يزداد المخزون منها فإن الولد يستيقظ من النوم على الانتصاب والقذف لتفريغ المخزون. كذلك قد يحدث انتصاب إذا شاهد الولد منظراً مثيراً جنسياً ولكن هنا قد لا يحدث قذف. ومعنى البلوغ والقذف هو أن الشاب يمكنه أن يصبح أباً ويحدث حمل إذا اتصل جنسياً بفتاة بالغة.

٤- ما هي الأمراض السرية؟

الجواب: هناك بعض الأمراض التي تحدث عند اللقاء الجنسي غير الشرعي، ولذلك فالأمراض السرية لا تحدث بين الزوجين لأنهما يحافظان على نفسيهما، أما اللقاء العابر بين فتاة وفتى - بشكل زنا - وقد تكون لديهما علاقات جنسية متعددة مع أناس مختلفين فإن احتمال الإصابة بالأمراض السرية يكون كبيرا ولذلك فنحن ننصح أساساً بالعفة وعدم اللقاء الجنسي إلاّ بين الأزواج.

٥- ما هو مرض الإيدز؟

الجواب: هذا المرض ظهر في العشرين سنة الأخيرة بشكل وبائي في أوربا وأمريكا ودول وسط أفريقيا. وهو ينتقل بواسطة الاتصال الجنسي حيث تحدث العدوى بواسطة فيروس يهاجم أجهزة مناعة الجسم التي تحميه من الأمراض ويدمرها، وبذلك يصبح مريض الإيدز معرضاً لنوبات من الأمراض المختلفة مثل الانفلونزا والالتهاب الرئوي والنزلات المعوية والسرطان لأن هذا الفيروس يُدمر جهاز المناعة ضد الأمراض، ويستمر الجسم في التدهور حتى يموت المريض خلال بضع سنوات، ورغم أن كل الدول تبحث عن علاج لهذا المرض إلا أنه حتى الآن لم يتم الكشف عن أي علاج له، ومن أكثر الأسباب لحدوثه هو ممارسة الجنس غير الشرعي- الزنا - والشذوذ الجنسي ونقل الدم الملوث بالفيروس.

٦- هل يمكن لأي فتاة أن تصبح حاملاً إذا كانت انضمت إلى عالم الكبار أي إذا بدأت عندها الدورة الشهرية؟

الجواب: الدورة الشهرية سببها أن المبايض اكتمل نموها وأصبحت قادرة على إنتاج بويضة قابلة للاتحاد مع حيوان منوي لتكوين جنين. وهذا يعني أن على الفتيات أن يحافظن على أنفسهن بعيداً عن اللقاءات الجنسية غير الشرعية.

والبويضة بعد خروجها من المبيض تهاجر في القناة المتصلة بالرحم حتى تصل

إلى الرحم وتظل هناك. وما دام لم يحدث تلقيح لها بالحيوانات المنوية فإن الرحم يطرد البويضة مع الغشاء المخاطي المبطن للرحم. وعملية الطرد هذه يصاحبها نزول دم الطمث وقد يصاحبها مغص بسيط أو شديد، ويظل ذلك الدم لمدة ثلاثة إلى سبعة أيام بعدها يعود الرحم إلى حالته الطبيعية، وعملية الدورة الشهرية عملية فيزيولوجية لا يجب الانزعاج منها مطلقاً والمغص الذي يرافقها نستطيع تخفيفه بالأدوية المسكنة حتى يزول.

٧- ما هي العادة السرية؟

الجواب: هي العبث بالأعضاء التناسلية للحصول على اللذة، وعلينا اجتنابها دينياً واجتماعياً والابتعاد عنها وشغل الذهن بالرياضة واللهو البريء فهو أفضل كثيراً لصحة الفتى والفتاة.

٨- ما هو غشاء البكارة؟

الجواب: هو غشاء يسد فتحة المهبل لدى الفتيات، وعندما تتزوج الفتاة فإن الاتصال الجنسي يمزق هذا الغشاء وهنا يقال إن الفتاة فقدت بكارتها أو فقدت عذريتها وأصبحت سيدة؛ لذلك فإن الفتاة يجب أن تحافظ على عفّتها وأخلاقها ولا تأت ما ينهى عنه دينها وبذلك لا تؤذي بكارتها. والفتى يجب أن يحافظ على عفته وإذا كان ليس لديه غشاء بكارة فليس هذا مبرراً له ليرتكب الخطيئة، لأنه كما تدين تدان، ومن كان حريصاً على أخته أن لا يمسها أحد بغير علاقة شرعية، فيجب أن يحافظ على نفسه وعلى البنات الأخريات كما يحافظ على أخته.

٩- هل حقّاً يتمزق غشاء البكارة عندما تنط الفتاة الحبل أو تركب على عجل؟

الجواب: لا يحدث ذلك وإن كانت كثيرات من الأمهات يمنعن بناتهن من هذه الرياضات خوفاً عليهن.

١٠- هل يحدث حمل إذا جلست البنت على قاعدة (تواليت) ملوثة بحيوانات منوية؟

الجواب: نظرياً ذلك ممكن، ولكن لأن الحيوانات المنوية تموت بسرعة فإن ذلك لا يحدث، وعموماً فإن من أبسط مبادئ النظافة أن لا يجلس الإنسان على قاعدة (تواليت)غير نظيفة.[١٧]

سؤالين دقيقين قد يطرحهما الناشئ حسب البيئة:

أولاً: مع اقتراب الناشئ من البلوغ يتم التطرق إلى موضوع شائع في تلك المرحلة وهو الزواج والجماع، ولكن السؤال الصعب هو: كيف يتم شرح عملية الجماع في هذه السن؟

ومع التأكيد بأن هذا السؤال لا يرد في مجتمعاتنا كما يرد في المجتمعات الغربية، لكن بما أننا نتوقع مدّاً هائلاً للثقافة الغربية في مجتمعاتنا وبشكل مباشر وأكثر من ذي قبل، فلا مانع من الاطلاع على ما ذُكر في صفحة "آدم وحواء" في موقع (إسلام أون لاين. نت) بهذا الخصوص:

هناك مثال ورد في كتاب "كيف نواجه أسئلة أولادنا عن الجنس"، وهو شرح والد لابنه الذي يبلغ من العمر ١١ سنة، لوجاهته رأينا الاستشهاد به حيث رسم الأب فيما كان يشرح مثلّثين، رأس أحدهما متجهًا نحو قاعدة الآخر، وقال بالإجمال: فكأن هذا المثلث (الذي قاعدته لأعلى ورأسه لأسفل) هو الخصيتان والقضيب لدى الصبي، وكأن ذاك المثلث (الذي قاعدته لأسفل ورأسه لأعلى) هو المبيضان والرحم، عند البنت...

ثم تابع الأب: ((الخصيتان هما الغدتان الموجودتان داخل الكيسين، إنهما سوف تنضجان عندما تصبح أنت رجلاً وسوف تنتجان سائلاً، كما تنتج الغدد اللعابية اللعاب في الفم، والغدد الدمعية الدموع في العينين.. إنما الأمر هنا أهم بكثير من

القدرة على البكاء أو البصق؛ إذ إن تلك الغدد تنتج بذار حياة، السائل الذي سوف يجري من القضيب عندما تصبح كبيرًا، هذا السائل سيخولك لاحقاً أن تصبح أباً.

أليس هكذا يا بني، الأمر يستحق أن يتحمل المرء بعض المضايقات، كأن يضطر إلى الحلاقة كل يوم! ذلك أن الشعر يكون قد نبت في ذقنك آنذاك ! ولكن لا يزال أمامنا متسع كافٍ من الوقت لنفكر بإهدائك آلة حلاقة كهربائية)).

ثانياً: قد يسأل الطفل - خاصة إذا كان في مدرسة مختلطة ورأى مشهداً غير لائق في التلفاز أو في الواقع - لماذا كانت القبلات ممنوعة بين الأولاد والبنات مع أنها ليست ممنوعة بين الأزواج؟

فهذا السؤال فيه مجال كبير لإعلاء قيمة الزواج وكيف أن هذه الممارسات خارج إطاره تؤدي إلى جريمة الزنا التي تسبب انتشار الفاحشة في المجتمع وضياع الأنساب وتفشي الأمراض، ونضرب له مثلاً بما يحصل في المجتمعات الغربية من انحلال، وكم عدد اللقطاء في الشوارع، وكيف تصبح الأم مسؤولة عن أولادها لأن الأب يستطيع أن يُنكرهم إذا لم يقيده الشرع بالمسؤولية عن زوجة وأولاد؛ وما يجب التنبيه له هنا أننا عندما نبدي مساوئ الغرب لأولادنا فعلينا أن نكون واقعيين وصادقين أيضاً، فما تمور به مجتمعاتنا العربية من فساد يجب أن لا نكتمه عن أولادنا ولا يصح أن نصور لهم واقعنا كالخيال الحالم، فهذا يؤدي إلى صدمات نفسية عميقة عندما يبدؤون بالتعامل معه ويرونه على حقيقته المؤلمة.

الفصل الرابع عشر

الثقافة الجنسية في الإعلام والمدارس

تبين في الفصل السابق أهمية التربية الجنسية في الأسرة، وكيف يجب أن تبدأ منذ الصغر بطريقة صحيحة، وكذلك وجوب اختلاف التعامل بين طفل وآخر للاختلاف الفطري في الشعور بهذه الرغبة بين إنسان وآخر، كما توضح أن الإجابات عن الأسئلة المتعلقة بالجنس تختلف من مرحلة لأخرى حسب استيعاب الطفل وقدرته الذهنية ومعلوماته التي يمكن أن نؤسس عليها أو نصححها.

في هذا الفصل سنعلّق على محتوى المادة الجنسية المقدمة عبر وسائل الإعلام وتأثيرها على الناشئين، كما سوف نطلع على التجارب الأخرى في تدريس الثقافة الجنسية في البلاد الغربية وأثرها سلباً أو إيجاباً، وسيتم عرض آراء بعض علماء الدين في هذا الموضوع وكذلك الآراء المتحررة مع مناقشة كلٍّ منها، وأخيراً وهو الأهم سنأتي إلى السؤال: كيف نواجه الزخم الغربي المتلفع بالشفقة على الطفل وحقوقه والذي يُخفي وراءه كثيراً من المكائد ضد قيم الأسرة والفطرة والحق والخير والجمال؟

الثقافة الجنسية عبر وسائل الإعلام:

لا يخفى على أحد ما لأجهزة الإعلام من تأثير في الرأي العام، خاصة أن ما تُنتجه يُفترض أن يكون عاكساً للوضع الاجتماعي والثقافي السائد بشكلٍ عام، لكن خطورة وسائل الإعلام تكمن بما تحمله من قدرة على التأثير وبالأخص في الشبيبة والناشئين.

(وبفضل وسائل الإعلام الجماهيرية يغرق الفرد في وسط سمعي بصري يتحكم به ملامساً عاطفته دون استخدام المفاهيم كوسيط. فالشبيبة على وجه الخصوص

هم الذين يتأثرون بذلك، وتنقل لهم وسائل الإعلام معارف حول كل المواضيع التي تهمهم، علماً أنهم يظهرون من العارفين دون أن يكونوا قد تعلموا شيئاً. يمكن القول دون حرج أنهم يفتقرون إلى أسس ويطرحون التقليد).[1]

وإذا كان الطفل يميل إلى التقليد فيما يراه يُعرض عليه،حيث أنه يميل إلى المسايرة وتقليد الآخرين والأخذ بآرائهم خاصةً إذا كان شخصاً مهماً بالنسبة له مثل أحد الوالدين أو أحد المعلمين، فإن المراهق تكون مَلَكَة التفكير النقدي قد بدأت تتشكل عنده فلا يقبل بأي شيء قبل أن يعرضه على عقله وذلك بحكم نزوعه إلى الاستقلال ورغبته أن يعرف الصحيح من الخطأ والغث من السمين، ومن الواجب تنمية هذه القدرة دون أن يُشجَّع الجدل العقيم أو حب الظهور أو إثبات الذات. رغم كل ذلك فإن لوسائل الإعلام تأثيراً كبيراً على الطفل والمراهق خاصة الجذابة منها مثل السينما والمسرح والتلفاز، فهي بالقيم التي تعرضها يمكن أن تحاصر عقول البالغين فكيف بالمراهقين الذين يُقبلون عليها بشغف كبير مما يُؤثّر على تفكيرهم واتجاهاتهم.

(ولذا يجب أن تعمل هذه الأجهزة داخل الإطار الاجتماعي والثقافي للمجتمع، وتحت رقابة شديدة لا تقيّد الإبداع الفني، ولكن تمنع الإسفاف والتهريج الذي يظهر أحياناً في هذا المرفق الخطير، فقد تهدم إحدى المسرحيات في ساعات ما تحاول أن ترسخه أجهزة التعليم في نفوس الشباب في سنوات)[2].

إن دور التلفاز الخاطئ في الإعلام الجنسي تحديداً يجب أن يتم الانتباه إليه من قِبَل الأهل، وينبغي التوقّي منه بمراقبة ما يُقدم للأطفال وتعليمهم الرقابة الذاتية على النفس فيما يصح أن ينظروا إليه أو يمتنعوا عنه؛ فلا يُنْكِر عاقل أثر التلفاز وما يعرضه من أفلام مسيئة للأخلاق ومسلسلات خاصة تلك المدبلجة منها في نمو الرغبة الجنسية؛ هذا إذا تجاوزنا القنوات الإباحية التي نأمل من كل والد ووالدة أن يمتنعوا هم عنها لأنهم قُدوة لأولادهم من جهة، وكي يحفظ الله سبحانه ذريتهم من جهة أخرى، ففي قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح التي وردت في

سورة الكهف تعليم لنا أن صلاح الأب سبب لحماية الأبناء من اليتم والفقر فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ففي القصة أن الله سبحانه حمى مال هذين اليتيمين بسبب صلاح والدهما، وهي دعوة لكلّ أبٍ وأم أن يبدآ هما بمراقبة الله سبحانه والامتناع عن معاصيه والتقرب إليه بالطاعة، وعندها فإن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وقد أوردتُ في فصلٍ سابق ثقافة الاستعفاف وكيفية غرس الحياء في أولادنا، وكذلك ضربتُ مثلاً من طريقة التربية الجنسية التي قمت بها مع طفلي، وأود هنا أن أضرب مثلاً– أرجو أن يكون جيداً – عن غرس مفهوم التقوى والشعور بمراقبة الله عز وجل وكيف يساهم بابتعاد الأطفال عن كل ما يضرهم حتى دون مراقبة الأهل، وهذا لا يتم إلا عبر مد جسور الثقة وتدعيم الوازع الديني منذ الصغر وإكساب المعلومات المعطاة أبعاداً دينية وخُلُقية وعلمية في آن واحد:

أذكر أني كنت أرى أفلاماً أجنبية سواءً الكوميدية منها أو الحائزة على جوائز عالمية مع أولادي وهم قبل سن التمييز أي قبل السنة العاشرة من العمر مع سابق اطلاعي عليها أو على مضمونها، فإذا ظهر مشهد مُناف للأخلاق يتم تحريك المشهد بالريموت كنترول إلى أن ينتهي، وأشرح لهم لماذا فعلتُ ذلك؛ والآن أستطيع أن أقول إني أتركهم هم بأنفسهم ليقوموا بتحريك المشهد إذا ظهر ما لا يُناسب قيمنا الإسلامية وتعاليم ديننا؛ وهذا يجب أن يُضبط بإيقاع واحد مع إنماء مراقبة الله في نفس الطفل، فالله سبحانه منحنا نعمه الكثيرة ومنها نعمة البصر ولا يجوز أن ننظر إلى ما يُفسد أخلاقنا ويُضيّع إيماننا. وهنا غالباً ما يعترض فريقان على هذا الكلام، الفريق الأول هو القائل بوجوب المنع الكلي عن أفلام كهذه، أو عن التلفاز كله، ويرد عليهم أنه "يجب أن نعوّد أطفالنا على ثقافة المناعة لا المنع"، بحيث

يكون الناشئ نفسه ناقداً ومشاركاً وليس متلقياً منا أو من التلفاز فقط كي يستطيع أن يدافع عما غرس في نفسه كقناعات راسخة وليس كانفعالات تتبخر عند أول محك. والفريق الثاني هو القائل بأنه يجب أن نربّي الأطفال على الحرية ليروا ما يشاؤون حتى لا تنشأ لديهم عُقد نفسية واضطرابات شخصية، فالجواب لهذا الفريق أنه في كل بلاد العالم يتم تشفير القنوات من قبل الأهل لأنهم لا يريدون أن تنمو الغريزة الجنسية عند أطفالهم فيوقظوا الوحش قبل أوانه.

قد لا تكون الأفلام والمسلسلات العربية بحد ذاتها إباحية المناظر أو مخلة للآداب بالنسبة للكبار، لكن كثيراً ما تجلس العائلة كلها أمام التلفاز، ولا يرى الوالدان حرجاً في أن يستمتع الأبناء معهم في مسلسل يدور حول خصوصيات الحياة الزوجية كتعدد الزوجات وغيرة المرأة على زوجها أو حول معاكسات الشباب للفتيات أو.. أو.. وهذا كله قد يفتح عيني الطفل البريء على أشياء لا تمت لواقعه الخاص بصلة، فعالم الطفولة بعيد عن عالم الكبار، وإذا أدخلنا الطفل إلى هذا العالم باكراً فَقَدَ الطفل أهم وأجمل ما يميزه ألا وهو البراءة؛ ثم يأتي الأبوان فيما بعد يشتكيان أن الطفل لا يتجاوب معهما أو يقوم ببعض الحركات أو يتفوه ببعض الكلمات وكأنهما لم يكونا سبباً أصلاً في وصول هذه المفاهيم للطفل والتي هي غريبة عنه أساساً.

يُنصح هنا بالاطلاع على البحث الهام الذي قدمته الدكتورة بهية الجشي مستشارة ملك البحرين عن (تنمية المهارات الإيجابية الناقدة للتلفزيون لدى الأطفال) والذي ضمه الجزء الأول من سلسلة (ما لا نعلمه لأولادنا)، لأنه حيوي وواقعي وضروري ومفيد ويُعلي ثقافة المناعة لدى النشء.

وكما هو الحال مع الطفل الذي لا تكون لديه الغريزة الجنسية نامية، كذلك يجب إبعاد المراهق عن كل مواقف الإثارة الجنسية، ولذلك ينبغي فرض رقابة واعية على وسائل الإعلام والكتب والمطبوعات التي تضر أكثر مما تنفع، ويجب الاهتمام بتنشئة المراهق تنشئة دينية وخُلُقية معتدلة، والعناية بتزويده بالقسط الكافي من

الثقافة حول مشكلات المراهقة وتغيرات البلوغ وكيف يمكن التغلب عليها، ولا بد بعد كل هذا أن يشترك الآباء والأمهات والتربويون في أن يكونوا الموجه الذي يرشده حتى يمر بأزمات المراهقة بسلام، ولا يكون ذلك إلا عندما يجد أمامه القدوة الطيبة في السلوك والقلب الدافئ في احتضانه رغم أخطائه والعقل الراشد في التعامل مع مشكلاته، وكيف يتم هذا بدون أسرة متكاتفة متفاهمة؟!

هذا يقودنا إلى الفكرة التي ينادي بها بعض الأفراد ومن ورائهم بعض المؤسسات التي تهدف إلى هدم صرح الأسرة من أن للطفل الحق في أن يختار ما يراه أو يفعله وأنه يجب أن لا نفرض عليه أي أمر من الأمور فرضاً، فهذا كلام غير مقبول لأنه لو تُرك الأمر للأطفال لما ذهب أحد منهم إلى المدرسة مثلاً ولاختار كل منهم أن يقضي حياته كلها في اللعب، وأهم مبادئ التربية وأهدافها أن نعد طفل اليوم ليكون رجل الغد. ثم إن من خصائص الطفل بأن عالمه ذاتي أكثر مما هو موضوعي تجعلنا نتفهم الخاصية الأهم للطفل وهو أنه لا يدرك المفاهيم الكلية المجردة والتي ليس لها أساس حسّي كالفضيلة والرذيلة والخير والشر إدراكاً واضحاً ودقيقاً، وعلى الأهل أن ينوا هذه المفاهيم في ذهنه تدريجياً ويكون ذلك بالقَصَص الموجهة أو التي تحمل معنى غير مباشر، ويمكن كذلك نقل المفاهيم المجردة للأطفال بعد سن السابعة مثلاً وستتبلور مع الزمن رؤيتهم الخاصة لها.

وبالطبع ليس المقصود أن نفرض على الطفل أمراً مكروهاً له، لكن الحوار البناء والهادف يجعل شخصيته أكثر تقبُّلاً للأفكار التي لا يجد صدى لها في نفسه، وهذا يساعد في خلق خاصية المرونة لديه؛ كما أنه لا بد من التأكيد على إفهام الطفل سبب هذه الأوامر ولماذا فرضها الله سبحانه، فمثلاً عند الطلب من الناشئ أن لا ينظر إلى منظر غير لائق في التلفاز فيمكن أن نقول له وببساطة بعد أن بلغ سن التمييز: إن البصر أمانة من الله سبحانه، ويجب أن لا تنظر إلى ما لا يحبه الله، لأنك يجب أن تحفظ الأمانات المودعة فيك.

من وسائل الإعلام الأخرى قد تكون الموسوعات والقصص وأفلام الفيديو العلمية: (في ثقافة الطفل المعاصرة قيم جنسية وربما تربية جنسية يتعرض لها الطفل من خلال القصص والكتب التي تُقدَّم له، وأخطرها تلك التي تعبر تعبيراً رمزياً عن الجنس، ذلك أن القصص الرمزية تراوغ حتى القائمين على ثقافة الطفل وتربيته، إذ قلما ينتبهون إلى القيم الجنسية التي تحويها، ويشير في هذا الصدد كاتب الأطفال عبد التواب يوسف إلى أحدها وهي قصة (ليلى والذئب) العالمية فهذه تُرجمت مراراً وقُدمّت في صيغ مختلفة من الناحية الإخراجية وجودة الطباعة ونوع الرسوم، ويقرؤها الأطفال منذ عدة أجيال، مع أنها قصة جنسية رمزية تؤكد قيمة سلبية في منتهى الخطورة فالذئب في القصة ينتظر ليلى في الفراش وهذا يُكرِّس نظرة الأنثى للذكر على أنه ذئب من جهة، وكذلك يُكرس في داخل الذكر القيام بدور الذئب مع الأنثى. قد لا تكون هذه الصورة واضحة للأطفال، ولكنها تشكل أرضية خصبة لنمو هذا المفهوم في لا وعيهم. ومشكلة ما يستقر في اللاوعي أنه يُؤثّر ولا يتأثر، بمعنى أنه يقود إلى سلوكيات الفرد دون أن يتعرض إلى تقييم أو تصحيح منه.

ولعل هذا يؤكد أهمية إعادة تقديم النتاج المقدم للطفل لغربلته وتنقيته، وهناك الكثير من القصص(المترجمة خاصة) تحوي تصورات مَرَضية بخصوص الجنس.

أما بخصوص أسئلة الطفل الجنسية فهناك محاولات محدودة ومتفرقة تتراوح ما بين الحذر الشديد إلى درجة ابتسار الحقائق، وما بين تجزيء هذه المعرفة إلى درجة قد تثير أسئلة أكثر بكثير بدلاً من الإجابة.

في الغرب توجد موسوعات جنسية خاصة بالأطفال، وهي موزعة على مراحل، لكل مرحلة رسوم ومعارف مناسبة (بحسب المقاييس الأخلاقية والثقافية الغربية)، وأحد هذه النماذج المميزة(غربياً)، هو ما أصدرته دار (Hachette) الفرنسية بعنوان (Encyclopedie De La Vie Sexuelle) وهذه الموسوعة في أربعة أجزاء، الأول للأطفال في سن ٧ – ٩ سنوات، والثاني للأطفال في سن ١٠– ١٣، والثالث

للمراهقين والرابع للبالغين، تبدأ المعلومات مقنّنة، ولكنها صريحة وواضحة وعلمية، وتعطي فكرة واضحة ووافية لكل عمر، بناء على دراسة علمية لأسئلة الأطفال، بل إن هذه المعلومات في الأجزاء الأولى تُقدّم عبر رسومات محسوبة بدقة دون الاعتماد على التصوير الفوتوغرافي، وتتزايد المعلومات والرسوم التوضيحية وتميل إلى الدقة أكثر في الكتاب الثاني، فكل جزء من أجزاء هذه الموسوعة يحوي معلومات الجزء الذي سبقه إضافة إلى معلومات أخرى أكثر دقة. إلى أن تكتمل في الجزء المخصص للبالغين، حيث يحتوي هذا الجزء على عدد من الفصول فيه دراسة للبنية الجينية للتناسل إضافة إلى بنية الأعضاء الجنسية وتاريخ للعلم في هذا المجال وكيفية تطور المفاهيم العلمية، إضافة لشرح تفصيلي للتزاوج والولادة إلخ.

لا شك أن هذه الموسوعة غير مناسبة لمجتمعاتنا وخاصة من الناحية القيمية والأخلاقية وأسس الزواج والتناسل، ولكن يمكننا الاستفادة منها كتجربة، إضافة إلى تجارب أخرى في إعداد موسوعات تحتسب في منهجها طبيعة مجتمعاتنا وأخلاقياتنا.

وقد أنجزت اليونيسيف فيلماً من الرسوم المتحركة للأطفال يشرح عملية التزاوج ونمو الجنين والولادة وذلك في إطار قصصي علمي مشوق وعرض العمل معرباً في العديد من المحطات التلفزيونية العربية فلاقى استحساناً واسعاً، وربما خفف من عبء الأسئلة على الآباء والأمهات والمربين، مع أن الطبيعة القصصية وشخصية العناصر المؤلفة لعملية التزاوج قد عقّدا العمل بعض الشيء.

والقصص العاطفية المقدمة في إطار الرسوم المتحركة تشكل مصدراً هاماً من مصادر التربية الجنسية، فهي تبث القيم الجنسية (الغربية خاصة) في أوساط الأطفال، ويغفل الأهل أو يتغافلون عنها، وهنا لا نرمي إلى القول بإقصاء القصص العاطفية، ولكن لكي نعرضها يجب أن نحتسب مدى مناسبتها لقيمنا وواقعنا، فالقصص العاطفية ضرورية لتشكيل قيم سليمة بداخل الطفل ولسنا مع الرأي الذي

يطالب بإقصاء كل ما يمت إلى هذا النوع بصلة، ولكن المهم الانتباه إلى ما يقدم وطريقة تقديمه)[١٥].

وكمثال على هذه القصص العاطفية أذكر أنه كان يقدم للأطفال قصة (كارمن) أو المرأة اللعوب ضمن مُسمّى القصص العالمية، بشكل فيلم كرتوني وأسوأ ما في القصة أنها كانت تشرح للطفل بكل وضوح كيف تنتقل المرأة بسهولة من عشيق لآخر، وكيف تعيش مع الرجل بدون أي رابط شرعي، وتنتهي القصة بأن عشيقها القديم يقتل من فضّلته عليه، ولا يمكن النظر ببراءة إلى قصة من هذه النوعية تقدم للأطفال لأن هذا يجعلنا نطلق أحكاما ساذجة على إعلامنا الذي يقدم ما فيه مخالفات جمة لواقعنا وديننا وخصوصية مجتمعاتنا.

مع ذلك يجب تبرئة قصة ليلى والذئب مما ذكره الكاتب عبد التواب يوسف من أنها تحمل مفهوماً جنسياً أو أنها تترك أثراً نفسياً سيئاً لدى الأطفال خاصة أن العبرة منها هي تعليم الأطفال أن لا يأمنوا لشخص غريب، وهذا ما سأتوسع به في فصل التحرش الجنسي إن شاء الله.

التجارب المختلفة في تدريس الثقافةالجنسية للأطفال والمراهقين:

من بريطانيا:

في (١٩-٣-٢٠٠٢) أصدر الدكتور (دافيد بيتون)، خبير متقدم في خصوبة المراهقين في جامعة (ناتنجهام)، دراسة تقترح بأن الثقافة الجنسية وتوافر (حبة الغدّ المجهضة) قد زادت الجنس المحرّم خارج الزواج. الدراسة تثبت الاكتشاف للدراسات التي حصلت في سنة ١٩٩٩ وسنة ٢٠٠٠ التي وجدت بأن استعمال معلومات تحديد الأسرة لم تقد إلى النقصان في الحمل غير المرغوب به، ووجدت بأن الشباب الموصف لهم (حبة الغد)ّ كانوا أكثر احتمالاً بالحصول على الإجهاض. وقال (بيتون): (الدراسة الحالية تفحصت الأشكال من مكتب

الإحصاءات الوطني لسنة ٢٠٠٠ وأظهرت بأن ٤٣٨٢ فتاة تحت عمر السادسة عشرة حصلن على الإجهاض، أكثر بـ ٢٠٠ مرة من السنة الفائتة وأكثر بـ ٢٠٪ منذ سنة ١٩٩٢، خلال فترة حكومة المحافظين. سياسة الحكومة الحالية التي تنظر إلى تخفيف حمل المراهقين بالثقافة الجنسية وتوافر (حبة الغد)" هي سياسة فاشلة بالنظر إلى الدلائل المتوافرة. من الواضح بأن استحضار مستوصفات تخطيط العائلة بعيد جداً عن التأثير لتنقيص معدل الحمل. إنها فعلياً تفضي إلى الزيادة وتوافر (حبة الغدّ) يبدو بأنها تشجع السلوك المجازف. يظهر للعيان بأنه إذا كان لدى الناس قدرة الحصول على نصائح تخطيط العائلة فيفكرون بأنهم تلقائياً عندهم أقل خطر حبل). وشرح الدكتور بيتون أسباب فشل سياسة الحكومة: (أساساً إنكم ترسلون رسالة ممزوجة؛ من جهة الجنس تحت عمر ست عشر سنة غير قانوني، ومن جهة أخرى تعطون معلومات تقول: حسناً إذا أردتم أن تفعلوها هكذا تفعلوها!).

– من أمريكا:

((تقوم المدارس وبعض الجمعيات في أمريكا بإعداد برامج لتوعية الأطفال والمراهقين بالممارسات الجنسية وكيفية تجنب الآثار غير المرغوب فيها في حالة الممارسات غير الشرعية كالحمل، وهي تقوم أساساً على مبدأ حق الطفل في التعرف على جسده، وكيفية إشباع رغباته من جميع النواحي، وهذا هو التعريف الرسمي لها من منبعها الأصلي في الولايات المتحدة الأمريكية، ومن المواضيع التي تحتوي عليها هذه البرامج: المعاشرة بين الجنسين، العادة السرية، الإجهاض، كيفية ممارسة الجنس دون خطر الحمل، مساعدة المراهق على تحديد اتجاهه الجنسي أي تحديد أي الجنسين يفضل أن يعاشر، العادة السرية كوسيلة للإشباع الجنسي بعد البلوغ، العلاقات الشاذة كبديل مُرضٍ للعلاقات العادية، وهذه المواضيع مدرجة في برامج الثقافة الجنسية المطروحة للتدريس في مدارس الولايات المتحدة الأمريكية.

أما من سن ١٥ – ١٨ فيضاف لهم المواضيع التالية: من حق النساء أن يقررن

إجراء الإجهاض، من حق الناس احترام تعاليم دينهم وتقاليدهم، ولكن هذا لا علاقة له بحقوق المرء الشخصية، عدم وجود دليل على أن الصور الفاضحة تسبب أي إثارة جنسية، خدمة التواصل مع الشريك الجنسي بشأن الاحتياطات اللازمة لكليهما، تعليم المراهقين كيفية الحوار حول هذه العلاقات والحدود التي يجب التوقف عندها.

الآباء الأمريكيون يرفضون هذه الجمعيات ويُسمونها "بالوحش" الذي يتخفى تحت مُسميات علمية للتحكم في السلوك الاجتماعي للناس عن طريق الأطفال، ويقول الآباء: إن الغرض المعلن لهذه الجمعيات هو تخفيف حالات الحمل عند المراهقات تحت شعار الإنسانية، وتأخير الممارسة الجنسية لحمايتهن من الإجهاض، أما الغرض الخفي فهو إعطاء الأطفال تعليمًا جنسياً شاملاً طبيعياً وشاذًا، ويقول الآباء: إن من حقهم تعليم أبنائهم أمور الحياة الزوجية من خلال تعاليم الإنجيل، وليس بهذه السبل الفاضحة، وقد أدى ضغط الآباء إلى أن أصبحت هذه البرامج في المدارس مرهونة بمواقف الأبوين.

ويرتفع الآن في أمريكا شعار "قل لا للجنس" ولكنه حقيقة لا يعني الإحجام عن الجنس قبل الزواج، ولكن تقليل نسبة حالات الحمل عند المراهقة بتأخير الممارسة مع أي شخص حتى تلتقي الفتاة بالشخص المناسب، وذلك لتجنب الإصابة بالأمراض الجنسية أو حدوث الحمل المبكر.

وتحاول الولايات المتحدة إدخال هذا البرنامج في مناهجها الدراسية لتشجيع الشباب على تأخير العلاقات الجنسية الكاملة حتى الزواج إن أمكن، ومن العناوين المقترح إدخالها في المنهج: "قبل الجنس" استخدام العازل، هل يقلل أو يمنع الأمراض الجنسية، لِمَ يفضل الشخص العلاقات الطبيعية على العلاقات الشاذة؟ ما الوضع القانوني للشواذ؟ حق الآباء في الاطلاع على المناهج المقترحة، وهذا المشروع من المتوقع أن ينفق عليه ٥٠ مليون دولار لإقناع الشباب بالإحجام عن

العلاقات الجنسية حتى الزواج، وقد خصص له بالفعل ٤٠٠ مليون دولار كميزانية كلية لتنفيذه بكافة مراحله.

أما عن حمل المراهقات في أمريكا فتقترح هذه البرامج الحلول التالية: إعطاء الحبوب للبنات في عيادات المدارس، تقديم نصائح تتعلق بالصحة الإنجابية، تغيير القانون حتى لا تضطر الفتاة للحصول على موافقة الأبوين للتغييب عن المدرسة في حالة ذهابها لمراكز الرعاية الخاصة بالصحة الإنجابية، إعطاء وسائل منع الحمل في سرية تامة.

وقد رد الآباء في أمريكا ببث رسالة على شبكة الإنترنت تسجل اعتراضهم على "الوحش" المسمى "بالإنسانية" فهم يقولون: إن هذه البرامج تسحب السلطة من الآباء في توجيه أولادهم، ويصرون على الإبقاء على هذا الحق لهم وحدهم ويرفضون الوقوف موقف المتفرج !!

وقد أدرجت هيئة الأمم المتحدة برنامج "الثقافة الجنسية" في برامج الصحة الإنجابية والمطلوب تدريسها في مدارسنا لطلابنا المسلمين والمسيحيين على حد سواء ومهما كان من تغيير الأسماء "ثقافة أسرية" أو "ثقافة زوجية" فالمضمون واحد وهو ما عرضناه من مصدره الأساس وهو برامج الأمم المتحدة الرسمية والتي تنفذه عن طريق المدارس والجمعيات، فهل آن لنا أن ننتبه إلى الهدف الحقيقي وراء هذه البرامج حتى لو تم تعديل بعض محتواها لمناسبة مجتمعاتنا المحافظة؟

– في إيران:

بدأ عشرون مليون تلميذ إيراني في تلقي أول دروسهم للثقافة الجنسية منذ سنتين تقريبا بعد أن كانت مناقشة هذا الموضوع أمراً محرماً في الجمهورية الإسلامية حتى عهد قريب. ونقلت وكالة الأنباء الفرنسية عن نائب وزير التعليم رحيم عبادي قوله: إن هذه الدروس ستغطي جميع الأسئلة التي تدور في أذهان طلبة

المدارس حول فترة البلوغ والمراهقة. وكان عبادي يتحدث في مؤتمر وزاري عن الثقافة الجنسية هو الأول من نوعه في إيران منذ الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩. وأكد أن القضايا الصحية أثناء فترة البلوغ تهم الشباب من الجنسين، وأن جميع الأسئلة المتعلقة بالشباب الإيراني لها طابع قومي، وإنه إذا لم يتم اتخاذ خطوات لمساعدة الفتيان والفتيات على فهم هذه المرحلة فإن ذلك قد يؤدي إلى أزمة.

- في مصر:

ورد هذا الخبر منذ أقل من عام تقريباً: ناقشت لجنة التعليم والبحث العلمي بمجلس الشعب في اجتماع لها البيان العاجل الذي تقدم به أحد النواب عن قيام إحدى المدارس الأجنبية بالإسكندرية بتدريس موضوعات الثقافة الجنسية لأطفال المدرسة. وقد أرفق النائب بياناً صادراً عن المدرسة للآباء حول منهج التوعية يوضح أهمية إمداد التلميذات في كل مرحلة سنية بالمعلومات الأساسية عن الخصائص الجنسية المتعلقة بالجنس لإكسابهم القدرة على التعامل مع هذه الخصائص بطريقة صحية وبتكامل موضوعي مع بعضها البعض في البيولوجيا والدين واللغة العربية والتأكيد على الاحترام الكامل للمعتقدات الدينية والعادات والتقاليد المصرية وذلك لحماية التلميذات من المعلومات الخاطئة وما قد تسببه من أضرار لهن.

وجهة نظر بعض الفقهاء وغيرهم في تدريس الثقافة الجنسية في المدارس ومناقشتها

تقول د. سعاد صالح أستاذة الفقه المقارن في الأزهر:

((أحب أن أضع بين يدي القارئ الكريم قضية المعرفة بالأمور الجنسية والتي نعني بها تحديداً العلاقة بين الرجل والمرأة في الإطار الشرعي، وهو إطار الأسرة وذلك من منظور الشريعة الإسلامية ومن خلال الأدلة الشرعية في كتاب الله سبحانه وسنة رسول ﷺ تلك الشريعة الشاملة والخاتمة والتي تمتاز بالمرونة

والشمول معاً من هنا .. ينظر الإسلام إلى الإنسان نظرة شاملة، ينظر إليه جسداً وعقلاً وروحاً .. ينظر إليه من خلال تكوينه الفطري .. نظرة متوازنة تجمع بين متطلبات الروح والجسد، فهو يستجيب لحاجاته ومطالبه من مَأكل ومَلبس ومَسكن وغريزة، وفي الوقت ذاته يؤمن بالكيان الروحي للإنسان: يؤمن بأن فيه نفحة من روح الله، ويؤمن بما لهذا الكيان الروحي من مطالب وما يشتمل عليه من طاقات فيعطيه ما يطلبه من عقيدة ومثل وأخلاقيات ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ سورة الرعد ٨ ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ سورة الملك ١٤. إن كل ما يصيب الانسان في الحياة من شر، وكل ما يصيبه من قلق أو اضطراب، أو خوف نتيجة حتمية لفقدان التوازن داخل النفس يقول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِي ما آتاكَ اللَّهُ الدّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ سورة القصص ٧٧.

ومن وجهة نظري – والله أعلم- أرى ضرورة تدريس مادة الثقافة الجنسية في المدارس بالضوابط الشرعية الآتية:

١- فصل الذكور عن الإناث في المدارس بعد المرحلة الابتدائية.

٢- أن تقوم لجنة مختصة من علماء الدين والنفس والاجتماع بوضع مفردات هذه المادة.

٣- أن يقوم كل جنس بالتدريس لجنسه.

٤- مراعاة السن المناسبة والصيغة المناسبة لكل سن، وأرى أن يكون بداية تدريسها في نهاية المرحلة الإعدادية التي تعتبر بداية سن البلوغ والمراهقة)).

وفي مقابلة مع الأستاذ الدكتور محمد عبد السميع جاد – عميد كلية الدعوة – جامعة الأزهر وحول رؤية الشرع لتدريس مادة الثقافة الجنسية للطلبة والطالبات في

المدارس؟ وهل تدرس كمادة منفصلة، أم يتم إدراجها في مادة الإحياء أو التربية الإسلامية؟ وهل تفرض أهمية هذه المادة إجراءات معينة فى وضع مناهجها؟ قال:

((الإسلام منهج شامل متكامل يضم جميع نواحي الحياة، وكل ما يتصل بالإنسان منذ نشأته إلى لقاء ربّه إلى الآخرة وما فيها. ومن بين متطلبات وجود الإنسان في الحياة التثقيف الذي لا بد أن يلم به: الثقافة الجنسية التي يحث عليها الإسلام، كما يحث على أي ثقافة بشرط أن تتم بقدر فهم الفتى والفتاة لهذه الأمور. ففي الأزهر مثلاً يتم تعليم التلاميذ بعض الأمور الخاصة بالطهارة وأحكام الأسرة في إطار الشرع والدين، وكان يكفي هذا للطالب في الماضي، أما الآن وقد فرضت مغريات العصر نفسها على كل بيت، وأصبحنا نشهد ما يسمى بعصر انفجار المعلومات، حيث كل شيء متاح في التلفزيون وعن طريق (الدش والإنترنت) أصبحت هناك ضرورة ملحة لدراسة مثل هذه المادة. فالإسلام يدعو إلى ثقافة الإنسان في جميع النواحي، ويحذر من التورط في تقاليد الآخرين مع الاحتفاظ بقاعدة الحياء، فالحياء من الإيمان ومن لا حياء عنده لا خير فيه.

وفي رأيي لا يتم تدريسها مادة منفصلة، لأن ذلك سيلفت الانتباه ويتضمن لوناً من الإثارة في العنوان ذاته، ويمكن تدريس الثقافة الجنسية في إطار الثقافة الجسمانية التي تتناول الثقافة الفكرية السمعية والبصرية، حتى لا يتم التركيز على جزئية التمتع والإثارة وإشباع الرغبات وإهمال باقي أجهزة الجسم. أو يتم تدريسها في إطار مادة الثقافة الإسلامية العامة، ويمكن أن تقسم إلى جزء يدرس ضمن الدين، وهو ما يتصل بفقه الطهارة والغسل والفقه، وجزء يدخل في مادة العلوم وهو ما يتصل بوظائف الأعضاء، وفى الاقتصاد المنزلي تدرج ضمن النظافة العامة وبعض النواحي الصحية، أما إذا تجاوزنا ذلك كان الأمر دعوة لتفتيح الأذهان ونشرًا لما لا يحمد عقباه.

ولا بد من تأهيل المعلم والمعلمة لأن دورهما مهم جدًا قد يكون أهم من المنهج نفسه، فلابد أن يكون المعلم على خُلُق ودين، ويتلقى دورات تدريبية تؤهله

لتدريس هذه المادة سواء في التربية الإسلامية أو علـم الأحيـاء أو الاقتصـاد المنزلي. والأمر يتطلب لجنة من علماء الأزهر، ومن الفروع العلمية ذات الصلـة بـالموضوع، ولابد أن يكونوا علماء ثقات في مجال علـم النفـس والاجتمـاع والتـاريخ والأحيـاء والهندسة الوراثية، والطب والفقه والتفسير، ويجـب طـرح هـذا الأمـر ليـس علـى مستوى مصر فقط، ولكن على مستوى العـالم العربـي والإسـلامي للمشـاركة في هذه اللجنة، وهذا قد يستغرق سنوات، ومهمة اللجنة: التشاور في النقاط التي يجب أن يتضمنها المنهج، ويا حبذا لو تم ذلك في مجمع البحوث الإسـلامية الـذي يجتمـع أعضاؤه كل عـامين أو ثلاثـة لأن القضيـة سـلاح ذو حديـن، إذا أهمـل سـيحدث الجهل به آثاراً ضارة، وإذا أبيح على الإطلاق سيحول المجتمع إلى مجتمـع غربـي أو أمريكي وهذا لا يناسب ديننا وآدابنا وتقاليدنا على الإطلاق)).

وجهة نظر مختلفة:

عرضت إحدى القنوات التلفزيونية مقابلة بـين أحـد الفقهـاء الممـانعين لتدريـس التربية الجنسية وبين أحد الأطباء المشجعين لها، وتحولت المقابلة إلى مشادة ممـا دعـا الدكتور خالد منتصر وهو أحـد طـرفي الحـوار لكتابـة مـا يلـي: ((عندمـا كنـتُ في المرحلة الإعدادية وأتى اليوم المشهود يوم حصّة العلوم التـي سيشـرح فيهـا المـدرس الجهاز التناسلي، دخل علينا الأستاذ الجهبـذ والعـرق يبلّـل نظارتـه السـميكة برغـم الشتاء القارس وزفّ إلينا البشرى السعيدة وهي أن هذا الجـزء مـن المنهـج محـذوف ولن يأتي ذكره ضمن أسئلة الامتحان، كان المـدرس يتحـدث وكأنـه يتخلـص مـن عار وذنب وحمـل ثقيـل، وتنفس بعدهـا الأسـتاذ الصعـداء، وكنـا نسـتمع وكأننـا مشتركون في إثم وحمِدنا الله على أننا تخلصنا من ساعات مذاكـرة زيـادة وسـؤال سخيف في الامتحان، ولم نكن نعرف وقتها أن موقف الأستاذ هو تلخيص وامتداد لموقف المجتمع ككل، وأن حـذف النصـف الأسـفل مـن الجسـم ليـس قـرار وزارة التربية والتعليم وحدها بل قرار ثقافة عربية خائفة ومرعوبة تعاني من (الشيزوفرينيا)

تجاه الجنس والجسد، تتحدث ليل نهار عن الجنس ولكنها في العلن وأمام الشاشات تحتقره، وتتخيل أنها بقدر إدانتها له بقدر اقترابها أكثر من معاني الشرف والسمو، ثقافة تخلق من الجسد مشكلة وهو في الأصل حلّ، وتحوله إلى عورة شاملة وهو في البدء طاقة فعالة)).

ويحكي د. منتصر عن تلك الحلقة في البرنامج التلفزيوني فيقول: ((ضمّت حلقة النقاش في البرنامج رجل دين فاضل، واحتد النقاش بيننا وكان أفضل ما فيه أنه لخص وجهة النظر السائدة عن الجنس وهي للأسف نظرة متخلفة، قال الرجل ولم يوارب وفتح النار على كل ما يسمّى ثقافة جنسية وقال: تكفينا كتب الدين فقط، وسخرَ من العلم وهو يقول "أنه في إعدادي الأزهر عرف من خلال كتب الفقه عن الجنس ما لم يعرفه أطباء النساء والولادة !!" وبالطبع كانت أهمية حديثه ليست في قوة حجته ولكن في مقدار تعبيرها عن فكر ونبض تيار رئيسي ومسيطر على عقل الشارع المصري، ومن هنا كانت أهمية طرح الأفكار وكشف المغالطات حتى يتسنى لنا معرفة ما هي ضرورة تدريس الجنس في المدارس.

أولى النقاط التي طُرحت ويتبناها الكثيرون ويرددونها في مناقشاتهم وكتاباتهم هي أن الجنس غريزة حيوانية وبالطبع كل ما هو حيواني لا يصح أن يدنس محراب العلم! وأنا على العكس أرى أن الجنس هو أرقى الغرائز البشرية وأهمها وهو يمثل أسمى وأعلى أنواع التواصل الإنساني، وليس صحيحاً أن يقال أنه ما دامت الحيوانات تتناسل وتمارس الجنس بدون تعليم فلماذا ندرسه نحن بني البشر؟! فالجنس عند الإنسان يختلف بالطبع عنه عند الحيوان، فالإنسان ليس لديه موسم تزاوج محدد فهو يمارس الجنس في أي وقت وهذا يثبت أن وظيفة الجنس الإنجابية وظيفة هامشية فالأساس هو المتعة ثم الأهم التواصل، ولذلك فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يواجه أليفه ورفيقه وجهاً لوجه عند اللقاء الجنسي حتى يحسّ ويألف ويحتضن ويمنح الدفء ويكتسبه عكس جميع الحيوانات التي تمارسه بلا مواجهة

مباشرة وبطريقة ميكانيكية بحتة. إذن الجنس تفاعل نفسي قبل أن يكون تفاعل جسدي، وتسميته الغربية (MAKING LOVE) هي تسمية معبرة تماماً عما أعنيه عن أن الجنس مصنع للحبّ وليس للعيال! وبهذا يثبت أن الجنس هو أعلى الغرائز إنسانية وأن إدانته على أنه شيء حيواني لا تتم إلا عندما يعم الفساد الأخلاقي فيدّعي الجميع الشرف على جثة الجنس.

والنقطة الثانية التي يرفعها البعض في مواجهة المنادين بتدريس الجنس في المدارس هي: لماذا ندرس الجنس وجدودنا لم يدرسوه وكانوا في منتهى الفحولة؟ وهو منطق خاطئ يختزل الجنس في وظيفته الإنجابية ويربطه بالفحولة والرجولة ويتناسى أن التواصل قبل التناسل، ويتناسى أيضاً أن السلوك الإنساني كائن حيّ يتطور وينمو وكذلك الغرائز، وإلا فلماذا نأكل بالشوكة والسكين والملعقة وتضع المطاعم زهوراً على الموائد؟ ونحن نستطيع أن نلتهم الطعام بالأيدي بدون الحاجة لتلك الطقوس المعطلة للغريزة، أعتقد أن الإجابة هي في كلمة التحضر الذي يفرض علينا معان جديدة حتى في الجنس أهمها أن تعبير المرأة أو مشاركتها الفعالة في الجنس ليس عيباً أو حراماً، وأيضا أن الجنس ليس لقاء أجساد في غرف نوم مغلقة بل قبل ذلك لقاء ثقافات وعقول سابقة التجهيز تحمل أفكاراً مسبقة !

وبتغيير مفاهيمنا السابقة أولاً عن الجسد ثم الجنس نستطيع ببساطة بعدها أن نتحدث عن أهمية تدريسه، وأنا لا أطالب بتدريس الجنس كمنهج مستقل وإنما يجب أن يتخلل المناخ التربوي والتعليمي نفسه، ولا يصبح مدرّس العلوم بذلك هو المسئول الأول والأخير، فتدريس قصائد الغزل في درس اللغة العربية جزء من التربية الجنسية، ومشاهدة حظيرة المدرسة جزء من التربية الجنسية، ومدرّس الألعاب حين يمنع طالبة من أداء تمارين الجمباز بحجة الخوف على غشاء البكارة فهو يرتكب خطأً فاحشاً في التربية الجنسية، وكذلك مدرّسة الحضانة التي تعنّف الأطفال وتفصل الذكور عن الإناث فهي أيضاً ترتكب نفس الخطأ، أما مدرّس الدين والذي

عادة ما يعترض على تدريس الجنس في المدارس ويعتبره فسقاً وفجوراً فكيف بالله عليك سيواجه التلاميذ الذين سيسألونه عن المحيض والزنا وقصة سيدنا يوسف عليه السلام ومعنى الأرحام والفرج وآتوا حرثكم أنى شئتم... إلخ!!؟).

وقبل الانتقال إلى الفقرة الأخيرة من هذا الفصل لا بد من مناقشة بعض الأفكار الواردة في كلام الأخصائيين السابقين سواء كان قبولاً أو رفضاً، لعلي بذلك أُقرّب وجهات النظر المختلفة وأعرض وجهة نظري الخاصة:

فمع الموافقة التامة على أن الإسلام دين كامل وشامل لكل نواحي الحياة، يجب أن نتّفق أيضا على مدى تقصيرنا جميعاً بنقل هذا الكلام من منحى التنظير إلى مجال الواقعية، وكثيراً ما نستهجن المقبول في بعض المجتمعات إذا لم نعتد عليه في مجتمعاتنا، وكأن ما توارثناه عن أجدادنا هو الدين الحق الذي لا لبس فيه، مع أن كم المتوارثات والتقاليد التي تحكمنا أكثر بكثير من الموروث الديني الحقيقي.

وبرأيي الخاص فإن تدريس الثقافة الجنسية لا يحتاج إلى كم من الأخصائيين النفسانيين والعلماء والفقهاء فحسب، بقدر ما يحتاج إلى مراجعات من المواقف العدائية المسبقة التي نتخذها ضد كل من يسعى إلى التغيير والإصلاح، وأنا بذلك لا أدعو إلى السذاجة بأن نقبل كل ما يُعرض علينا من أفكار، لكن في نفس الوقت ليس من العقل أو الحكمة أن نستمر في دفن رؤوسنا في الرمال، وإذا كانت الثقافة الجنسية تفرض تدريسها على أولادنا فلا يمكن أن نبدأ بها في نهاية المرحلة الإعدادية لأنها لم تعد هي بداية المراهقة، بل الحقيقة أنه في ذلك الوقت يكون قد تكون لدى المراهق معلومات غريبة وعجيبة مما يجمعها من الفضائيات والإنترنت والأصدقاء، والأفضل البدء بالتوعية لحاجة كل جنس للآخر من الصغر، بدءاً من عالم النبات إلى عالم الحيوان إلى عالم الإنسان.

إن المعلومات الواجب توافرها في منهج متكامل للتربية الجنسية تبدأ في المرحلة الابتدائية بعملية التكاثر عند النبات ثم الحيوان لتصل إلى التكاثر عند الإنسان في

المرحلة الإعدادية؛ وتذكر الفروق بين الذكر والأنثى تشريحياً وفيزيولوجياً، والأسباب المؤدية إلى هذه الفروق ألا وهي الهرمونات التي تفرزها الغدد التناسلية المختلفة بين الذكر والأنثى. هذا من الناحية العلمية أما من الناحية الاجتماعية فيجب أن تبدأ كذلك من المرحلة الابتدائية بأن هذه الفروق الجنسية تؤدي إلى فوارق اجتماعية لها أثرها الحميد في المجتمع بحيث يؤدي كل من الذكر والأنثى دوره في المجتمع بدون تضارب أو تنافس أو إعلاء لجنس على جنس، وكيف أن علاقة الرجل بالمرأة متعددة الجوانب وتتعدى الجانب الجنسي. وفي المرحلة الإعدادية يركز على الدافع الجنسي وأن له منزلة دينية سامية واجتماعية قيمة، ولذلك يجب أن لا يمارس إلا ضمن إطار الزواج، والمخاطر الدينية والنفسية والاجتماعية والصحية للجنس غير الشرعي، والفوائد البيولوجية والاجتماعية لعملية الاتصال الجنسي، مع الاستفاضة بالمعاني الدينية والإيمانية للتقيد بأحكام الدين في الطهارة والأعمال الصالحة والابتعاد عن الفاحشة. ويراعي هذا المنهاج المرحلة العمرية للتلميذ وليس بالضروري أن يكون هذا المنهاج مستقلاً عن غيره من المواد، لكن يحبذ أن تكون المواد مترابطة مع بعضها البعض فيما تطرحه من مواضيع، متكاملة بين بعضها البعض، وغير متناقضة في المعلومات التي تقدمها.

في بعض المناهج الأجنبية المعتدلة تبدأ هذه الدراسة بكتب العلوم والأحياء حيث يُشار إلى أعضاء التكاثر في النبات بنفس مسمياتها عند الحيوان والإنسان، فتسمى حبيبات الطلع الذكرية بالنطاف (sperms) والجوف في الزهرة الأنثى والذي يحوي بداخله حبيبات أنثوية يسمى بالمبيض (ovary) ، وتسمى هذه الحبيبات بالبويضات (eggs)، وهكذا عندما ينتقل الطفل إلى نهاية المرحلة الابتدائية يكون قد حوى في ذاكرته ألفاظا لن يجدها غريبة عنه عندما يُدرس له الإلقاح في علم الحيوان، والتسميات المشتركة بين الحيوان والنبات كثيرة ويمكن من خلال هذا التشابه تقديم معلومات وافية وصحيحة دون أن تشكل خطراً على الطفل، بل

تجيب على أسئلته، وتغنيه عن اللجوء إلى المصادر الأخرى. وفي بداية المرحلة الإعدادية يتم تدريس هذه المعلومات نفسها عن الإنسان بأسلوب بسيط ونظيف، وليس فيها ما يدعو إلى الخجل مما يذكره د. خالد منتصر عن أستاذه.

وفي مناهجنا الدراسية لمادة العلوم في أغلب البلاد العربية يتم تدريس التكاثر والتزاوج في عالم النبات والحيوان والإنسان، وهذه المواد وإن كانت تشكل مادة جنسية في النهاية لكنني لا أرى أنها كافية، وقد سقت في الملحق نموذج من كتاب علمي غربي للمرحلة الإعدادية، ويُلاحظ أن نهايته موضوع متعلق بالجنس والمجتمع، فنأمل أن تضم مناهجنا العلمية مثلاً موضوعاً متعلقاً بالجنس وأهميته ومعناه الإنساني والغاية من التناسل والفرق بين الجنس المحاط بإطار الشرعية وهالة القدسية وبين الأنواع الأخرى من الجنس التي أدت إلى انتشار الفاحشة، أو على الأقل أن يوضع دليل للمعلم كيف يتناول الموضوع من وجهة نظر دينية نفسية اجتماعية خُلُقية صحيّة سليمة.

أما بالنسبة لما يُقدَّم في المادة الدينية عن التربية الجنسية، فإن تلاوة القرآن المنصوص عليها شرعاً أن تكون بتدبر وفهم كي يستطيع المسلم تطبيق معاني القرآن في حياته الخاصة والعامة، تضع المربي وجهاً لوجه أمام أسئلة جنسية تصدر عن الطفل بعفوية، ولا يُفهم من هذا أن القرآن يجب أن لا يُدرّس في المدارس لكن ينبغي أن يشرح للطفل معاني الكلمات التي تثير تساؤلاته، وإذا كان كثير من الأئمة حفظوا القرآن باكراً ولم تؤثر الكلمات التي تخص الموضوع الجنسي في نفوسهم فالسبب فيما أعتقد ليس أنهم لم يكونوا يسألون، بل إنني أعتقد بذكائهم وحبهم للمعرفة ومَلَكة الاستطلاع لديهم وإلاّ لما أصبحوا أئمة، لكن يجب أن نعترف أن الزواج كان ميسراً للولد بمجرد بلوغه سن الحلم وليس كما هو الحال الآن.

كما أن هناك نوعا من القصص القرآني التي تقدم الجنس موضوعاً لكن بشكل راق جداً، وهي قصة يوسف عليه السلام، ويمكن الاستفادة منها بتدريسها في نهاية

المرحلة الابتدائية لنمو جنسي سليم. وقد وضعت منهاجاً دينياً لبعض المدارس الخاصة وكان من ضمن المنهج قصة يوسف عليه السلام في الصف السادس الابتدائي. وكذلك قصة لوط عليه السلام يمكن دراستها في سنوات أكبر بحيث يتشكل لدى الولد اتجاه جنسي صحيح نحو الجنس الآخر، وهذا شيء مهم جداً في هذا العصر الذي كُثر فيه المنادون بحقوق الشواذ!

وهناك أبحاث فقهية ودينية كذلك هي مَثار للتساؤلات مثل الطهارة التي تحوي ضمناً أحكام الغسل من الجنابة والحيض، والصيام الذي يعني الصيام عن إتيان الشهوة أيضاً وليس الطعام والشراب فحسب، والحج فيه تشريعات وأحكام لها علاقة بالجنس.

إضافة إلى أن نماذج الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تأمر بستر العورة والاستئذان وغض البصر وتحض على الحياء، كلها تُعلي من قيمة الجنس في نظر الناشئ إذا تم تدريسها بشكل سوي، ولكن مشكلة المناهج الدينية ليست في المناهج تحديداً لكن في أسلوب المعالجة الذي يتم بها هذا الأمر من قبل المعلمين والمعلمات، فقد تهمل هكذا أبحاث بسبب الحياء المرضي لبعضهم أو بعضهن، وأذكر أن إحدى صديقاتي في الصفوف الثانوية أصرت أن تعرف ما معنى كلمة الجنابة، وأصرت المعلمة أن التلميذة تعلم، فلم تحاول أن تشرح لها، وعلى فرض أن ظن المعلمة بالفتاة كان صحيحاً فالسؤال المطروح: هل كل الفتيات كن يعلمن معنى هذه الكلمة؟ لقد كان الموضوع مناسبة هامة للحديث عن القيم الإسلامية الجنسية وأهمية التمسك بها ليكون المجتمع سليماً معافى، فإذا كان بالإمكان إهمال هذه المعاني للصفوف الصغيرة، أليس من الواجب شرحها لفتيات في سن الزواج؟!

أما الفقيه الذي يقول: " إن كتب الفقه تُعلم التلميذ أكثر مما يعلمه المختصون في هذا المجال" فيمكن الرد عليه أي أن كثيرا من هذه الكتب لا تُعنى ببث الثقافة

المناسبة في الوقت المناسب، ولا يتم عرض المعلومات بالأسلوب الأمثل، بل إن منها ما يثير انتباه الطالب إلى أشياء لا يعرفها، ولم يشعر بها بعد، والأمثلة أكثر من أن تُعد وتُحصى، ففي بعض المدارس الدينية يتم التبحر الكلامي والفقهي على حساب التعمق الإيماني والأخلاقي. وبعضها مع الأسف يَرِد فيه كثير من التركيز على جُزئية التمتع والإثارة وإشباع الرغبات، وربما كان الأمر يتم بدون قصد لكن من أخطر الأشياء أن يتم تدريس هذا العلم بدون ذكر الجانب الإنساني منه، أو دون مراعاة نمو الأولاد العقلي والذهني والجسمي. والذي يمارس الجنس دون فهم المعنى الإنساني منه ودون الوصول إلى السكن الروحي الذي عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾، لن يختلف عن ممارسة بعض الغربيين له على أنه متعة عابرة فقط، فرغم أنهم يسمونه ممارسة الحب فكثيراً ما يخلو الأمر من الحب وإنما هو فقط بقصد التنويع والتغيير، وخاصة أنه يتم لديهم بدون ضابط شرعي أو قيد مدني، وبذلك ينزل الجنس إلى الدرك الحيواني فلا فرق بينه وبين وظيفة إطراح أخرى! وكأنه عمل روتيني.

إذن يجب أن لا نغرم ببعض التسميات الغربية دون أن نعلم مدى الخطأ المتراكم خلفها، فمنذ (فرويد) تم خلط الحب والجنس على أنهما شيء واحد، حتى أن (فرويد) أنكر أنه شعر بهذا الذي يسمونه الحب ولو مرة واحدة في حياته، وهذا ما يؤكد لنا أن المصطلح الغربي (ممارسة الحب) بعيد عن كل البعد عن مفهوم الحب ذاته!

ولا بد من تأكيد المعنى الإنساني في الجنس في عقولنا لنستطيع أن نؤكده بعد ذلك في عقول أولادنا، وإذا كنت أتفق مع د. منتصر في هذا الأمر فهناك أمور لا أوافقه عليها تماما، ومنها مثلاً موضوع القصائد الغزلية أو ما يعرف بالنسيب وهي ترد في مناهج بعض البلاد العربية دون بعضها الآخر، لكننا يجب أن نعود التلميذ على أدبيات النقد الموضوعي فهناك الغزل العذري والذي يقوم على وصف ما يراه

الشاعر من جماليات تتميز بها محبوبته مثلاً، بينما في الغزل الحسي تعلو القيم المادية من جمال الجسد والصورة على القيم الأخلاقية، وبما أن هذه المناهج تساهم في بناء عقول الجيل بشكل أو بآخر فيجب الانتباه إلى ما يقدم، وعلى سبيل المثال بقيت قصة الموسيقي الأعمى في الصف الثالث الإعدادي، وهي من الأدب الروسي، تدرس على مدى خمسة عشر عاماً أو أكثر في سوريا، وتأخذ من اهتمام الطالب عاماً دراسياً كاملاً؛ ولا مانع من اطلاع الفتى أو الفتاة على الأدب العالمي، كما لا مانع من إعلاء قيمة الحب كمفهوم إنساني نبيل، لكن أن يشغل عقل الطالب أو الطالبة به طوال العام فهذا إعلاء من قيمة الحب الشخصي على حساب القيم الأخرى من حب الوطن والأهل إضافة إلى أنه تجاهل للروابط الاجتماعية والقضايا الإنسانية الأخرى التي تعالجها بشكل أوفى قصص إنسانية من الأدب العالمي في منتهى الروعة والجمال والأدب.

كذلك ليس محبذاً أن تمارس الفتاة دروس الألعاب على يد مدرس، فهذا يخل بفضيلة الحياء التي هي من أفضل فضائل الفتاة ويجب أن تربى فيها دون أن تكون عائقاً يحول دون ثقتها بنفسها، ولا نعتبر هذا تقليداً بل هو من صميم ديننا وثقافتنا الإسلامية الرشيدة، وسأطرح في الملحق الثالث بالكتاب فصل خاص ببعض المشاكل النفسية والاجتماعية ومنها الناجمة عن تحرش المدرس بالفتاة وكذلك الناتجة عن عدم الفصل بين الجنسين في الألعاب، لأن فصل الأطفال في الروضة ذكوراً وإناثاً في أوقات اللعب إذا تم بشكل لطيف وواع فلن يؤثر في نفسية الأطفال، بل يجب أن يوجه كل جنس ليلعب مع جنسه، وأن البنات مع البنات والصبيان مع الصبيان دون أن يخلق هذا عقداً نفسية بمعنى أننا إذا وجدنا صبياً يحب أن يلعب مثل البنات فلا يُستهجن هذا ولا يُنكر عليه، لكن يُوجه بلطف إلى أن هذه الألعاب لا تناسبه، وهؤلاء الأطفال يكون سبب لعبهم المخالف لباقي الأطفال في سنهم راجعاً إلى ظروف تربيتهم فمثلا هناك الطفل" البنوتة" قد يكون محاطاً بأخوات أو

عمات أو خالات كثيرات فهو يقلدهن أو قد يكون يتيماً أو والده مسافر أو منفصل عن الأم أو قد يكون الأب عنيفاً معه دائماً، بحيث لا يكون أمامه مثل أعلى يجتذبه من أمه وباقي الإناث في أسرته فهو يأنس لهن ويجلس معهن دائماً ويبدأ في تقليدهن في الكلام وفي شغل الإبرة أو في اللعب بالعرائس. والبنت المسترجلة قد تكون أسرتها كلها أولاد أكبر منها أو في سنها ويصحبونها في لعبهم، وقد تكون أول طفلة في أسرة ويريد الأب أن يكون لديه ولد ولذلك فهو يشجع البنت أن تكون مثل الولد في لعبها.

وواضح أيضا أن معالجة هذه المواقف في أولها أسهل بكثير ولا يكلف الأم والأب إلا البحث عن الخطأ في أسلوب التربية ومعالجة ذلك الخطأ، وإذا تعذر عليهم اكتشاف الخطأ أو علاجه فيجب اللجوء فوراً إلى الطبيب فهو أقدر على القيام بهذه المهمة، وهذا مهم جداً في توجيه الطفل إلى معرفة جنسه وتمييزه عن الجنس الآخر.

(يحدث في مرحلة الطفولة الباكرة بدايات انخراط الطفل في جنسه، وتبدأ الثقافة تعمل عملها بالنسبة لتصنيفه سيكولوجياً واجتماعياً حسب جنسه، وهو ما يسمى بعملية التنميط الجنسي، فالتنميط الجنسي هو تبني الآباء للاتجاهات التي من شأنها أن تُنشئ الطفل تنشئة الجنس الذي ينتمي إليه، مع ملاحظة أن هذه الاتجاهات هي اتجاهات المجتمع. ومعظم الحضارات عبر العصور ترى أنه من الضروري أن يكون لكل من البنين والبنات سلوك خاص بكل منهم. ومن أساليب التنميط الجنسي ضمني وأن منها ما هو مباشر يتمثل في توجيهات الآباء. فالآباء يشجعون أبناءهم الذكور على رد العدوان إذا وقع عليهم لأن ذلك من شيمة الرجال، ولا يشجعون نفس السلوك لدى البنات. ويمتدح الآباء سلوك التفوق الرياضي عند الأبناء ولا يُرحّبون به عند البنات لأنهم يعتبرونه سلوك مُنقِص للأنوثة. وعملية التنميط هذه ضرورية لكي ينمو الطفل نمواً سليماً. وإن كان الوالدان لا يحتكران هذه العملية

فإنهما يقومان بالدور الأكبر فيها. ولذلك فإن إهمالها يسبب للطفل متاعب جمة في حياته الاجتماعية لأن الخلط بين السلوك الذكري والسلوك الأنثوي لا يَلْقَ تسامحاً أو تهاوناً من المجتمع) (٢).

(ونجد بعض الأمهات خاصة في الريف وفي الأحياء الشعبية بالمدن ينكرن جنس الطفل فتقول الأم على ابنها الذكر أنه أنثى خوفاً عليه من الحسد، وقد تُلبسه ملابس البنات حتى سن متأخرة. وتُخطئ بعض الأمهات بصورة أكبر عندما تعامل ابنها الذكر على أنه أنثى لأنها كانت تريده طفلة جميلة وليس ذكراً أو العكس. ويمكن أن نتصور ما يواجه الطفل الذكر عندما يلعب أو يسلك كما تسلك البنات أو العكس من تعليقات وردود أفعال أصدقائه وزملائه) (٢).

القيم الغربية وفرضها على مجتمعاتنا:

منذ فترة طويلة والغرب يحاول فرض قيمه على مجتمعاتنا العربية والإسلامية، بدأ ذلك ربما من الحروب الصليبية الأولى واستمر عبر حملات موجّهة للعالم الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة، ولكننا وبعيداً عن منطق المؤامرة يجب أن نعترف بانهيار الجهاز المناعي الثقافي لنا مما سهّل لجراثيم الفكر الغربي أن ترتع في عقول بعضنا، فكثيراً ما يلهث المثقفون - أو بالأحرى أدعياء الثقافة - وراء أضواء الحضارة الغربية دون أن يدركوا أن خلف تلك الأضواء تقيم أشباح من عبادة اللذات والذات والمتعة، وكثيراً ما تقوم مجموعات من المسلمين - بالهوية فقط- بتأييد الغرب فيما ينادي إليه من إباحة العلاقات الجنسية وتأكيد حرية الجنسين في المعاشرة قبل الزواج وأن كل هذا يدخل ضمن مفهوم الحريات الشخصية، دون أن يدرك هؤلاء أن حرية الفرد الشخصية يجب أن تتوقف عندما تكون سبباً لفساد اجتماعي وانهيار أخلاقي وإلا تحوّلت الحريات إلى فوضى.ما يهمنا في هذا المجال هو الأسرة والطفولة والأمومة، خاصة مع المؤتمرات التي تُعقد هنا وهناك وبشكل دوري للمناداة بحقوق المرأة وحقوق الطفل، وكان منها مؤتمر القاهرة للأسرة،

الذي أعقبه مؤتمر بكين، حيث سعت البلدان الغربية إلى فرض النموذج الغربي القائم على الإباحية في العلاقات الاجتماعية، وتجاوز الأسرة كمفهوم اجتماعي فطري عرفته البشرية منذ بدايتها لصالح أشكال جديدة من الأُسر التي شهدها الغرب، منها على سبيل المثال لا الحصر: الأسر التي تعولها الأم العازبة، وهي تلك المرأة التي تمارس الفعل الجنسي مع مجموعة من الرجال وتبقى هي المسؤولة عن الأطفال التي أنجبتهم منهم وتنسبهم إليها، والأُسر التي تقوم على الجنس الشاذ حيث هناك محاكم خاصة يمكن للشاذين رجالاً ونساءً من الزواج عبرها، وإذا استمر الوضع على ما هو عليه في الغرب أو إذا سارت البشرية كلها على هذا النهج فإلى أي هاوية تمضي؟؟ وهذا كله في كفة وتجارب الاستنساخ على الإنسان في كفة أخرى!!

وما يخص مجال البحث هنا هو القيم الغربية التي انصبّت على الأطفال، إذ يجيء التركيز الآن على الأطفال من قبيل "التعليم في الصغر كالنقش على الحجر"، فتربية الأطفال وصياغة عقولهم منذ الصغر وفق النموذج الغربي تعني أنهم لن يرغبوا عندما يكبرون إلاّ بالنمط الذي اعتادوا عليه وهم صغار. وقد قامت بعض الدول العربية بتحديد نهاية مرحلة الطفولة بسن الثامنة عشرة بناء على توجيهات منظمة الصحة العالمية، وهذا فيه خطأ كبير إذ أنه يجعل الجيل لا يتحمل المسؤولية عن أفعاله، وكان من الأفضل الفصل بين سن الطفولة الذي هو ١٢ سنة وسن الرشد الذي هو ٢٠ أو ٢١ سنة بسنوات المراهقة التي أخذت تسميتها من كلمة (teenager) والأعداد التي تنتهي بمقطع (teen) بالإنكليزية هي "١٣ و١٤ و١٥ و١٦ و١٧ و١٨ و١٩".

والطامة الكبرى هي الوثيقة التي صدرت عن الأمم المتحدة تحت اسم " عالم جدير بالأطفال":

وقد أثار مضمون الوثيقة موجات متتالية من الاعتراض من قبل المنظمات

الإسلامية - والمسيحية أيضاً- لما جاء فيها من منافاة لأبسط قواعد الفطرة، ناهيك بالقيم والأخلاق الإسلامية؛ فهي تتحدث في مجملها عن تمكين الطفل بشكل يخرجه من سلطة الأسرة والأبوين على النسق الغربي، وتدعو إلى انهيار السلطة الأبوية والمدرسية بشكل واضح، وتضع بدلاً منها مؤسسات الدولة، حتى إن كلمة "أسرة" في وثيقة كهذه - للأطفال - لم ترد إلا مرتين أو ثلاثة على الأكثر، فالتعامل مع الطفل يتم بطريقة فردية، كما تم التعامل مع المرأة من قبل في وثيقة "بكين" خارج الإطار الأسري والاجتماعي. والوثيقة رغم كونها للأطفال إلا أنها مستغرقة في كم رهيب من المفاهيم الجنسية تحت دعوى أن الطفل هو من يندرج تحت عمر ١٨ سنة، وبذلك فإن المشاكل الجنسية تدخل في اختصاص الوثيقة؛ لمناسبة هذه المرحلة السنية للطفل. كما تدعو الوثيقة إلى إباحية الإجهاض والحرية الجنسية قبل الزواج، وحق البنات في الحصول على خدمات الصحة الإنجابية كتنظيم الأسرة، كما تطالب أيضاً بضرورة تدريس الجنس في المدارس، وتضع تصورات لمناهج الثقافة الجنسية للأطفال خارج نطاق الأسرة بشكل يثير الفوضى الأخلاقية، ويدمر براءة الأطفال في الأجيال القادمة، ويجعلها نموذجاً للطفولة الغربية المفعمة بالعنف والاستحواذ الجنسي، كما تعتبر الوثيقة أن الدفاع عن النفس والوطن يعد إرهاباً.

وإضافة إلى إهمال دور الأسرة ودور الدين في تنمية الطفل، كان من نقاط الضعف بوثيقة الأمم المتحدة "عالم جدير بالأطفال" حرصها الشديد على إعطاء كل الحقوق للأطفال، دون مطالبتهم بأي واجبات أو التزامات نحو أُسرهم، الأمر الذي يزرع في نفوسهم الأنانية وحب الذات، كما يغلب على بنود الوثيقة التظاهر بالاهتمام بحقوق الأطفال، بينما يتعرض الأطفال للقتل والتشريد والإصابة بالأمراض في كثير من المناطق، مثل العراق وفلسطين والشيشان وغيرها في البلاد الإسلامية خاصة. ولتأكيد التزام الدول بالتطبيق تطالب الوثيقة بالمراقبة والمحاسبة للحكومات على تطبيق البنود الجديدة.

وقد نجح ائتلاف المنظمات الإسلامية في الحصول على توقيع ٧٠ منظمة وهيئة ومؤسسة عربية وإسلامية وعالمية، تأييداً للوثيقة الإسلامية البديلة التي تتبنى "نشر ثقافة العِفّة في مواجهة الثقافة الغربية الإباحية" التي تروج لها وثيقة الأمم المتحدة. وقد توقفت الوثيقة الإسلامية البديلة أمام البنود التي تتعارض تعارضاً صريحاً مع الشريعة الإسلامية الغراء، ووضعت البديل الإسلامي لها، تارة بالحذف من تلك البنود، وأخرى بالإضافة إليها، وثالثة بتغيير بعض الجمل والعبارات، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- استبدال كلمة "نوع" المكررة في معظم بنود الوثيقة باستعمال كلمة "جنس" بدلاً منها، حيث يعتبر مصطلح "نوع" إفرازاً لفلسفة نسوية راديكالية ترمي إلى إلغاء جميع الفوارق البيولوجية والنفسية والأدوار الحياتية بين الذكور والإناث، واستخدام هذا المصطلح من معطيات هذه الفلسفة لإقرار الشذوذ الجنسي في المجتمعات.
- مطالبة الوثيقة بالمساواة التامة بين الجنسين والتعبير عن أي نوع من أنواع عدم المساواة بمصطلح "التمييز" أثار قلق المنظمات الإسلامية من إمكانية اصطدامه مع معطيات الشريعة الإسلامية؛ لذا اقترحت ضرورة التفريق بين "التمييز العادل" كالتمييز في الميراث مثلاً، "والتمييز غير العادل" مثل التمييز في فرص التعليم والصحة وغيرها.
- وتأكيداً لأهمية دور الدين في حياة الطفل وضرورة حمايته من أخطار العولمة الغربية، بالحفاظ على هويته الثقافية، تضمنت الوثيقة الإسلامية البديلة عبارة "تعزيز إنماء الطفل دينياً وروحياً وأخلاقياً"، إضافة إلى الفقرات الخاصة بتعزيز "إنماء الطفل جسدياً واجتماعياً وعاطفياً وعقلياً"، وإضافة: "مع احترام الاختلافات الثقافية والاحتفاظ بالهويات الثقافية والأخلاقيات ونظم القيم".

- وحفاظاً على دور الأسرة وأثر الوالدين في حياة الطفل، حرصت الوثيقة الإسلامية البديلة على تضمين عبارة "في إطار الأسرة مع احترام حقوق ومسؤوليات الوالدين أو الأوصياء القانونيين" (بالفقرات الخاصة)بـ "حق الأطفال في التعبير والمشاركة في صنع القرار".
- وفيما يتعلق بتعزيز الحياة الصحية للأطفال حرصت المنظمات الإسلامية على حذف العبارات الخاصة بـ "الرعاية الجنسية للمراهقين" و "حق المراهقين في التوعية الجنسية والصحة الإنجابية" واستعمال عبارة "حماية حق المراهقين في التوعية بثقافة العفة"، وكذلك استعمال عبارة" تنظيم الأسرة والرعاية عند الولادة للأزواج" بدلاً من مصطلح "الصحة الإنجابية".

ورغم أهمية التعديلات التي أدخلها ائتلاف المنظمات الإسلامية على وثيقة الأمم المتحدة "عالم جدير بالأطفال" إلا أنها تظل مجرداقتراحات تحتاج إلى تبنٍّ رسمي من البلدان الإسلامية الأعضاء في الأمم المتحدة التي يحق لها التحفظ على ما ترى من بنود لا توافق عليها في الوثيقة.

وبعد.. فإن هذه الوثيقة "عالم جدير بالأطفال" وغيرها من الوثائق التي تصدرها الأمم المتحدة – لاسيما الاجتماعية – تكشف عن مدى تقصيرنا في عرض بضاعة الإسلام الناصعة في هذا الصدد، حيث اقتصر همُّنا على مجرد التحفظ على بند أو فقرة أو استبدال عبارة أو حذفها، رغم أن ما لدينا يُقدم بديلاً شاملاً – لا ترقيعي أو تلفيقي – يُنقذ البشرية من هذا التهتك والإباحية التي تكاد تفتك بالإنسان في عالم حضارة المادة.

لقد رأينا فيما مضى ما أدت إليه الحرية الجنسية في بريطانيا وأمريكا وهذا مثال آخر من فرنسا: (نلاحظ أن هذه الحرية المتنامية تترافق مع فقدان المسؤولية والمبادرة الذي يؤدي بصورة طبيعية إلى الإباحية – دعارة الأحداث وانتشار الأفلام

الخلاعية- وباعتقادنا أن هذه الأوضاع مميتة وأنها معبرة عن حال وجود تقهقر سكاني مع وجود عائلة نووية ضعيفة وهدف منعدم التطور ومع ميل إلى التدمير الذاتي. الشبيبة مغترون مدللون وذو حظوة. لقد ابتكرت الأزياء من أجلهم، فكل الملابس والموسيقى والأبطال هم شباب. حتى إن الدين يبحث عند الشبيبة عن مصادر تجددية. وبعيداً عن رغبتهم في تقليد البالغين، فهؤلاء الشبيبة يودون التشبه بهم إلى حد الإيحاء ببعض اللاجنسية التي لا تلاحظ في التباس مظهرهم الجسدي فقط. بل في تشابه نمط حياتهم. إن الحرية الجنسية وإيقاف الحمل ووسائل منع الحمل الموضوعة في متناول الجميع، زادت كذلك في هذا الانقلاب الهام في الأدوار التقليدية. وتبدو الفتيات أكثر نشاطاً تناسلياً وأكثر عدوانية في عملية الإغراء).(١١)

وماذا بعد؟ هل نقف في موقف المتفرج من كل ما يحدث أم نبدأ بإعطاء لقاحات المناعة الإيمانية لأطفالنا منذ نعومة أظفارهم؟ في الحقيقة إن هذه المناعة تبدأ بالتكون من لحظة صرخة الميلاد الأولى وقد علمنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن نُؤذن في أُذن الوليد اليمنى بينما نؤدي الإقامة في أذنه اليسرى، كي يكون أول ما يرتسم على صفحة دماغه البيضاء هو كلمة التوحيد فهل نتوقف عن إضاعة المزيد من اللحظات؟!

الفصل الخامس عشر

حماية الناشئين من الاعتداء الجنسي

الاعتداء على الطفل يتظاهر في اتجاهات مختلفة منها الاعتداء الجسدي على الطفل والاعتداء العاطفي، وما يهمنا هنا هو الاعتداء الجنسي على الطفل.

وهو يعني إساءة استخدام الطفل جنسياً سواء صدرت هذه الإساءة من بالغ أو مراهق أو طفل أكبر منه سناً، وسواء أخذت شكل الخداع والحيلة أو شكل العنف والاغتصاب.

قد يكون الاعتداء الجنسي على الطفل وسيلة للإثارة الجنسية أو لإشباع النزوة الجنسية بشكل كامل أو جزئي عند من هو أكبر منه سواء كان شخصاً بالغاً أو مراهقاً، لذلك فللتحرش الجنسي أشكال متعددة.

وللاعتداء الجنسي على الطفل آثاره المدمرة لنفسيته عدا عن تشويه براءته أو تغيير فطرته أو حث الدافع الجنسي عنده بشكل لا يتلاءم مع عالم الطفولة الخالي من إرهاقات الغريزة الجنسية.

وهذه الآثار إما أن تظهر مباشرة في الطفولة أو أنها لا تبدو إلا في فترة خاصة من حياة الطفل كالمرور بوقت عصيب مثل طلاق الوالدين أو موت عزيز أو مشكلة في المدرسة، وقد لا تتظاهر إلا بعد البلوغ. وهكذا فإن التأثيرات إما قريبة المدى أو بعيدة المدى وتختلف درجة ظهورها باختلاف الطفل نفسه، فليس كل الأطفال يتأثرون بنفس الطريقة، ويختلف الأثر فيما إذا رافق الاعتداء عنف أوْ لا، وكذلك يكون التأثير أعمق كلما كان الاعتداء متكرراً أكثر ولمدة أطول. إضافة إلى أنها تعتمد على مدى قرب المعتدي من الطفل نفسه، فكلما كان أكثر قرباً للطفل كلما كان أثر الاعتداء أعمق، لأنه يعني للطفل خذلانه وخيانته من أقرب المقربين له؛ كما تعتمد على عمر الطفل عندما وقع عليه الاعتداء فكلما كان الطفل

أصغر كلما صعب التخلص من آثاره النفسية الهدامة، فالطفل الذي بدأ بمعرفة هويته الجنسية وتأكيدها أقل تأثراً من طفل لم يصل إلى هذه المرحلة بعد إذ لا يوجد طفل يستطيع أن يتعامل مع ظاهرة الحث الجنسي المتكرر لوحده، حتى الطفل بعمر سنتين أو ثلاث سنوات الذي لا يمكنه أن يفهم أن النشاط الجنسي هو شيء "خاطئ" في عمره، لا بد أن يُطور بعض المشاكل الناجمة عن عدم القدرة مع التعامل مع التحفيز الجنسي المستمر؛ بينما الطفل بعمر خمس سنوات يصبح شعوره مهتزاً بين محبته وإخلاصه لمن يعتدي عليه بحكم قرابته له، وبين أن الفعل الجنسي خطأ مريع. وإذا حاول الطفل التخلص من العلاقة الجنسية فقد يهدده المعتدي بالعنف أو التخويف أو بحرمانه من الحب. وعندما يحدث الاعتداء الجنسي ضمن العائلة فكثيراً ما يخشى الطفل من غضب أو خجل بقية أفراد العائلة، وقد يخاف من تهدم العائلة إذا باح بما يتعرض له من اعتداء، مثلاً قد يقول الطفل أو الطفلة لنفسه أو لنفسها:(إذا أخبرت أبي بأن أخي يعتدي علي ربما سيقوم والدي بفعل قاس تجاه أخي كأن يرسله إلى السجن).

آثار الاعتداء الجنسي قريبة المدى:

١ – اختلال تقييم الطفل لذاته.

٢– فقد الثقة بالنفس وبالآخرين.

٣– الشعور بالذنب والإحساس بالدونية.

٤ – الخجل الاجتماعي والانطواء على النفس.

٥– التفكير بالانتحار.

آثار الاعتداء الجنسي بعيدة المدى:

١ – المشاكل العاطفية والنفسية مثل عقدة الاضطهاد والشعور بالإحباط والإصابة

بالاكتئاب والأمراض النفسية الأخرى المتراوحة بين السلبية والانطوائية وبين العنف والعدوانية.

٢- المشاكل الاجتماعية مثل عدم التكيف الاجتماعي والرهاب الاجتماعي وضعف التحصيل الدراسي.

٣- المشاكل الجنسية كممارسة العادة السرية والوقوع في أسر أحلام اليقظة الجنسية، والشذوذ الجنسي أو العهر أو الاعتداء الجنسي على غيره عندما يكبر.

٤- الفشل في الحياة الزوجية خاصة في ليلة الزفاف نتيجة الخوف النفسي المرافق للعملية الجنسية أو الخوف من انكشاف عدم العذرية أو الشعور بالإثم لعدم مصارحة الزوج أو الزوجة.

٥- الفشل في التعامل مع الأبناء مستقبلاً نتيجة الخوف الزائد عليهم والقلق من تعرضهم لنفس التجربة.

المؤشرات المنذرة الدالة على إساءة استخدام الأطفال جنسياً:

المؤشرات الجسدية:

وهي تتظاهر ببعض ما يلي أو كله، مع التنبيه أن بعضها قد يشير إلى اعتداء جنسي أو إلى مشكلة أخرى في حياة الطفل يجب تقصيها والبحث عن أسباب وجودها مهما كانت:

١- صعوبة المشي أو الجلوس.

٢- كدمات غير مفسرة، احمرار، رضوض.

٣- النزف من المناطق التناسلية أو الفم.

٤- ملابس ممزقة.

٥- ملابس داخلية مبقعة أو ملطخة بالدم.

٦- الإحساس بالألم أو الرغبة في هرش الأعضاء التناسلية.

٧- قرحات في المناطق التناسلية أو وجود سائل حليبي فيها.

٨- الالتهابات المتكررة في المجرى البولي أو في الأعضاء التناسلية.

٩- الأمراض المنتقلة عن طريق الجنس.

١٠- الحمل أحياناً خاصة إذا كانت الفتاة قريبة من سن المراهقة.

المؤشرات النفسية والسلوكية:

قلّما يُفصح الأطفال للكبار بالكلمات عن تعرضهم للاعتداء الجنسي أو مقاومتهم لمثل هذا الاعتداء ولذلك فإنهم عادة يبقون في حيرة واضطراب إزاء ما ينبغي عليهم فعله في هذه المواقف. ولتردد الأطفال أو خوفهم من إخبار الكبار بما جرى معهم أسباب كثيرة تشمل علاقتهم بالمعتدي والخوف من النتائج إذا تحدثوا عن الأمر والخوف من انتقام المعتدي والقلق من أن لا يصدقهم الكبار.

وإذا لوحظ أي من المؤشرات التالية لدى الطفل فإنها تشير بوضوح إما إلى تعرضه لاعتداء جنسي أو إلى مشكلة أخرى ينبغي الالتفات لها ومعالجتها أيّاً تكن. علماً بأن المؤشرات العشرة الأخيرة أكثر تظاهراً عندما يكون الأحداث بسن قريب من المراهقة أو في المراهقة.

١- إبداء الانزعاج أو التخوف أو رفض الذهاب إلى مكان معين أو البقاء مع شخص معين (قد يرفض البقاء مع الخادمة أو جليسة الأطفال أو أحد الأقرباء أو أي بالغ أو طفل آخر).

٢- إظهار العواطف بشكل مبالغ فيه أو غير طبيعي.

٣- التصرفات الجنسية مع الألعاب أو الأطفال الآخرين كتقليد الفعل الجنسي مع الدمى أو الطلب من الأطفال الآخرين بما فيهم الإخوة القيام بأفعال جنسية.

٤- الاستخدام المفاجئ لكلمات جنسية أو لأسماء جديدة لأعضاء الجسم الخاصة.

٥- الشعور بعدم الارتياح أو رفض العواطف الأبوية التقليدية.

٦- القلق، الكوابيس، رفض النوم وحيداً، الخوف المفاجئ من الظلام أو مشاكل النوم الأخرى.

٧- اضطرابات الأكل كفقد الشهية أو فرط الشهية وصعوبات البلع وآلام البطن دون سبب محدد.

٨- التصرفات التي تنم عن نكوص: مثلاً مص الإصبع، التبول الليلي، التصرفات الطفولية وغيرها من مؤشرات التبعية.

٩- التعلق الشديد أو غيرها من مؤشرات الخوف والقلق (الخوف من الغول أو من الوحش).

١٠- تغير مفاجئ في شخصية الطفل (قد يتحول الطفل النشيط أو كثير الكلام إلى هادئ وساكن وسارح بمجرد رؤية شخص معين).

١١- المشاكل الدراسية المفاجئة والسرحان.

١٢- الهروب من المنزل والهروب من المدرسة.

١٣- الحصول المفاجئ على نقود.

١٤- الحديث عن صديق جديد أكبر منه سناً.

١٥- الاهتمام المفاجئ أو غير الطبيعي بالمسائل الجنسية سواء من ناحية الكلام أو التصرفات.

١٦- إبلاغ الطفل بتعرضه لاعتداء جنسي من أحد الأشخاص.

١٧- العجز عن الثقة في الآخرين أو محبتهم.

١٨- السلوك العدواني أو المنحرف أو حتى غير الشرعي أحياناً.

١٩- تأرجحات المزاج المختلفة (بين الثورة والغضب والانفعال) غير المبررة.

٢٠- سلوكيات تدمير الذات خاصة إذا كان في سن المراهقة.

٢١- تعمُّد إيذاء الجسد وخاصة الأعضاء التناسلية.

٢٢- الأفكار الانتحارية وقد يسيطر على المراهق فكرة الموت ويتظاهر ذلك بأشعار أو كتابات أو أسئلة حول الموت.

٢٣- السلوك السلبي أو الانسحابي وعدم المشاركة في النشاطات المدرسية أو الرياضية.

٢٤- مشاعر الحزن والإحباط أو غيرها من أعراض الاكتئاب.

٢٥- تعاطي المخدرات أو الكحول أو البدء بعمليات الإغراء والإغواء.

من هو الذي يقوم بالاعتداء الجنسي على الطفل؟ ولماذا؟

قد يكون المعتدي قريباً للطفل أو أجنبياً عنه، فقد يكون الأب أو الجد أو العم أو الخال أو الأخ الأكبر أو الجار أو المدرس أو أحد أصدقاء العائلة، وقد يكون أحد البائعين المتجولين أو أحد العاملين في مكان يتردد عليه الأطفال كالبقال أو المدرب في النادي أو شخص آخر. وليس من الضروري أن يكون المعتدي جنسياً على الطفل رجلاً دائما فقد تكون الأم أحياناً أو الأخت أو الخادمة.

إن المعتدين الغرباء هم الأشخاص الذين يعتدون أو يختطفون أطفالاً لا يمتّون لهم بصلة. ولذلك فهم لا يتطلعون لإقامة علاقة مع الطفل مثل المعتدين الذين يعرفون ضحاياهم، وإنما يرون في الضحية مجرد أداة لإشباع نزواتهم. وهم ينظرون للأطفال كضحايا لا حول لهم ولا قوة ولذلك يسهل استغلالهم لإشباع حاجاتهم المنحرفة ورغباتهم السقيمة.

ويتراوح هؤلاء المعتدون بين المغتصب السلبي والقاتل السادي. ومن الحيل التي يستخدمونها لجذب ضحاياهم الأطفال الرشوة والإطراء والحلوى وطلب المساعدة. وقليل منهم الذي يختطف الطفل مباشرة دون محاولة إغوائه أو استدراجه. وذلك مكمن الخطر، إذ معظم الأطفال ينخدعون بسهولة بمظهر شخص "لطيف" في موقف بريء ظاهراً.

ومن أكثر فئات الأجانب أو الغرباء خطراً أولئك المنحرفون المهووسون جنسياً بالأطفال، والذين "يتسكعون" في الأماكن التي يسهل فيها الاحتكاك بالأطفال مثل أماكن لعب الأطفال المعزولة ومثل هؤلاء المعتدين عادة يستدرجون الطفل ويتحرشون به ثم يطلقون سراحه. وهم عادة يفضلون الأولاد وتؤكد سجلات الشرطة أن مئات الأطفال تعرضوا للاعتداء الجنسي على هذه المنوال.

سبب الاعتداء الجنسي على الطفل قد يكون للاستمتاع الجنسي وقد يكون للاستمتاع بالقوة، وبعضهم قد يصبح مدمناً على ذلك بحيث لا يصل إلى الإثارة الجنسية إلا عن طريق إساءة استخدام الأطفال جنسياً.

يمكن الشك بأحد الأشخاص المحيطين بالطفل بأنه قد يكون غير طبيعي في تعامله مع الأطفال من خلال التظاهرات التالية (مع ملاحظة أن المرجع هنا أمريكي) إن الأعراف الاجتماعية تتدخل في تكوين النظرة الاجتماعية لتصرفات الأشخاص ويوجد في بعض البيئات في المجتمعات العربية بعض التصرفات المقبولة دون أن يكون لها دلالات تحرشية:

١- يرفض أن يدع الطفل ليضع أي حدود بينه وبين ذلك الشخص.

٢- يجبر الطفل على العناق أو التقبيل أو الدغدغة أو المصارعة في الوقت الذي لا يرغب فيه الطفل بهذه الانفعالات.

٣- يهتم بشكل زائد بنمو الطفل أو المراهق الجنسي.

٤- يطالب ببقاء الطفل معه بشكل مُبالَغ به.

٥- يقضي أغلب وقت فراغه مع الأطفال وليس مع البالغين من عمره.

٦- يعرض أن يكون جليساً للأطفال بدون مقابل.

٧- يشتري هدايا غالية للأطفال بدون سبب مفهوم.

٨- يسمح لنفسه بالدخول على الطفل وهو في الحمام بدون استئذان.

٩- يتحدث عن الأطفال وكأنهم فعالون جنسياً.

١٠- تعرض لاعتداء جنسي في طفولته.

١١- يمزح مع الأطفال بذكر أعضائهم الجنسية أو ينادي الأطفال بأسماء جنسية.

١٢- يتابع صور الأطفال العراة على المواقع الجنسية.

١٣- له صديق طفل قد يتغير من عام إلى عام.

١٤- يطلب من شريكه الجنسي أن يلبس ملابس أطفال أو يقوم بحركات أطفال أثناء العمل الجنسي.

١٥- يشجع الأطفال على الكتمان والسرية.

وقد وضع علماء النفس خمس نظريات كأسباب للانحراف الجنسي وهي:

١- النظرية النفسية الديناميكية.

٢- النظرية السلوكية المعرفية.

٣- النظرية التحولية.

٤- النموذج البيولوجي.

٥- النظرية التعلمية.

وليس هنا مجال مناقشة هذه النظريات الخمسة وخاصة أنها تعتبر أساساً للانحراف الجنسي كله وليس فيما يخص الاعتداء على الأطفال، ولذلك يجدر تركها لكتب أكثر تخصصاً في هذا الموضوع.

شيوع ظاهرة الاعتداء الجنسي:

رغم وجود هذه الظاهرة الخطيرة في المجتمعات العربية والإسلامية، ورغم الاعتراف بوجود أشكال أكثر مأساوية مثل سِفاح القربى أو زنا المحارم، فبرأيي الشخصي لا يمكن أن تكون منتشرة كما هي في المجتمعات الغربية خصوصاً الأمريكية، وذلك بسبب تحرر تلك المجتمعات من الأواصر الاجتماعية والقيود الدينية، ومن هنا نفهم سبب كثرة المؤسسات التي تحاول معالجة أخطاء الحضارة الغربية، وللمطلع على الإنترنت أن يرى كثرة المواقع المختصة بهذا الموضوع. لكن ما جعل هذا البحث يركز على هذه الظاهرة البشعة الشاذة المنافية لتعاليم الدين والأخلاق هو أنها في ازدياد وأسباب ذلك لا تخفى على الدارس، فالإباحية في العشرين عاماً الأخيرة سواء في الواقع أو على الفضائيات ومواقع الإنترنت زادت بشكل شائن، وهذا مما يسعر الرغبة الجنسية فتقود الشخص إلى أخطاء في حق نفسه ومجتمعه والإنسانية.

في موقع (stop it now) على الإنترنت وهو (موقع أمريكي) وجه السؤال التالي: هل الاعتداء الجنسي على الطفل وباء فعلاً؟ والجواب كان نعم فواحدة من أصل سبع بنات وواحد من أصل خمسة صبيان يتعرضون للاعتداء الجنسي قبل سن الثامنة عشرة. وذكر أن ٩٠٪ من الأطفال يعرفون من اعتدى عليهم جنسياً، ونادراً ما يكونون الغيلان أو الوحوش التي تتوارى في ملاعبنا وحدائقنا.

وأورد جملة لأحد الآباء المصابين بهذه الظاهرة: (وددت لو أن الآخرين أنفسهم يعلمون ما يمكن أن يكون حادثاً تحت أسقف بيوتهم).

أما في المجتمعات العربية فإن الاعتداء الجنسي على الطفل هو مشكلة مستترة، وذلك هو سبب الصعوبة في تقدير عدد الأشخاص الذين تعرضوا لشكل من أشكال الاعتداء الجنسي في طفولتهم. فالأطفال والكبار على حد سواء يبدون الكثير من التردد والحذر في الإفادة بتعرضهم للاعتداء الجنسي ولأسباب عديدة قد يكون أهمها السرية التقليدية النابعة عن الشعور بالخزي الملازم عادة لمثل هذه التجارب الأليمة. ومن الأسباب الأخرى صلة النسب التي قد تربط المعتدي جنسياً بالضحية ومن ثم الرغبة في حمايته من الملاحقة القضائية أو الفضيحة التي قد تستتبع الإفادة بجرمه. وأخيراً فإن حقيقة كون معظم الضحايا صغاراً وجاهلين لعواقب هذا الأمر ومعتمدين على ذويهم مادياً تلعب دوراً كبيراً أيضاً في السرية التي تكتنف هذه المشكلة. ويعتقد معظم الخبراء أن الاعتداء الجنسي هو أقل أنواع الاعتداء أو سوء المعاملة انكشافاً بسبب السرية أو "مؤامرة الصمت" التي تغلب على هذا النوع من القضايا.

ولكل هذه الأسباب وغيرها، أظهرت الدراسات دائما أن معظم الضحايا الأطفال لا يفشون سرّ تعرضهم إلى الاعتداء الجنسي. وحتى عندما يفعلون، فإنهم قد يواجهون عقبات إضافية. ونفس الأسباب التي تجعل الأطفال يخفون نكبتهم هي التي تجعل معظم الأسر لا تسعى للحصول على دعم خارجي لحل هذه المشكلة، وحتى عندما تفعل فإنها قد تواجه بدورها مصاعب إضافية في الحصول على الدعم الملائم.

-وفي موقع (كن حراً) على الانترنيت ذكرت الاحصائيات التالية:

إحصائيات عالمية وعربية:

٩١٪ من الاعتداءات الجسدية و ٨٢٪ من الاعتداءات الجنسية حصلت في أماكن يُفترض أن تكون آمنة للطفل. (د. فضيلة المحروس ٢٠٠١)

٧٧٪ من المعتدين أشخاص يُفترض أن يكونوا في موضع ثقة الطفل (د. فضيلة المحروس ٢٠٠١).

من المؤسف ألا يوجد عدد كاف من الإحصائيات المتعلقة بهذه القضية في الوطن العربي. وفيما يلي بعض الإحصائيات من الولايات المتحدة وكندا مرفقة بالمراجع:

- تتعرض فتاة واحدة من كل ٤ فتيات على الأقل وولد واحد من كل ٧ أولاد للاعتداء الجنسي في فترة ما من حياتهم قبل سن الـ١٨ (Kinsey, 1959 Finkelhor,1997).
- ١٠٪ من هؤلاء الأطفال يكونون في سن ما قبل المدرسة (Children's Hospital, D.C.).
- ٨٠-٩٠ ٪ من هذه الحالات يكون فيها المعتدي قريباً للطفل (Groth, 1982; De Francis, 1969;Russell, 1983).
- ٣٥ ٪ من هذه الحالات يكون المعتدي فيها أحد أفراد العائلة (King County [Washington] Rape Relief,)
- ١٠ ٪ فقط من هذه الحالات تضمنت عنفاً جسدياً (Jaffee, 1975).
- ٥٠٪ من جميع الاعتداءات وقعت إما في منزل الطفل أو المعتدي (Sanford, 1980).
- إن متوسط المعتدين تعاملوا مع أكثر من ٧٠ طفل أثناء فترة اعتدائهم (Sanford, 1980, Abel and Becker, 1980).
- "إن ظاهرة الإهمال والاعتداء على الأطفال باتت تمثل حالة طوارئ وطنية في أي بلد، ولم تعد حماية الأطفال من الأذى مجرد واجب أخلاقي وإنما مسألة بقاء وطنية".
- يعيش عدد كبير من الأطفال تجربة الاعتداء بشكل يومي حتى أصبحت هي المظهر الغالب في حياتهم.
- تم الإبلاغ عن أكثر من ٢,٩ مليون حالة اعتداء على الأطفال خلال العام

الماضي في الولايات المتحدة (حسب اللجنة الوطنية للوقاية من الاعتداء على الأطفال)

- تتضمن حوالي ١ من كل ٣ حالات الاعتداء الجنسي على الأطفال أطفالاً دون السادسة من عمرهم (National Incidence Study, 1988).

بيد أن هذه الأرقام لا تُفصح عن الحقيقة كلها. فالأدلة تشير إلى أن سوء معاملة الأطفال تنذر بمشاكل اجتماعية متفاقمة بعد البلوغ. وفيما يلي بعض الإحصائيات:

- ٩٥ ٪ من المعتدين على الأطفال تعرّضوا هم أنفسهم للاعتداء في طفولتهم (Groth).
- ٨٠ ٪ من متعاطي المواد الضارة (الكحول والمخدرات) تعرضوا للاعتداء في طفولتهم (Daytop).
- ٨٠ ٪ من الفارين من منازلهم يشيرون إلى الاعتداء كعامل أساسي في هروبهم (شرطة دينفر).
- ٧٨ ٪ من السجناء تعرضوا للاعتداء في طفولتهم (Groth).
- ٩٥ ٪ من العاهرات تعرضن للاعتداء الجنسي في طفولتهن (Conte).
- ٩٠ ٪ من الجمهور يعتقدون بأن المدارس الابتدائية يجب أن توفر برامج لوقاية الأطفال من الاعتداء (اللجنة الوطنية للوقاية من الاعتداء على الأطفال).
- ٩٢ ٪ من طاقم التدريس يعتقدون بأن هذه البرامج مفيدة وفاعلة (Duffell).
- ٦٠ ٪ من المدارس الابتدائية تؤيد تدريس الإجراءات الوقائية والتوعوية (اللجنة الوطنية للوقاية من الاعتداء على الأطفال).

وبالرغم من كل التحركات الدولية للاهتمام بحقوق الطفل إلا أن ٢٩ دولة فقط اعتمدت خطة عمل تشمل حملات توعية وتشديد القوانين ذات الصلة بظاهرة استغلال الأطفال جنسياً.

هذا بالنسبة لحماية الطفل من الخطر الخارجي فماذا عن الخطر داخل الأسرة؟!

إن البحث عن الدمار داخل الأسرة صعب إذ لا نستطيع أن نحدد بدقة عدد الأطفال الذين تعرضوا في العالم العربي إلى تحرش جنسي داخل أُسرهم لتكتم الأطراف المعنية فقط نورد هنا بعض الأمثلة لدول عربية أعلنت عن الإحصاءات:

في الأردن: تبين سجلات عيادة الطب الشرعي في وحدة حماية الأسرة بالأردن أن عدد الحالات التي تمت معاينتها خلال عام ١٩٩٨ قد بلغ ٤٣٧ حالة، شملت ١٧٤ حالة إساءة جنسية على الأطفال كانت مصنفة حسب ما يلي: (٤٨ حالة إساءة جنسية، كان المعتدي فيها من داخل العائلة، و٧٩ حالة إساءة جنسية كان المعتدي فيها معروف للضحية - قريب أو جار أو غيره، و٤٧ حالة كان الاعتداء على الطفل فيها من قبل شخص غريب).

في لبنان: أظهرت دراسة صادرة عن جريدة (لوريان لوجور) أن المغتصب رجل في جميع الحالات، وأن الضحية شملت ١٨ فتاه و١٠ صبيان تتراوح أعمارهم بين سنة ونصف و ١٧ سنة.

وأشار المؤتمر الرابع اللبناني لحماية الأحداث إلى ارتفاع عدد الاعتداءات الجنسية على القاصرين خاصة الذكور منهم، على يد أقرباء لهم أو معتدين قاصرين. (د. برنار جرباقة، ٢٠٠٠).

في مصر: تشير أول دراسة عن حوادث الأطفال في مصر أعدتها الدكتورة فاتن عبد الرحمن الطنباري أستاذ الإعلام المساعد في معهد الدراسات العليا للطفولة بجامعة عين شمس إلى أن حوادث الاعتداء الجنسي على الأطفال تمثل ١٨٪ من إجمالي الحوادث المختلفة للطفل، وفيما يتعلق بصلة مرتكب الحادث بالطفل الضحية فقد اتضح أن النسبة هي ٣٥٪ له صلة قرابة بالطفل و ٦٥٪ ليست له صلة بالطفل.

في سراييفو: ذكر عبد الباقي حليفة أن هناك دراسة أُعدت مؤخراً في كرواتيا،

أثبتت أن واحدة من كل أربع فتيات تعرضت للاغتصاب على يد أقربائها. وأن كل واحد من ستة شباب يتعرض للاغتصاب. وان ٩٠٪ من الإناث والذكور يمارسون الجنس دون سن الثامنة عشرة ثلثهم مع الأقارب و ٤٠٪ مع الجنس الواحد. ويقول الأطباء الذين يعالجون حالات دون سن العاشرة، أن بعض الأطفال لا يمكن أن يعودوا للحياة الطبيعية، وأنه حصل لبعضهم لوثات عقلية بسبب الاغتصاب وبعضهم في حالات نفسية يصعب شفاؤها.

كيف يقع الاعتداء الجنسي؟

هناك عادةً عدة مراحل لعملية تحويل الطفل إلى ضحية جنسية:

١. المنحى:

إن الاعتداء الجنسي على الطفل عمل مقصود مع سبق الترصد. وأول شروطه أن يختلي المعتدي بالطفل.

ولتحقيق هذه الخلوة، عادة ما يغري المعتدي الطفل بدعوته إلى ممارسة نشاط معين كالمشاركة في لعبة مثلاً. ويجب الأخذ بالاعتبار أن معظم المتحرشين جنسياً بالأطفال هم أشخاص ذوو صلة بهم. وحتى في حالات التحرش الجنسي من "أجانب" (أي من خارج نطاق العائلة) فإن المعتدي عادة ما يسعى إلى إنشاء صلة بأم الطفل أو أحد ذويه قبل أن يعرض الاعتناء بالطفل أو مرافقته إلى مكان ظاهره بريء للغاية كساحة لعب أو متنزه عام مثلاً.

أما إذا صدرت المحاولة الأولى من بالغ قريب، كالأب أو زوج الأم أو أي قريب آخر، وصحبتها تطمينات مباشرة للطفل بأن الأمر لا بأس به ولا عيب فيه، فإنها عادة ما تقابل بالاستجابة لها. وذلك لأن الأطفال يميلون إلى الرضوخ لسلطة البالغين، خصوصاً البالغين المقربين لهم. وفي مثل هذه الحالات، فإن التحذير من الحديث مع الأجانب يغدو بلا جدوى.

ولكن هذه الثقة "العمياء" من قبل الطفل تنحسر عند المحاولة الثانية وقد يحاول الانسحاب والتقهقر ولكن مؤامرة "السرية" والتحذيرات المرافقة لها ستكون قد عملت عملها واستقرت في نفس الطفل وسيحوّل المتحرش الأمر إلى لعبة "سرنا الصغير" الذي يجب أن يبقى بيننا. وتبدأ محاولات التحرش عادة بمداعبة المتحرش للطفل محاولاً إقناعه بأن الأمر مجرد لعبة مسلية وإنهما سيشتريان بعض الحلوى التي يفضلها مثلا حالما تنتهي اللعبة.

وهناك، للأسف، منحى آخر لا ينطوي على أي نوع من الرقة. فالمتحرشون الأعنف والأقسى والأبعد انحرافاً يميلون لاستخدام أساليب العنف والتهديد والخشونة لإخضاع الطفل جنسياً لنزواتهم. وفي هذه الحالات، قد يحمل الطفل تهديداتهم محمل الجد لا سيما إذا كان قد شهد مظاهر عنفهم ضد أمه أو أحد أفراد الأسرة الآخرين. ورغم أن للاعتداء الجنسي، بكل أشكاله، آثاراً عميقة ومريعة، إلا أن التحرش القسري يخلف صدمة عميقة في نفس الطفل بسبب عنصر الخوف والعجز الإضافي.

٢. التفاعل الجنسي:

إن التحرش الجنسي بالأطفال، شأن كل سلوك إدماني آخر، له طابع تصاعدي مطّرد. فهو قد يبدأ بمداعبة الطفل أو ملامسته ولكنه سرعان ما يتحول إلى ممارسات جنسية أعمق.

٣. السرية:

إن المحافظة على السر هو أمر بالغ الأهمية بالنسبة للمتحرش لتلافي العواقب من جهة ولضمان استمرار السطوة على ضحيته من جهة أخرى. فكلما ظل السر في طي الكتمان، كلما أمكنه مواصلة سلوكه المنحرف إزاء الضحية. ولأن المعتدي يعلم أن سلوكه مخالف للقانون فإنه يبذل كل ما في وسعه لإقناع الطفل بالعواقب

الوخيمة التي ستقع إذا انكشف السر. وقد يستخدم المعتدون الأكثر عنفاً تهديدات شخصية ضد الطفل أو يهددونه بإلحاق الضرر بمن يحب كشقيقه أو شقيقته أو صديقه أو حتى أمه إذا أفشى السر. ولا غرابة أن يُؤثر الطفل الصمت بعد كل هذا التهديد والترويع.

والطفل عادة يحتفظ بالسر دفيناً داخله إلا حين يبلغ الحيرة والألم درجة لا يطيق احتمالها أو إذا انكشف السر اتفاقاً لا عمداً. والكثير من الأطفال لا يفشون السر طيلة حياتهم أو بعد سنين طويلة جدا. بل إن التجربة، بالنسبة لبعضهم، تبلغ من الخزي والألم درجة تدفع الطفل إلى نسيانها (أو دفنها في لاوعيه) ولا تنكشف المشكلة إلا بعد أعوام طويلة عندما يكبر هذا الطفل المُعتدى عليه ويكتشف طبيبه النفساني مثلاً أن تلك التجارب الطفولية الأليمة هي أصل المشاكل النفسية العديدة التي يعانيها في كبره.)) نقلاً عن موقع (كن حراً) علىالانترنيت.

الوقاية من ظاهرة الاعتداء الجنسي:

من الضروري للوالدين والأطفال معرفة الأسلوب الأفضل للتعامل مع الأجانب، لسببين أساسيين. الأول هو إكساب الأطفال والوالدين مهارات جيدة لمنع تعرض الطفل للاعتداء أو الاختطاف. والثاني هو معالجة مشكلة القلق التي تساور كلا من الوالدين والأطفال لدى التفكير باحتمال تعرض الطفل للاعتداء أو الاختطاف من قبل شخص غريب.

منذ أمد بعيد والوالدان يرددون على مسامع أطفالهم فكرة خطر الأجانب والغرباء. ومع ذلك، تشير الأدلة إلى أنه لا زال لدى الأطفال الاستعداد لمرافقة الأجانب، والسبب ببساطة هو أن الأطفال لا يسمعون حقيقة ما يظن الكبار أنهم قائلوه.

ولتقليل احتمالات تعرض الطفل لأي حادث بائس مع شخص غريب، يقتضي الأمر توعية الوالدين والطفل عل حد سواء بمعلومات أساسية حول سلوك المعتدين

الأجانب والتعامل معهم. فما يعتقده الطفل عن الأجانب ربما كان عاملاً مساعداً في تحقيق وَطَر الأجنبي.

لأننا نركز في قلقنا على سلامة الطفل وتحذيراتنا لهم دائما على الغرباء، فإن تصور الطفل لِمَن وما يمثل هؤلاء الغرباء أصبح مشوشاً. فما نقوله عن الغرباء قد يكون واضحا ومفهوما لنا ولكنه عادة ليس مفهوماً بالمرة عند الطفل.

فالأطفال يعتقدون أن العالم ينقسم إلى نوعين من الناس: الأخيار والأشرار. وما نُعلمهم نحن تقليديا هو الحذر من الفئة الثانية ونردد على أسماعهم عبارات من قبيل لا تأخذ حلوى من الأجانب، احذر الغرباء، لا ترد على الغرباء. وكل ذلك بالطبع مهمة شاقة للكبار، ناهيك عن الأطفال.

وزرع الخوف من الغرباء في نفوس الأطفال ليس قليل النفع فحسب وإنما مفزع أيضاً. فعندما نقول للطفل "لا تتحدث مع الأجانب وإلاّ اختطفوك في سيارتهم وأخذوك بعيداً حيث لن نراك ثانيةً أبدا" فإنك تبث الرعب في قلبه دون أن تحقق هدف الحماية الذي تصبو إليه.

ساعد أطفالك على استيعاب حقيقة أنه ليس هناك سبيل لمعرفة باطن الشخص من ظاهره. اشرح لهم أن الحكم على الأشخاص حسب ظاهرهم خطأ جسيم. ما يحتاج الأطفال لمعرفته عن الغرباء هو قواعد سلامة عامة في التعامل ليس مع صنف معين من الأجانب وإنما مع الأشخاص الغرباء عنه بشكل عام.

وهذه النصائح ضرورية للأهل:

١- اشرح لابنك / ابنتك أنه ليس عيباً أن يقول لا عندما يتعرض لعمل لا يرغب به من شخص يعرفه أو يعتني به.

٢- أوضح له أن الاحترام لا يعني الطاعة العمياء بمعنى أنه يجب أن لا نقول للطفل:(افعل دائماً ما يقوله الأستاذ لك).

٣- ضع حدوداً فاصلة للاحترام بين أفراد الأسرة.

٤- تحدث بصوت عال عندما تشاهد علامات تحرش جنسي أو اعتداء جنسي على أحد.

٥- علّم أطفالك عدم السكوت أو الرضا بالأسرار في الملامسة.

ويجب التأكيد على مسؤولية الأسرة في التربية الجنسية والتعاون مع المؤسسات المختلفة سواء المدارس أو المساجد أو المؤسسات العاملة في مجال الصحة النفسية والخدمة الاجتماعية وتطوير إمكانات العاملين بها لتقديم العون المناسب للأهل إذا تعرّضوا إلى معاناة من هذا النوع. ولا يغفل ما لوسائل الإعلام من دور هام ومسؤولية كبرى في هذا الأمر بشرط أن لا تعرض الجانب المثير جنسياً أو المشوق إعلامياً من القضية، فبعض القنوات الفضائية تعرض الجاني أو الضحية دون إخفاء معالم شخصياتهما، وهذا ما يؤثر على مستقبل الضحية بشكل خاص وكذلك على مستقبل الجاني إذا لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد، وحتى إذا بلغها فالأفضل إعطاء العبرة للمشاهدين دون الإساءة إلى شخص الفاعل رغم جرمه الفظيع اللهم إلا إذا كانت عقوبته الإعدام، أما إذا كان سيقضي عقوبة في السجن وبعدها سيخرج، فيجب أن يفسح المجتمع المجال لأي منحرف طالما تم التكفير عن خطئه، وإلاّ فإن المجتمع كثيراً ما يشجع المنحرف على الاستمرار في انحرافه إذا لم يهيئ له سبل التوبة، وإذا عيَّره بأخطائه السابقة، وهذا ليس من الهدي النبوي الكريم الذي كان يرجم الزانية ويقول معلماً أصحابه:(لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغُفر له)، وكان عندما يأتي شارب خمر فيجلده، وثم يعود فيجلده، حتى يلعنه أحد الصحابة لكثرة ما يأتي شارباً فيقول له الرسول عليه الصلاة والسلام: (لا تلعنه، إنه يحب الله ورسوله).

وهنا يأتي السؤال: هل من الممكن أن يتغير المنحرف فعلاً؟ يقول الخبراء: نعم،

وإرسال المنحرف إلى السجن دون علاج لن يمنعه من إعادة انحرافه، وقد أظهرت دراسة في (فيرمونت) أنه بدون معالجة فإن ٣٨٪ من المعتدين يعودون لاعتدائهم، بينما تنزل هذه النسبة إلى ٦٪ مع المعالجة.

وهذه جملة جميلة وواقعية من أحد ضحايا الاعتداء الجنسي في أمريكا كتبها تعاطفاً مع المعتدي عليه: (بدون معالجة أو مساعدة كيف سيعترف الجاني بجنايته؟ لا أحد يريد التعرض لماضيه المظلم خاصة إذا لم يوجد ضوء ينيره ويشفيه).

وجملة أخرى مشابهة:(أنت لا تعرف مدى التأثير الذي تركه فعلك علي مهما كنت قد استصغرته، لذلك لا أملك لك إلا الدعاء أن تشفى حتى لا تعيد ما فعلته بي مع أحد آخر).

كيفية التعامل مع الاعتداءات الجنسية :

١- توصيات للأهالي و المربين: قد تكون العائلة كلها بحاجة إلى دعم نفسي، بحيث يتم استعادة الطفل لثقته بنفسه ويتعامل مع ما حدث بدون أي شعور بالذنب وبالتالي يتجاوز الرضّ النفسي، وكلما كانت المعالجة ناجحة كلما أمكن أن لا يطور الطفل أيّاً من المشاكل النفسية الناجمة عن حادث مؤسف كالاعتداء الجنسي. ومن خلال دراسات مختلفة يمكن الخروج بأهم التوصيات لاحتواء الطفل الذي يعاني من الاعتداء الجنسي، وهي:

- تصديق الضحية حتى لو لم يكن مصدقاً لنفسه أو كانت ذاكرته غائمة أو كان ما يصارح به يبدو مبالَغاً به، إذ لا يوجد ضحية يخترع قصة اعتداء جنسي أو اغتصاب. دعه يشعر أنك تقبل أي شيء يقوله وأنك تحس كم هو مؤلم. قد لا يقول الضحية كل شيء ليس لأنه يكذب بل لأنه خائف، فكلما كانت الثقة قوية يكون أدق في وصفه للحادث.
- المصادقة على شرعية عواطفه تجاه ما حصل سواء كان غاضباً أو خائفاً أو متألماً.

- الإقرار بوجود الآثار حتى لو لم يكن الاعتداء قد تم بشكل عنيف، فلا يوجد اعتداء جنسي أو اغتصاب بدون أن يترك أثراً سلبياً على نفس المجني عليه.
- إظهار التعاطف والرحمة للضحية، فليس هناك شيء أكثر عمقاً من استجابة إنسانية نبيلة وأصيلة، لكن لا تجعل مشاعرك أقوى من مشاعر الضحية.
- التصرف بحذر والحفاظ على هدوء الأعصاب وعدم إلقاء التهديدات للطفل، فالطفل بحاجة إلى الأمان و الهدوء و الدعم.
- عدم استسلام الأهل لتأنيب الذات واللوم مما ينسبهم من هو المعتدي الحقيقي الذي يجب أن ينال عقابه.
- عدم إلقاء المسؤولية على الضحية: بيِّن له أنه ليس هو المخطئ في ما حصل.
- عدم التعاطف مع الجاني مهما كان قريباً فالضحية بحاجة إلى وفائك له كلياً.
- استعمال لغة الطفل و عدم تبديل ألفاظه أو الكلمات التي يستخدمها لأن راحة الطفل هي المهمة في هذه الأوقات.
- الحفاظ على الهدوء النفسي لدى الأهل كي لا يزداد الرضّ النفسي للطفل.
- يجب توفير الأمان للطفل فإذا لم يستطيع الأهل العمل مع ابنهم الضحية عليهم أن يطلبوا منه إشراك أحد من الخارج..مرشده مثلاً.
- تعليم الطفل كيفية التوجه إلى أشخاص آخرين باستطاعتهم المساعدة، والاستعانة مع مختص في هذا الأمر من أجل مساعدة الأهل أيضا على عدم التأثر بما حصل.
- نادرا ما تلجأ الضحية إلى الانتحار، وفي هذه الحالة لا تتردد في طلب المساعدة.
- مقاومة اعتبار الضحية على أنه ضحية بل يجب إشعاره أنه قوي وأنه يستطيع بناء حياته من جديد.

• احترام أن الشفاء يجب أن يأخذ وقته، وقد ينتج تغيير في شخصية الضحيـة تجـاه الأهل، فيجب على الأهل التغيير في تعاملهم مع الضحية استجابة لتغيره.

٢- هل يمكن شفاء الطفل الذي تعرض لحادثة اعتداء جنسي؟

نعم، ممكن فبعض الأطفال يحبذون الكلام عمـا حصـل فـوراً، وبعضهـم يفضّـل تأخير الكلام، لكن يجب تشجيعهم على التحدث عما حصل، وإذا لـم يكـن لـدى من يمنح العناية أو الرعاية للطفل الخبرة الكافيـة فيجـب الحصـول علـى المعلومـات المناسبة من خبير. والأثـر يختلـف حسـب المعالجـة الفوريـة والحكيمـة للمشـكلة أو التشكيك بما يقوله الطفل أو إلقاء اللوم عليه، وعندما يتلقى الضحية الدعم النفسـي المناسب فكثيراً ما يمكنه العودة إلى الحيـاة الطبيعيـة. كمـا أن الطفـل الـذي تعـرض لاعتداء جنسي من شخص له نفس الجنس يبقى خائفاً مـن أنـه شـاذ جنسـياً. فهنـا يمكن للأهل أن يقللوا من خوف الطفـل بـأن يشـرحوا لـه أن في أجسـامنا نهايـات عصبية تتأثر إذا تعرضت للحث مثل قزحية العين وكيف تنقبض إذا فاجأها الضوء، وكيف يستجيب الطفل للدغدغة بالضحك سواء كان من يدغدغه ذكـراً أو أنثـى، وبهذا يطمئن أنه طبيعي لأنه ليس هو من قام بالفعل.

بالنسبة للطفل الذكر إذا كان قد تعرض لاعتداء فهنا قـد تكـون المشـكلة أكـبر ففي مجتمعاتنا الشرقية كما في المجتمعات الغربية يعلّم الطفل الذكر أن لا يعـبر عـن عواطفه فإذا أصيب مثلاً قلنـا لـه: تصـرف كرجـل ولا تكـن كالبنـات أو لا تكـن مخنثاً.. تَحَكَّم بعواطفك.. إلى آخر هذه التعبيرات التي تجعل الطفل الذكر إذا تعرض للاعتداء الجنسي لا يرغـب بـالكلام وبالتـالي يجعلـه أقـل عرضـة للشـفاء، رغـم أن مصيبة الطفلة الأنثى ليست أقل خاصة عندما ينظر إليهـا المجتمـع أنهـا الخاطئـة مـع أنها لم تكن تملك من أمرها شيئاً.

ومن الجدير بالذّكر أن هناك بعض المقولات (غـير الصحيحـة بالنسـبة للاعتـداء

الجنسي) على الطفل الذّكر أرى أنه من الواجب ذكرها استيفاءً للموضوع وعملاً بالأمانة العلمية التي يقتضيها البحث المتجرد ولوجود بعض الحالات المستترة في مجتمعاتنا:

١- الطفل الذكر لا يمكن أن يكون ضحية.

٢- معظم الاعتداءات الجنسية على الذكور تُقترف من ذكور شاذين جنسياً.

٣- إذا تعرض الطفل الذكر للاعتداء الجنسي فهو أقل تأثراً من الطفلة الأنثى.

٤- الطفل الذي تعرض للاعتداء الجنسي من ذكر سيصبح شاذاً جنسياً أو معتدياً جنسياً.

٥- إذا كان المعتدي على الطفل الذكر هو أنثى فهذا يعني أنه محظوظ لأنه لن يصاب بأي انحراف جنسي في المستقبل.

ختاما لهذا البحث أورد هنا ما ذكرته الصحفية السعودية ناهد باشطح في موقعها على الإنترنت من **نموذج للتجربة العلاجية العربية:**

الحقيقة أن دول العالم العربي تهتم بقضايا الطفولة ولكن فيما يتعلق تحديداً بانتهاك حرمة جسد الطفل داخل الأسرة "موضوعنا" فان الجهود حثيثة فضلاً عن أن بعض الدول لا تعترف بوجوده كظاهرة تستحق العلاج على أنني وعبر بحث متواصل وجدت أن تجربة الأردن جديرة بالطرح كتجربة واعية وفاعلة. ففي عمان أنشأت وزارة الداخلية الأردنية إدارة حماية الأسرة وأوكلت إليها مسؤولية مواجهة جرائم الاعتداء في العاصمة عمان كخطوة أولى قابلة للتعميم، قوبلت بالمعارضة الشديدة من البعض ثم أثبتت نجاحها من خلال النتائج التي حققتها.

في عام١٩٩٨ وهو العام الذي أُنشئت فيه الإدارة وصلت إليهم٢٩٥ حالة

تحرش جنسي ضد الأطفال. مثّلت حالات زنا المحارم نسبة غير متواضعة منها. أما في عام ٢٠٠٠ فقد عملت الإدارة على معالجة ٦٣١ حالة جاءت إليها بإرادة الأطراف وفي عمان أيضا في العام ذاته افتتح "دار الأمان" وهو أول مركز متخصص في الوطن العربي في مجال حماية الأطفال من مختلف صور الانتهاكات. وهو متخصص أساساً في إعادة التأهيل ومعاملة ضحايا الانتهاكات.. الأطفال وأسرهم. و يستقبل المركز كل انتهاكات الأطفال سواء كانت جنسية أو بدنية أو بسبب الإهمال.

ملحق (١)

صيرورة الحب (مُتَرْجم)

نتحدث عن الوقوع في الحب كحادث مثل الـتزحلق بقشـرة مـوز. المشـكلة في الوقوع في الحب أنه أمر باستطاعتك فعلـه كمـا أن باسـتطاعتك الوقـوع خارجـه. الحب ليس حادثاً. وليس مغناطيسية حيوانية. وليس سهم (كيوبيد) الـذي يصيبـك فجأة. الحب هو الصيرورة تحدث خطوة بخطوة توجدها أنت مع شخص آخر.

خلق حالة الشعور بالحب أمر فعلتَه من أول مرة حُزت على علاقتك الرومانسية الأولى. ومن ذلك الوقت أنت تدخل في نفس الصيرورة كلما "وقعـت" في الحـب. وستتابع الدخول في نفس الصيرورة كل مرة "تقع" فيها في الحب.

كل شخص يود أن يشعر بشعور الحب. ومعرفة هذه الصيرورة يعطيـك القـوة عليه. والوعي كيف تخلـق شـعور الحـب يجعلـك تشـعر بالأمـان والسـيطرة. دعنـي أحدثك بقصة لأمثل لك هذه الصيرورة:

في قديم الزمان وخارج أرض الحب كان يعيش (هـو). وفي نفـس تلـك المنطقـة كانت تعيش (هي). لم يكن (هـو) يعرف أن (هـي) موجـودة، ولـم تكـن (هـي) تعرف أن (هو) موجود. في كـل يـوم كـان (هـو) يتجـول ليقـوم بأعمالـه المعتـادة وكانت (هي) تتجول وتقوم بأعمالها المعتادة.

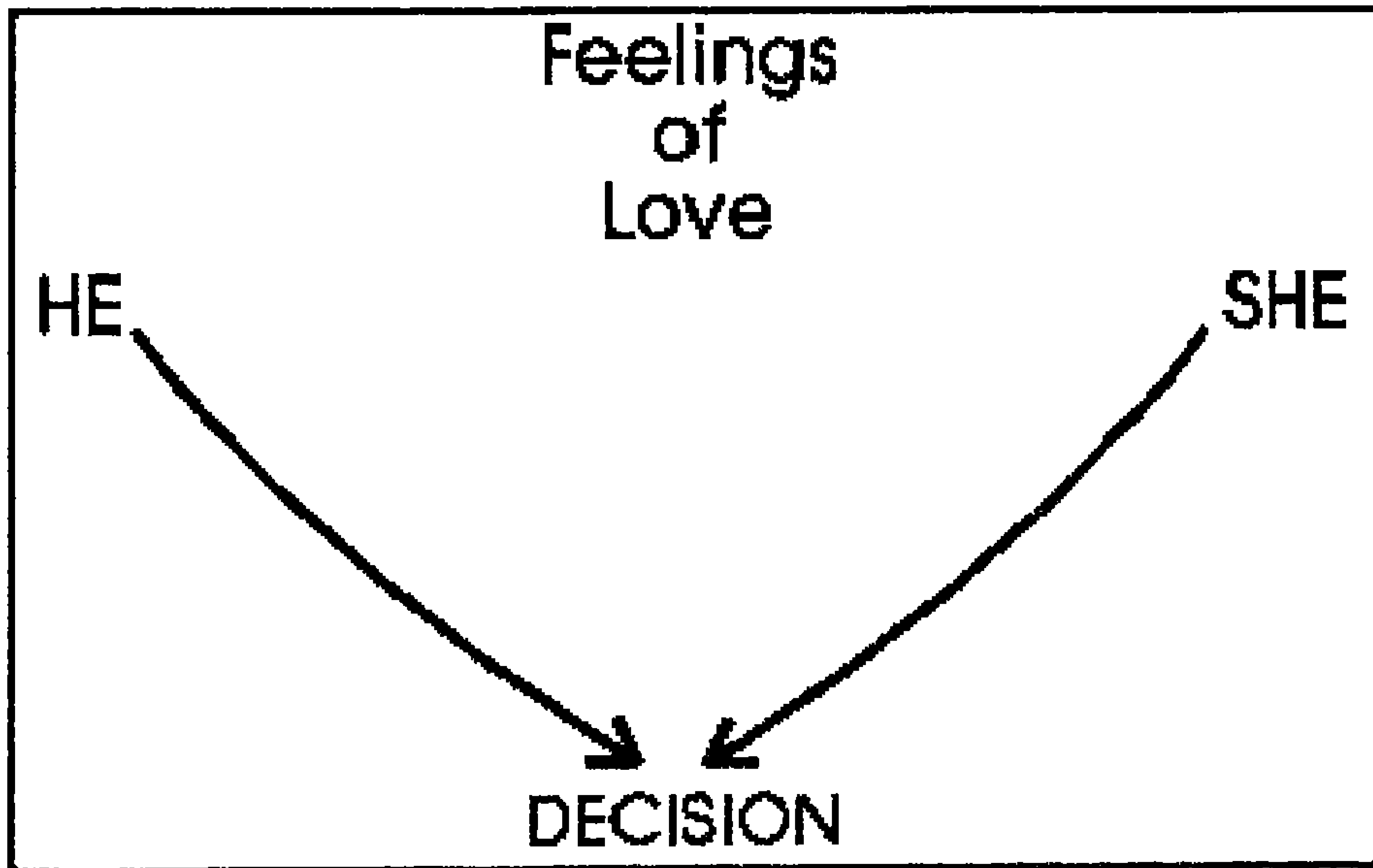


ذات يوم (هي) نظرت ورأت (هو). "الآن" فكرت (هي) قائلة لنفسها: "هنـاك كتلة لطيفة الشكل!" لذلك قررت أن ترمي منديلها. جماعة الـ (هي) لديهـن طـرق مختلفة لرمي مناديلهن، لكن كان على الـ (هي) أن تقـرر أن (هـو) كـان الشـخص الذي يجب أن ترمي منديلها له. في الماضي رأت (هي) عدداً من الـ (هو) الذيـن لـم ترمي لهم منديلها بأي شكل.

حالما ترمي (هي) منديلها، فإن على (هو) أن يقرر أن يلتقطـه فـوراً. في المـاضي صادف (هو) عدداً من الـ (هي) اللواتي أسقطن مناديلهن لكنه لم يلتقط أي منهم، أما الآن فهو قد قرر أن يلتقط المنديل.

الآن وبسبب أن (هي) قـررت أن ترمـي منديلهـا وأن (هـو) قـرر أن يلتقطـه لا يعني أنهما في حالة حب. قد يكونان في تـوق وتلهـف لكـن ليـس في الحـب بعـد. وعلى أية حال فإنهما يخطوان باتجاه شعور الحب.

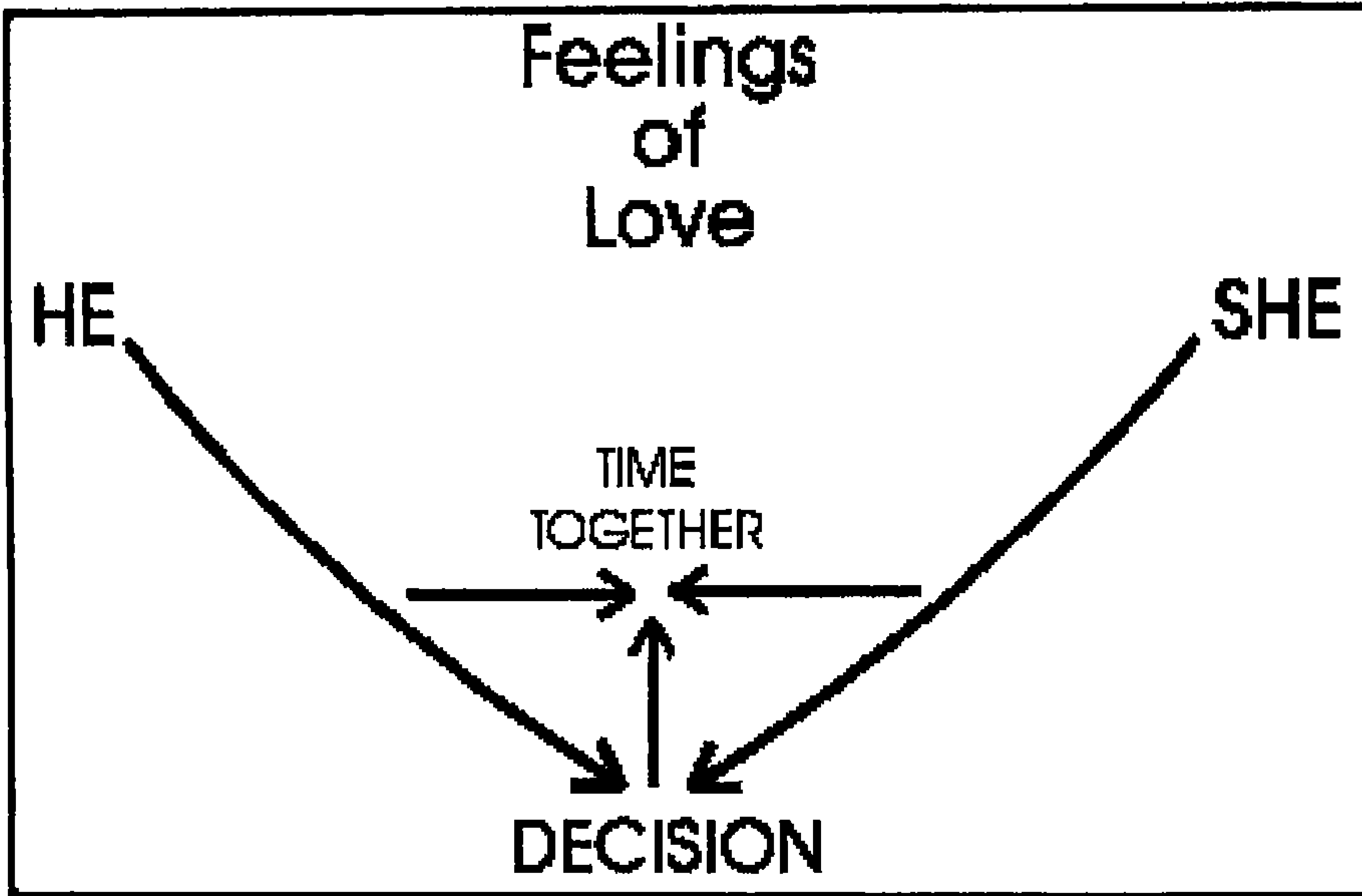
(ملاحظة: من الممكن فعل الأشياء المحبوبة دون كونك في حالة حب)



البقاء معاً:

الخطوة الأولى باتجاه الوصول إلى الشعور بالحب هي قضاء وقت معــاً. "معـاً" لا تعني الجلوس في نفس الغرفة، على نفس المقعد، مشاهدة برنامج تلفزيوني كل هــذا لا يعني قضاء وقت معاً. هناك فكاهة قديمة أنه يمكنك الدخــول إلى مطعــم ومعرفـة من هم المتزوجون ومن ليسوا بعـد؛ مـا عليـك إلا أن تجيـل الطـرف فمـن رأيتهمـا جالسين يحدق كل منهما بالآخر ويتكلمان ويتشاركان وبالكـاد يلاحظـان الطعـام أمامهمـا فهمـا غـير مـتزوجين؛ أمـا الشـخصان اللـذان يتنـاولان طعامهمـا بهــدوء ويحدقـان خـارج النـافذة ويوجهـان قليـلاً مـن الاهتمـام أحدهمـا للآخـر فهمـا متزوجان.

قضاء وقت معاً يعني شخصين يتشاركان ويتفاعلان مع بعضهما بطريقة صريحـة وغير مغشوشة. ليس البقاء معاً هو ما يخلق هذا الشـعور. إنـه الصـدق الـذي يخلـق مشاعر ثابتة تحدث نتيجة البقاء واحداً مع الآخر.



الصدق:

الصدق ليس مجرد أن تكون صادقاً أو غير صادق. هناك درجات من الصدق. فكّر في المصداقية كبصلة لها عدة طبقات. كلما اقتربت أكثر من الطبقات السطحية كلما كان نزعها أسهل بيدك، وكلما تعمقت أكثر في هذه البصلة كلما كان الترابط أكثر بين طبقاتها، ونفس الشيء يحدث في الاتصال البشري.

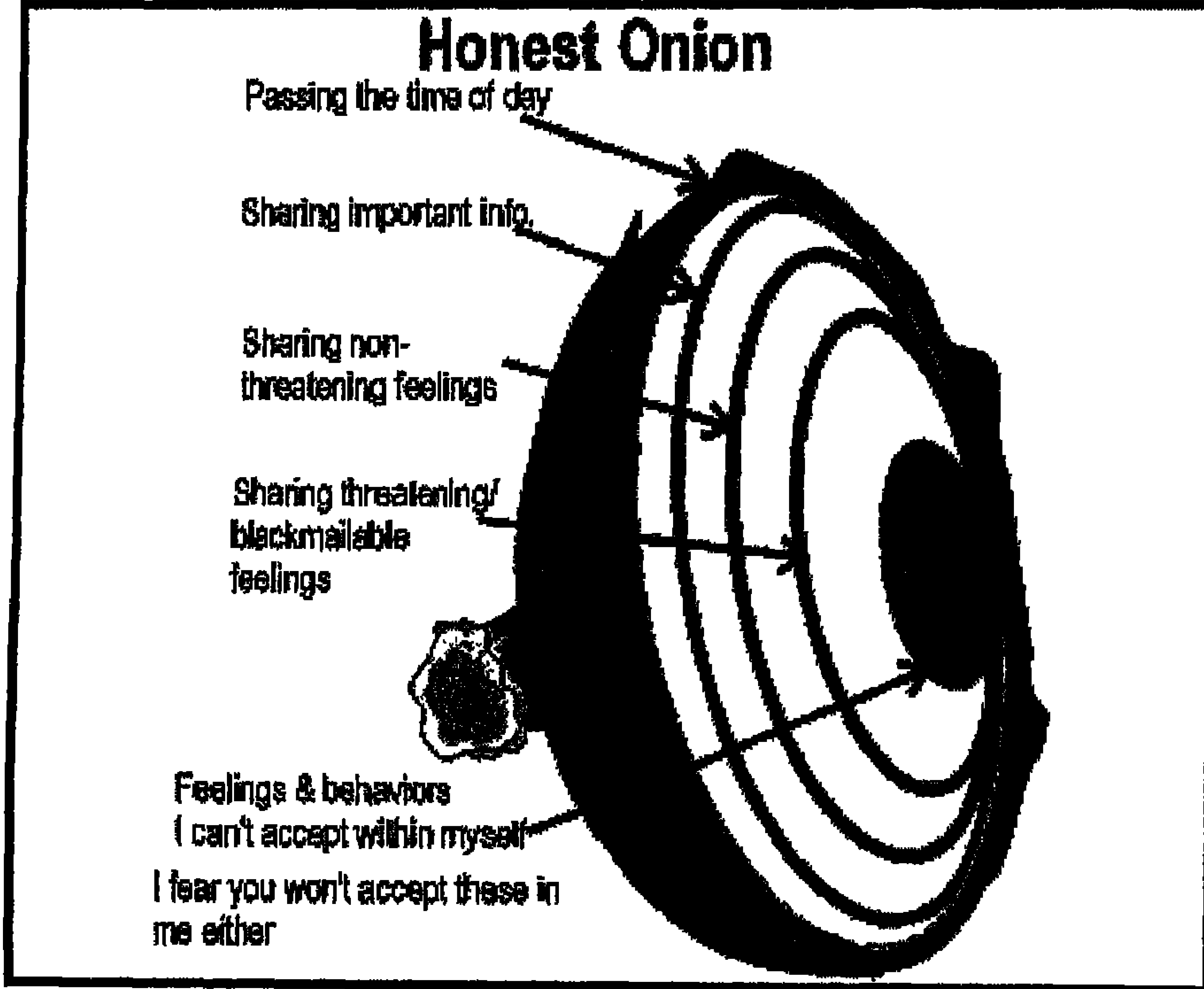
في الطبقة السطحية قد تقول لي: (صباح الخير، يومٌ جميل أليس كذلك؟) قد أكون منزعجاً ومحبطاً فأرد عليك قائلاً: (جيد. شكرا لك). هل كان هذا تبادلاً غير صادق أم أنه مجرد شهادة على محادثة سطحية؟ هذه المشاركة على هذا المستوى يمكنك فعلها مع أي أحد سواء كنت تعرفه أم لا.

شهادة المحادثة هذه هي صادقة، وإن كانت ليست صادقة جدا، لكنها فقط نقطة بداية. المستوى التالي أكثر صدقاً، ولكنك تتشاركه مع بعض الناس. هنا المشاركة تكون على صعيد ما يسمى الحاضر التام أو الماضي القريب، فهي سرد تاريخي لأحداث اليوم، الأسبوع، أو السنة الماضية. يتشارك الشخصان حديثاً مشابهاً لما تسمعه عندما تذهب لكافيتريا أو لغرفة تناول طعام من استدعاء أحدهم لما حدث معه البارحة من مشاجرة أو أي حدث مشابه، وما يتشاركه الناس هنا هو صحيح، لكن هذه المشاركة إلى الآن قد لا تستمر.

المستوى التالي من البصلة، حيث نتشارك المشاعر والأمور الأكثر خصوصية لكنها ليست قابلة للابتزاز. في هذا المستوى عندما يسألك أحد: (كيف حالك وأمورك؟) تجيب: (أشعر بالفزع والإحباط، فعلاقاتي في العمل ليست على ما يرام). أنت تجازف بمشاركة أكبر، وعند أكثر الناس تتوقف المشاركة لدى هذا الحد.

المستوى الأعمق مخيف. أمر مفزع أن تشارك لُبّك الداخلي مع أحد. معظم

الأزواج هنا قد يستبدلون الألفة العاطفية بالألفة الجسدية بينما مركزهم أو لبهم يبقى مخفياً. وبسبب هذا الخوف من الألم العاطفي فمعظم الأزواج يعتقدون أنه من الأمان أكثر أن يتورطوا جنسياً مع الشريك من أن يصبحوا عاطفيا غير محصنين.



على أية حال فإن هؤلاء الذين يستمرون في هذا المستوى ويبدؤون بالكلام عن الأشياء الأكثر تهديداً فإن المكافآت تكون مذهلة. في هذا المستوى يمكن لعواطفك التي تتشاركها مع شخص آخر أن تشكل تهديداً لك أثناء حرارة النقاش. وفي هذا المستوى أنت تخاف من أن الشخص الأخر قد يتركك: (لم أكن أشعر دائماً أني شخص محبوب)، أو (هل ستقبلني بهذه الطريقة عندما نمارس الحب؟) الخوف هنا أن الشخص الآخر سيرد بسؤال: (ومن أين تعلمت أن تفعلي هذا؟)

المستوى الأخير هو مركزك أو لبك وهو يتألف من:

١- ما الذي يحدث معك حالياً؟ (وهو متغير دائماً) مثل: (نعم أخبرتك أنني أكرهك لكنني الآن غير غاضبة ولا أشعر بنفس الشعور) هذا قد يكون مربكاً لك وللآخرين، وكنتيجة ستحكم على نفسك بأنك (سيئ).

٢- الاعتقادات التي تكونها عن نفسك والتي هي الأكثر رفضاً منك أنت ذاتك، ولذلك تكون متأكداً أن الآخرين إذا علموا بحقيقتك فإنهم لن يتقبلوك. إنه المادة القبيحة بداخلي بحيث إذا شاركتك بها فإنك لن تحبني. إنها المادة التي أخاف كثيراً من إخبارك عنها ولذلك أقنع نفسي أنها لو تكن قبيحة بهذا الشكل لكنت أخبرتك بها. أمر من هذه الأمور بالنسبة للرجال هو التحرش. مشكلة ضغط المشاعر (الصور في أذهاننا) أنه عندما نضغط شعوراً فإننا نمنحه قوة بلا حدود. وما نقاومه سيبقى.(What you resist will persist)

كتاب (د. جيكل والسيد هايد) تأسس على الخوف من أن بداخلنا شيئاً شريراً وقبيحاً إذا تركناه يخرج فإنه سيقتل الأشخاص الذين نحبهم. نتيجة خروج هذا الشر كانت البدء بقتل الغرباء ثم قتل خطيبته ثم نتج عن ذلك موته هو ذاته.

هذا الخوف هو مغالطة. ليس هناك شراً بداخلك أكثر مما بداخلي أو بداخل أي إنسان آخر. في الواقع أنه لدى إخراجه للنور يظهر أنه ليس مهدداً كما لو بقي مخفياً. (أوه، هل تفكر بنفس الطريقة؟ هل أخمن أننا لسنا مختلفان كثيراً إذن؟). المشكلة أنني أحاكم نفسي وأنا متأكد أن الآخرين سيحاكمونني بنفس الطريقة. بعضهم يمكن أن يحاكمونني هكذا وبعضهم لا يمكنهم ذلك. كم هو مهم حكم الناس علي؟ إذا كان الشخص ليس مستعداً أن يقبلني بنواقصي وبما أنا عليه، فهل هو الشخص الذي أريد أن أقضي حياتي معه؟

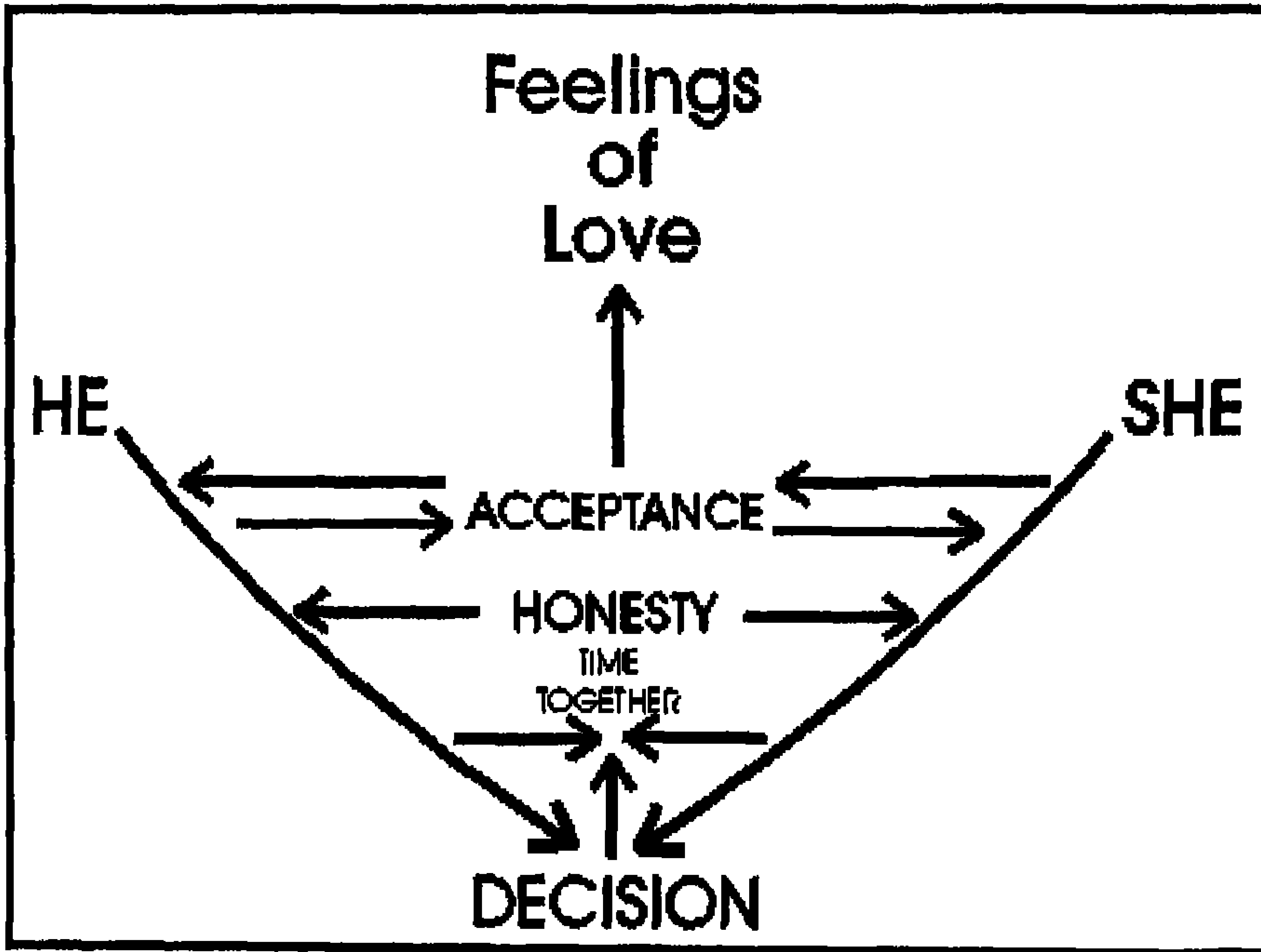
الصدق ضروري جداً لتشكل مشاعر الحب. لأكون صادقا مع شخص ما يجب أن أكون صادقا مع نفسي، ثم أشارك مصداقيتي مع شخص آخر. صيرورة الحب

ليست أحادية الجانب، لأن الصدق يحتاج أن يمضي في الاتجاهين. كلا من (هو) و(هي) بحاجة أن يكونا صادقين مع بعضهما بعضا.

التقبل:

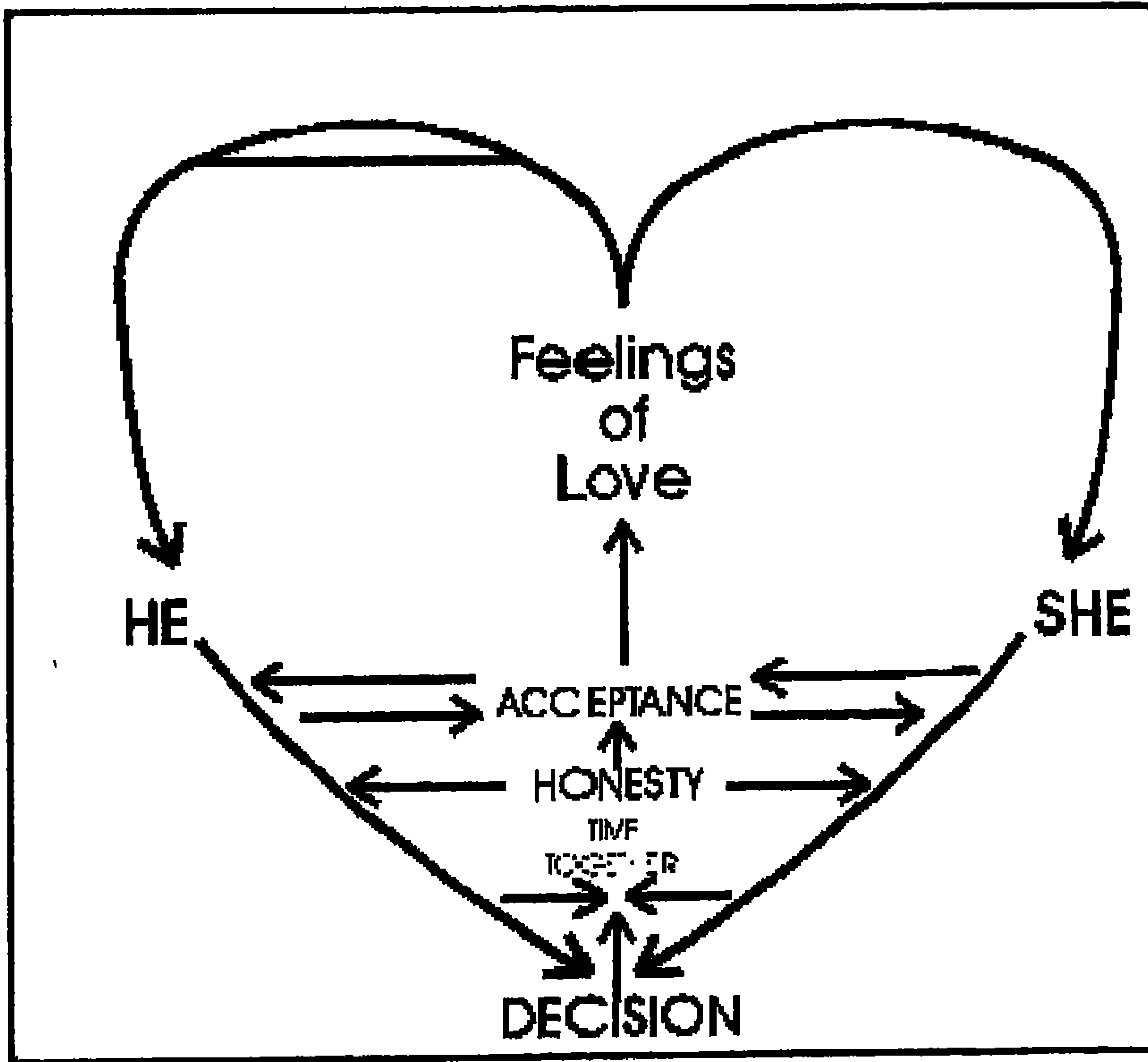
بمجرد أن تشارك مركزك أو لبك مع آخر ليس كافياً لأن تتكون مشاعر حب. على كل حال ما يحدث بشكل تال هو خارج عن إرادتك. ولذلك يوجد خوف أكثر هنا. بمجرد المشاركة يعني أن كل شيء موجود لدى الآخرين. يمكنهم تقبلك وتقبل مشاعرك، وماضيك، أو يمكنهم رفضك. بمجرد أن تكون صادقاً فإن الأمر بيد الشخص الآخر. إذا أخبرك أن الأمر ليس على هذه الأهمية فهنا يمكنك أن تجعل ذلك التقبل يلج في داخلك، أو يمكنك أن تخبر نفسك أنهم كانوا يقولون ذلك لكن لا يعنونه تماما.

بمجرد أن يدخل التقبل إلى نفسك فهنا أنت تُجرب مشاعر الحب. أنت أوجدت هذه المشاعر بالمشي خطوة خطوة عبر هذه الصيرورة. أنت لم تقع في الحب.



كثير من الشباب يأخذون الحب على أنه مضمون البقاء، وأن العلاقة ستستمر. (بمجرد أننا في علاقة حب فيجب أن نتزوج. حبنا سيستمر للأبد. لا يهم ما الذي سيحصل فالحب لا بد أن يجد طريقاً). مشاعر الحب ضمانة في الحقيقة للاّشيء. والعيش في حالة حب ليس سبباً أبداً للزواج. وفي نفس الوقت انتهاء علاقة الحب لا يعني بالضرورة أنه سبب للطلاق.

أنا أضمن لك أن حبك سيستمر. بما أنك خلقت مشاعر الحب في المكان الأول فمعنى هذا أن باستطاعتك خلقها مرة أخرى، إذا كان كلاكما يريد هذا. ما يجب عليكما فعله من أجل ضمان بقاء الحب من أجل أن (لا تنفصلا)، و(لا تخرجا من حالة الحب) إلخ.. بعد أن تمضيا وقتاً معاً، وتكونان صادقين مع بعضكما، وتمنحان التقبل وتستلمانه، افعلا هذه الأمور مرة أخرى ثانيةً، وحبكما سوف يستمر.



ملحق (٢)

منهج عن البلوغ والتناسل للمرحلة الإعدادية (مُترجَم)

أولاً: الجهاز التناسلي عند الإنسان

يتعرض الصبيان والبنات بين سن ١٠ و١٥ سنة إلى لحظة نمو مفاجئ، فهم لا يصبحون أطول فقط، لكن أشكال أجسامهم تأخذ بالتغير أيضاً على نحو مختلف. تبدأ الغدد اللبنية في الثدي بالتطور والنمو عند الفتيات، كما تأخذ عظام الحوض بالنمو العرضي، بينما يبدأ ظهور شعر الوجه وخشونة الصوت عند الفتيان وتنمو عظام الكتفين عرضاً.

تحدث هذه التغيرات عند الأنثى والذكر بسبب الهرمونات التي تفرزها بعض الغدد، وهي علامة على بداية النضج الجنسي الذي هو القدرة على التكاثر والتناسل. يطلق اسم "البلوغ" على الوقت الذي يصبح فيه الجسم ناضجاً جنسياً وقادراً على التكاثر. وهو يحدث عادة بين سن ٩ و١٤ عند الفتيات، وبين ١١ و١٦ سنة عند الفتيان.

الجهاز التناسلي الذكري:

تحدث تغيرات الجسم عند الذكر بسبب هرمون التستوستيرون الذي يفرز من الغدة الجنسية المذكرة وهي الخصية التي تقع داخل الصفن وهو عبارة عن كيس يحمي الخصيتين.

تحافظ الخصيتان على حرارة أقل من حرارة الجسم بسبب وجودهما في كيس الصفن خارج الجسم، وهذا ما يساعد على تكوين النطاف. والنطفة هي الخلية الجنسية الذكرية التي لا يتم تكونها إلا عند البلوغ، وخلال حياة الذكر تنتج الخصيتان مئات الملايين من النطاف.

ترتبط الخصيتان بقناتين تخزنان النطاف بعد إنتاجها في الخصية، وهاتين القناتين تصلان إلى الإحليل وتمتزجان ببعض السوائل الغنية بالعناصر المغذية للنطاف، والسوائل نفسها تحمي النطاف وتزودها بالطاقة اللازمة لحركتها. وبذلك تستطيع النطاف أن تسبح خارج جسم الذكر وأن تبقى حيّة أيضا. يطلق اسم السائل المنوي على المزيج المؤلف من النطاف والسوائل المحيطة بها.

يمتد الإحليل خلال العضو الذكري والذي يسمى القضيب وهو العضو الخارجي الذكري الذي يتدفق خلاله البول والسائل المنوي، لكنهما لا يمتزجان، أي أن السائل المنوي لا يخرج أثناء التبول، والعكس بالعكس. يتم تدفق السائل المنوي إلى جسم الأنثى عند عملية الاتصال الجنسي المسماة بالجماع.

الجهاز التناسلي الأنثوي:

يحث الهرمون الجنسي الأنثوي على التغيرات في جسم الأنثى، وهو يفرز من الغدد الجنسية الأنثوية وهما المبيضان. يحتوي المبيضان على الخلايا الجنسية الأنثوية وهي البويضة. عندما تولد الأنثى فإن المبيضين يحويان كامل البويضات التي ستملكها إلى آخر حياتها. لكن خلال كل شهر لن تنضج سوى بويضة واحدة، وأكبر خلية في جسم الإنسان هي البويضة الناضجة.

عندما تنضج البويضة في أحد المبيضين، تتحرر في أنبوب فالوب أو بوق فالوب القريب من المبيض لكنه غير ملتصق به. يحدث الإلقاح عندما تتحد النطفة بالبويضة لِتكَوّنا البيضة الملقحة وذلك يتم في البوق. تدفع الأهداب المبطنة للبوق البيضة الملقحة باتجاه الرحم. الرحم هو عضو بجوف ذو جدار عضلي. تعشش البيضة الملقحة في بطانة الرحم وتبدأ بالانقسام والنمو وتتطور إلى جنين. إذا لم تتلقح البويضة بالنطفة فإنها تنحل وتبدأ خلية بويضة أخرى بالتكون والنضج في دورة شهرية أخرى.

تنفتح النهاية السفلى للرحم على قناة تسمى عنق الرحم وهو يتحد بالمهبل الذي ينفتح على الفرج بفتحة تسد بغشاء البكارة. للأنثى فتحة أخرى من أجل التبول غير فتحة المهبل تقع في الأعلى.

يسمى المهبل أيضا قناة الولادة. عندما تتم ولادة الطفل فهو يمر من الرحم عبر عنق الرحم إلى المهبل ثم إلى خارج الجسم.

الدورة التناسلية لدى الأنثى:

هي في الحقيقة عبارة عن دورتين، الدورة الطمثية والدورة المبيضية، فخلال الدورة المبيضية التي يتحكم بها هرمون الاستروجين تنضج البيضة وتتحرر. أما الدورة الطمثية فيتحكم فيها الهرمونان: الاستروجين والبروجسترون وخلالها يتم تهيئة الرحم لتعشيش البيضة الملقحة. تبدأ الدورة الطمثية عند الأنثى بعمر ١١ إلى ١٤ سنة.

الدورة الطمثية: يسبب كل من الاستروجين والبروجسترون تثخن بطانة الرحم، وتصبح الأوعية الدموية جاهزة لتغذي البيضة الملقحة. في حال عدم حدوث الإلقاح فإن بطانة الرحم المتثخنة تتحلل ويحدث الطمث. يسيل الدم وأنسجة بطانة الرحم خلال فترة الطمث والتي تمتد من ثلاثة إلى سبعة أيام، ويعبر المهبل إلى خارج الجسم.

تسبب هذه التغيرات التي تحدث أثناء الدورة الطمثية أحياناً الآلام البطنية والمغص، كذلك فإن بعض النساء في الأسبوع ما قبل الطمث يعانين مما يسمى متلازمة ما قبل الطمث وهي عبارة عن مجموعة من الأعراض مثل الصداع وزيادة الوزن والتوتر أو الاكتئاب.

الدورة المبيضية: يحدث هبوط في مستوى الاستروجين بعد ١٤ يوماً تقريباً من بدء الطمث مما يؤدي إلى نضج البويضة وتحررها من المبيض، ويطلق على هذه

العملية اسم الإباضة التي تحدد بدء الدورة المبيضية. إذا تلقحت البويضة فإنها تلصق نفسها ببطانة الرحم وتعشش متحولة إلى جنين، أما إذا لم يتم الإلقاح فإن الطمث يحدث بعد ١٤ يوما من الإباضة.

العلم والمجتمع:

يشكل انتشار الأمراض المنتقلة عن طريق الجنس مشكلة خطيرة في كثير من المجتمعات. تسمى هذه الأمراض بالأمراض المنتقلة بالجنس وسببها فيروس أو بكتريا ومنها الكلاميديا والسيلان البني وهما ينجمان عن بكتريا ويؤديان إلى التبول المؤلم أو الإفراز غير الطبيعي من الأعضاء الجنسية. تحدث المضاعفات الأكثر خطورة في حال عدم الأخذ بالعلاج اللازم حيث يحدث العقم أي عدم القدرة على الإنجاب نتيجة لانسداد القنوات الناقلة للبويضات أو الناقلة للنطاف.

السفلس أو الزهري هو أيضا مرض ينتقل بالجنس ويسبب مشاكل خطيرة إذا لم يعالج. تتمثل الأعراض بالقرحات في الفم والأعضاء التناسلية وكذلك الحمى والاندفاعات الجلدية، ورغم زوال هذه الأعراض فإن البكتريا تبقى في الدم وتسبب بعد سنوات العمى والشلل والاضطرابات العقلية وقصور القلب.

ينجم العقبول التناسلي أو الهربس عن فيروس يؤدي إلى ظهور حويصلات معدية على الأعضاء التناسلية، ورغم أن هذه الحويصلات تزول خلال بضعة أسابيع لكن الفيروس يبقى حياً في الجسم، ولذلك تظهر الحويصلات تكراراً ولمدة سنوات، ومع أن الأعراض يمكن معالجتها لكن الشفاء التام لا يحدث.

الإيدز أو نقص المناعة المكتسب ينتقل خلال الاتصال الجنسي، ويمكن انتقاله أيضاً عن طريق نقل الدم أو الحقن الوريدية. ينجم الإيدز عن فيروس يهاجم خلايا الجهاز المناعي ويضعفها، مما يجعل الشخص المصاب به أقل مقاومة للأمراض ولذلك يموت الكثيرون ممن أصيبوا به، وإلى الآن لم يكتشف له علاج.

ثانياً: الإلقاح والحمل والولادة

الحمل هو الفترة بين الإلقاح والولادة، ويستمر لمدة تسعة أشهر في الإنسان وتحدث تغيرات هامة في جسم المرأة الحامل.

الإلقاح:

يتم قذف السائل المنوي الذي يحوي ملايين النطاف في مهبل الأنثى خلال الاتصال الجنسي، وتسبح النطاف بسرعة من المهبل خلال عنق الرحم إلى الرحم ثم إلى بوقي فالوب.

تتوضع البويضة في أحد البوقين، حيث تفرز مادة كيميائية تجذب النطاف وتقودها إليها. تحيط النطاف بالبويضة وتلتصق بالمادة الهلامية المحيطة بالبويضة، لكن نطفة واحدة تستطيع اختراق جدار البويضة الناضجة وتلقحها.

تفرز البيضة الملقحة مواد كيميائية بعد الإلقاح مباشرة، تشكل حجاباً يحمي البيضة ويمنع باقي النطاف من الدخول إليها.

تحوي البيضة الملقحة ٤٦ صبغياً، ٢٣ صبغي من البويضة و٢٣ من النطفة، وتبدأ البيضة الملقحة بالتحول إلى كائن بشري.

التطور قبل الولادة:

تنمو البيضة الملقحة والتي هي أصغر من ذرة الملح وتخضع لتغيرات هامة، فخلال التسعة أشهر القادمة ستتحول إلى جنين بشري مكون من ترليونات من الخلايا. يبدأ الانقسام في الخلية حال سيرها في بوق فالوب، فالخلية الواحدة تصبح اثنتين والاثنتان تصبحان أربع وهكذا حتى تشكل كرة صغيرة تستمر في الانقسام والتغير حتى تصل الرحم في اليوم السادس للإلقاح، حيث تلتصق بالجدار الداخلي للرحم.

تبدأ المشيمة بالتشكل ضمن الرحم، وهي عبارة عن العضو الذي يوصل للجنين المواد الغذائية من الأم ويخلصه من الفضلات. تتصل المضغة _ اسم الجنين في المراحل الأولى للحمل– بالمشيمة بواسطة الحبل السري وهو عبارة عن حبل طري بداخله الأوعية الدموية وهو يمكّن المضغة من الحركة بحرية ضمن السائل المحيط به. ورغم أن المواد تعبر بين الأم وجنينها لكن دمها لا يختلط بدمه، بل ينفصل عنه بطبقة رقيقة من الخلايا.

تتحول المضغة إلى الشكل الأقرب للإنسان بعد ثماني أسابيع تقريباً من الإلقاح، حيث تتشكل الأصابع في اليدين والقدمين وكذلك الأجفان، وتكون كل الأحشاء قد تطورت، ويطلق اسم الجنين على هذا الكائن المتطور من عمر ثماني أسابيع حتى نهاية الولادة.

ينمو الجنين بسرعة بين الشهر الثالث والشهر السادس، وتبدأ الأم بالشعور بحركاته في هذه الفترة. ويكون له شعر قليل على رأسه بينما أظافره نامية، ويبدأ نومه ويقظته بأخذ شكل منتظم.

معظم نمو الجنين يحدث في الأشهر الثلاثة الأخيرة، حيث تتكون طبقة من الشحم تحت الجلد، والعظام تقسو. يكون طول الجنين قرب الولادة ٤٥ سم ووزنه يتراوح بين ٣ و٤ كغ.

الولادة:

ينمو الجنين داخل الرحم ويتطور بحيث يصبح في نهاية الشهر التاسع للحمل قادراً على الحياة خارج الرحم، ويتوضع في نهاية الحمل بشكل طولاني بحيث أن رأسه يتجه للأسفل غالباً. تبدأ عملية الولادة أو المخاض عندما تأخذ عضلات الرحم بالتقلص والارتخاء على فترات منتظمة، دافعة الجنين خارج الرحم من خلال مهبل الأم الذي يعرف بقناة الولادة.

لعملية الولادة ثلاثة مراحل: المرحلة الأولى تدوم من ساعتين إلى ٢٤ ساعة حيث تكون تقلصات الرحم متباعدة تحدث في البداية كل ١٥ إلى ٢٠ دقيقة، بينما في نهايتها تحدث التقلصات كل دقيقتين وبشكل أقوى، دافعةً الجنين إلى أسفل، وهنا تبدأ المرحلة الثانية حيث يبدأ رأس الجنين بالظهور، وتستمر من دقائق إلى ساعة حيث تستعمل الأم عضلات بطنها لتدفع الجنين عبر قناة الولادة، وتتم ولادة الجنين بواسطة التقلصات ودفع الأم له خارج جسمها.

يبقى الجنين متصلاً بأمه بعد الولادة بالحبل السري، فيلقط الحبل السري عندها ويقص بشكل لا يتأذى معه المولود أو الأم، وتسقط بقية الحبل السري خلال أيام تاركة مكانها السرة والتي هي علامة لمكان التصاق الحبل السري بالبطن.

خلال المرحلة الثالثة للولادة تدفع التقلصات السائل المتبقي مع الدم وبقايا الحبل السري والمشيمة خارج جسم الأم، وتدوم هذه المرحلة من ١٥ إلى عشرين دقيقة.

صعوبات التناسل:

التناسل البشري هو عبارة عن عملية معقدة مركبة من عدة مراحل، وقد تظهر الصعوبات خلال أي مرحلة منها مثل انسداد أنابيب فالوب في المرأة أو قلة الحيوانات المنوية (النطاف) عند الرجل.

قد تظهر الصعوبات الأخرى في أثناء الحمل نفسه كأن يتطور الجنين في بوق فالوب بدلاً من الرحم، وهذه الحالة تسمى الحمل خارج الرحم أو الحمل الهاجر أو الحمل البوقي، وهي تتطلب تدخلاً جراحياً فورياً. كذلك قد ينتهي الحمل فجأةً بما يسمى الإسقاط أو الإجهاض، وأسبابه غير معروفة أحياناً.

قد يولد الجنين أحيانا قبل الشهر التاسع أي قبل أن يستكمل نموه، وهنا يسمى خديجاً، ويكون صغيراً جداً وغالباً ما تكون أعضاؤه غير كاملة، فيعاني ربما من صعوبات التنفس أو تأذي الدماغ أو العَمى، وقد لا يعيش بدون عناية مركزة داخل المستشفى

كذلك هناك بعض الولادات لا تتم بالطريق الطبيعي بل يجب إجراء العملية القيصرية بفتح البطن لإخراج الجنين.

التقنية والعلم (الصحة قبل الولادة):

يتم متابعة صحة الجنين داخل الرحم بواسطة جهاز الأمواج فوق الصوتية (الألتراسوند)، ويتم ذلك بتحريك أداة خاصة موصولة بالجهاز على بطن الأم الحامل، حيث ترسل هذه الأداة الأمواج الصوتية الراجعة من جسم الجنين، ويتم تغيرها إلى نبضات كهربائية تعرض بشكل صور للجنين على شاشة كشاشة التلفاز.

يستعمل جهاز الأمواج فوق الصوتية للكشف عن أعضاء الجنين في حال وجود أي تشوه فيها أو نقص، كذلك لتشخيص الحمل الهاجر باكراً ما أمكن. يمكن معالجة بعض هذه التشوهات والجنين ما يزال في الرحم، بينما يتم معالجة بعضها الآخر بعد الولادة مباشرة. يمكن متابعة الجنين بواسطة الأمواج فوق الصوتية في أي مرحلة من مراحل الحمل لأنها ليست مؤذية له أو للأم.

كذلك هناك وسيلة متابعة أخرى هي بزل السائل الأمنيوسي الذي يحيط بالجنين، أي سحبه بواسطة إبرة خاصة مجوفة، حيث أن الجنين يطرح بعض خلايا من جسمه خلال نموه في هذا السائل، فبدراسة هذه الخلايا بعد سحب كمية صغيرة من السائل يمكن معرفة فيما إذا كان الجنين مصاباً ببعض الأمراض الوراثية وغير الوراثية، كذلك هذه الخلايا هي مؤشر على عمر الجنين بالتحديد وجنسه، ولهذا الفحص أهمية أحياناً عند الخوف من أن يولد الجنين خديجاً، فيمكن من خلال دراسة السائل نفسه معرفة تطور رئة الجنين، ولكن في معظم الحالات يفضل إجراء هذا الفحص حوالي الشهر الثالث والنصف.

الخاتمة

وختاماً إن أولادنا أمانة استودعها الله سبحانه عندنا فعلينا:

- نحسن تربيتهم ونهذّب أخلاقهم...
- أن نُحيي فيهم الفطرة السليمة التي فطرنا الله سبحانه عليها..
- أن نزرع فيهم خشية الله وأنه سبحانه مُطّلع علينا في كل صغيرة وكبيرة...
- أن نُحصّنهم بثقافة المناعة لاثقافة المنع...
- أن نشرح لهم دوماً ونُبيِّن لهم الخطأ من الصواب في تصرفاتهم...
- أن نتفهم أنهم أصبحوا في سن الرشد والبلوغ...
- أن نعلمهم كيف يُحصّنون أنفسهم حتى يأذن الله سبحانه لهم بالزواج ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٢٤/٣٣].
- أن نسهِّل لهم سبل الزواج لقول رسول الله ﷺ **(يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة -المقدرة على الزواج- فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء -قاطع للشهوة-)**
- أن نكرر على مسامعهم دوماً قول الله سبحانه وتعالى للمؤمنين والمؤمنات: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ ما ظَهَرَ مِنْها...﴾ [النور: ٢٤/٣١]. وقوله جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ ۞ إِلاَّ عَلَى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ابْتَغَى وَراءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعادُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٥-٧].

• أن نُجنبهم كل مافيه إثارة للغريزة وأن نكون قدوة حسنة لهم في ذلك.

• أن نشرح لهم بأسلوب بسيط سليم، وبحكمة.. فإن يأخذوا عنّا خير من أن يأخذوا عن غيرنا.. وليكن أسلوبنا في تعليمهم، الأسلوب الذي خاطبنا به الله سبحانه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ و﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾.

• أن نقذف في قلوبهم أن أعضاءنا التي خلقها الله سبحانه، إن حفظناها في الصغر حفظها لنا الله سبحانه في الكِبَر.

• أن لاننسى أن أولادنا خُلقوا ليعيشوا في زمان غير زماننا، فلعلهم بحاجة إلى تربية غير تربيتنا.

• وأخيراً عسى الله إن أحسنا تربيتهم أن نكون ممن يردد قول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٤].

اللهم آمين، صدق الله العظيم، والحمد لله رب العالمين

المراجع

أولاً: الكتب:

١- فلسفة التربية.

٢- رعاية نمو الطفل.

٣- الأسلوب الأمثل لتنمية احترام الذات لدى طفلك.

٤- أولادنا من الطفولة إلى الشباب.

٥- سيكولوجية الحب والعلاقات الأسرية.

٦- الطفل بين الوراثة والبيئة.

٧- الشباب بين العقل والعاطفة.

٨- الأفكار والرغبات بين الشيوخ والشباب.

٩- سياسات تربوية خاطئة.

١٠- الاعتكاف عودة إلى الذات.

١١- البلوغ (سلسلة وقل رب زدني علما).

١٢- ما لانعلمه لأولادنا (الجزء الأول).

١٣- الحب بين الشهوة والأنا.

١٤- إذا كان الحب لعبة فهذه هي قوانينها.

١٥- تنشئة الأطفال وثقافة التنشئة.

١٦- تحرير المرأة في عصر الرسالة.

١٧- تساؤلات الطفل ومخاوفه.

١٨- مشاكل الأطفال كيف نفهمها؟

١٩- التحليل النفسي للولد.

٢٠- تربية الفتاة في الإسلام.

ثانياً: مواقع على الإنترنت ذات صلة:

http://www.lahaonline.com/Organizati/Documents/a2-18-7-2002.doc_cvt.htm

http://nahed.net/vchild4.html

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/news/newsid_1513000/1513956.stm

http://news.masrawy.com/masrawynews/27112002/109139news.htm

http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?code=arabic&aid=4998

http://www.balagh.com/woman/heih/xf1cy6w5.htm

http://www.bintjbeil.com/A/news/2002/0813_education.html

http://elazayem.com/new_page_76.htm

http://www.islamweb.net/family/hewar_moras/hewar3.htm

http://www.geocities.com/scfl_2000/200203.htm#10

http://www.hayatna.com/teenager/sex-education3-a.html

http://www.islam4u.com/almojib/3/11/3,11,2.htm

http://www.islamicmedicine.org/psychology.htm

http://www.angelfire.com

http://www.aacap.org

http://www.befree.com

http://www.stopitnow.com/

http://www.geocities.com/HotSprings/2656/dozhelp.html

http://www.geocities.com/HotSprings/2656/parent.html

http://www.islamonline.net

الفهرس

المؤلفة في سطور

- مديرة النشر والتحرير في مركز الراية للتنمية الفكرية.
- مستشارة اجتماعية في موقع إسلام أون لاين على الإنترنت
- باحثة ومهتمة بالشأن العربي الإسلامي والعالمي الإنساني.
- عملت المؤلفة في أكثر من بلد عربي بحكم مهنتها كطبيبة مختصة بالنساء والولادة، مما ساعدها على تفهم واقع المجتمعات العربية وملاحظة الصفات التي تنتظم فيها الشعوب العربية سلباً وإيجاباً؛ كما أن احتكاكها بثقافات الشعوب الأخرى منحها أبعاداً معرفية جمة وبلور نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان.
- أسهمت في تحريك الركود الفكري والقلم النسائي من خلال مشاركاتها الفاعلة على الإنترنت ودعمها لمواقع إلكترونية عالمية ومن خلال مقالاتها المميزة في الصحف والمجلات العالمية.
- من نتاجها الفكري: حوار الثقافات (مدخل لقراءة الآخر ونقد الذات)، وكتاب أسئلة محرجة وأجوبة صريحة بأجزائه الثلاثة: مشاكل الزواج والشباب والأولاد، وكذلك كتاب في سؤال النهوض والتغيير بالاشتراك مع عدد من المؤلفين، كما ساهمت في إعداد برامج تربوية ودينية لبعض المدارس العالمية.
- لها تجربة حياتية مرت بروحانية الشرق وتقاليده ومعاناته وبعقلانية الغرب وحداثيته ومشكلاته، مما فتح أمامها آفاقاً من الخبرة الحقيقية بمساوئ ومحاسن كل منهما.
- تدرك أن سلم الارتقاء في الشهود الحضاري للأمة مفاده :

لا يمكن أن نخطو خطوة واحدة في بناء الحضارة، إلا عبر تقبل الذات أولاً لتكون مدخلاً لتقبل الآخر، ثم الاستفادة من تجارب الآخر في نقد الذات وتصحيح أخطاء المسيرة.



مركز الراية
للتنمية الفكرية

مؤسسة ثقافية ناشرة تعنى بالفكر الإنساني وتجلياته الإبداعية، وتسعى لبعث ثقافة منفتحة تعانق الآخر ولا تستبعده أو تقصيه، وتنمي أنهار المعرفة بتغذيتها بفكر حر متجدد.

يقوم المركز على ثوابت و قسمات هوية الأمة الرئيسة ليؤصل مفاهيم حضارية مثل:

- ✓ العقلانية والرشد الفكري هما ركيزتا البعث الحضاري المنشود للأمة.
- ✓ استلهام الدروس والعبر من الماضي لعيش الحاضر بعين مبصرة واستكشاف المستقبل بروح متبصرة.
- ✓ التركيز على عوامل العطل والكلالة والاستنبات التي أدخلت الأمة في نفق الصوت لا الفعل، ومحاولة الكشف عن جذورها ورصد تفرعاتها المتعددة وصولاً إلى حلول لأمراضنا الفكرية والتربوية والنفسية والاجتماعية و...و..
- ✓ إغناء عقل القارئ العربي بما فيه المتعة والفائدة، وجذب القراء بمختلف شرائحهم العمرية بإصدار ما يتفق مع طموحاتهم و ينمي وعيهم ويفتح آفاق المعرفة أمامهم.
- ✓ إصدارات أكثر تنوعاً وغنى لوضع أسس جديدة في تفهم الذات والتعامل مع الآخر وذلك من قبل مجموعة من المفكرين المتميزين بفكر حر أصيل.

استذكرت قول الدكتور الكبير المرحوم أبو شقة في موسوعته الرائعة (تحرير المرأة) : (الحياء المسرف ما هو إلا وضع نفسي نشأ وتمكن منا حتى ليستعصي علاجه إذا حاولنا العلاج وذلك نتيجة أوهام وتقاليد بالية ما أنزل الله بها من سلطان لكننا توارثناها جيلاً بعد جيل وكأنها دين نستمسك به ونلقى الله عليه وما درينا أننا أسرفنا على أنفسنا واتبعنا أهواءنا وخالفنا شرع الله الحكيم وهدي نبينا الكريم وسيرة أصحابه الأطهار).

وإذا كنا نسعى نحو حياة ناجحة لأسرنا فلنهتم بأبنائنا ولنتذكر أن طفل اليوم شاب الغد.

والشاب هو القادر على تحويل القسوة إلى سلاح ضد الذين يبددون كرامة الإنسان كما يقول الدكتور سبوك وهو الذي يستطيع أن يبرمج الأيام بما يحقق سعادته ورفعة مجتمعه. وإننا بمقدار وضوح تربيتنا وجديتها وإنسانيتها نقرر مستقبل أبنائنا بل ومصيرنا كأمة.

